جامع شروحات كتب العقيدة

جامع شروحات كتاب

الأصول الثلاثة

وأدلتها

للمشايخ الفضلاء

عبد العزيز بن عبد الله بن باز   عبد الرحمن بن ناصر البراك

صالح بن فوزان الفوزان   محمد بن صالح العثيمين

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

جمع وإعداد

راشد علي الطنيجي



المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى إله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الكتاب الأول من سلسلة «**جامع شروحات كتب العقيدة**» وهو كتاب: «**الأصول الثلاثة وأدلتها**» للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وهو من الكتب التي لا يخفى على طالب علم، مدى أهميته وقيمته؛ فإني لما كان عليَّ دراسة كتاب «**الأصول الثلاثة وأدلتها**»، كان في خاطري أن أعيّ الكتاب وعياً وفهماً يُرضيني، فأردتُ أن أجمع فيه جمعاً طيباً من الفوائد والعبارات المختلفة لمختلف العلماء، حتى لا تفوتني منه فائدة قدر المُستطاع؛ فعَمَدْتُ إلى شروحات هذا الكتاب لمختلف العلماء، فرسوت على خمسةٍ منها؛ ولم أُرِدِ الاستطالة، نظراً لكون هذا الكتاب من المتون الصغيرة.

عملي في كتاب الأصول الثلاثة

جمعت كتابي هذا «**جامع شروحات كتاب الأصول الثلاثة وأدلتها**» خمسٍ من الشروحاتِ لكبار العلماء المعروفين؛ ثم ترجمت للمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ثم استدركتُ بترجمة الشُراح الخمس؛ فأخذت ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين من كتب الشرح المطبوعة؛ وجمعت تراجم الشُرَّاح الآخرين الذين لم تُذكر ترجمتهم في الكتبِ المطبوعة، من الشبكة المعلوماتية والمواقع العلمية.

ثم شرعت ببداية جمع الشروحات على المتن وتنسيقها، لتكون جملة واحدة متناسقة، وكان ذلك على ما يلي:

١- جعلت شرح الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك هو الأصل وغيره منسق عليه.

٢- عند انتهاء كل شرح، في كل مسألةٍ لعالم من الشُرَّاحِ، أذكر اسمه في الحاشية؛ مثال: «شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين».

٣- هناك شروحات بنفس المعنى لكن تختلف العبارة، فعندها، أثبت الشروحات كلها وذلك لمعرفة أقوال العلماء كلهم المذكورين أو إذا كان التكرار تثبيتاً للمعلومة، أو شرح بطريقة أخرى، فعندها أثبت الشرح المكرر.

ذكر الشيخ صالح العبود في كتاب «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (١/ ٢٢٢): رسالة: ثلاثة الأصول وأدلتها: ويظهر أن هذا العنوان هو أول ما عنونت به هذه الرسالة، فإذا لاحظنا طبعاتها الأولى؛ نجد أن عنوانها هكذا كما دون أعلاه، فمثلا طبعتها ضمن مجموعة نشرها عيسى بن رميح سنة (١٣٣٨هـ)، وطبعتها سنة (١٣٤٠هـ) بمطبعة المنار، وطبعتها سنة (١٣٤٥هـ) بالمطبعة السلفية بالقاهرة ضمن مجموعة متون١، كلها بهذا العنوان، وكذلك إذا لاحظنا تعبيرات بعض المؤرخين والعلماء عنها فإنهم يعبرون عنها بهذا العنوان٢. وقد عنونت هذه الرسالة بعناوين تختلف بترتيب ألفاظها، وبالألفاظ ذاتها وبالاختصار والطول، فمرة بعنوان: «ثلاثة الأصول» وأخرى: «ثلاثة الأصول وأدلتها» وثالثة: «الأصول الثلاثة وأدلتها». ا.هـ

وقال الشيخ عبد المحسن القاسم -حفظه الله-: «وقد صدِّرت «ثلاثة الأصول» بثلاث رسائل نافعة عظيمة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

هـي قواعـد في الدين: الأولى منهـا: في وجوب العلم، والعمـل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه. والثانية: في توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء. والثالثة: في بيان التوحيد وضده.

وبذلـك جـاءت «ثلاثة الأصول» مع مـا صدرت به من الرسـائل مكتملة العقد في أصول الدين، ودرة مضيئة للعابدين الـموحدين، قال عنها الشـيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه رسالة مهمة في العقيدة». ا.هـ

ولكتـاب «الأصـول الثلاثـة وأدلتهـا» -أو «ثلاثـة الأصـول وأدلتهـا»- شروحات كثيرة نفيسة مفيدة؛ فما أردت أن يفوتني خيراً على قدر الـمُستطاع، وعلى ما كان مني، بـما ارتاحت له نفسي في جمع شروحات كتاب التوحيد، من باب التوسع في أخذ الـمعلومة، بـحيث تأتي شروحات العلماء، مُجمعة كل مسـألة بـمكان واحد متتالي متناسقٌ على شـرط عدم الزيادة أو التكرار، بحيث يكون شرح الـمسألة الواحدة، متكاملاً من الشروحات الـخمس.

الكتب التي تم استخراج الشروح والفوائد منها وترتيبها:

١. شرح الأصول الثلاثة لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

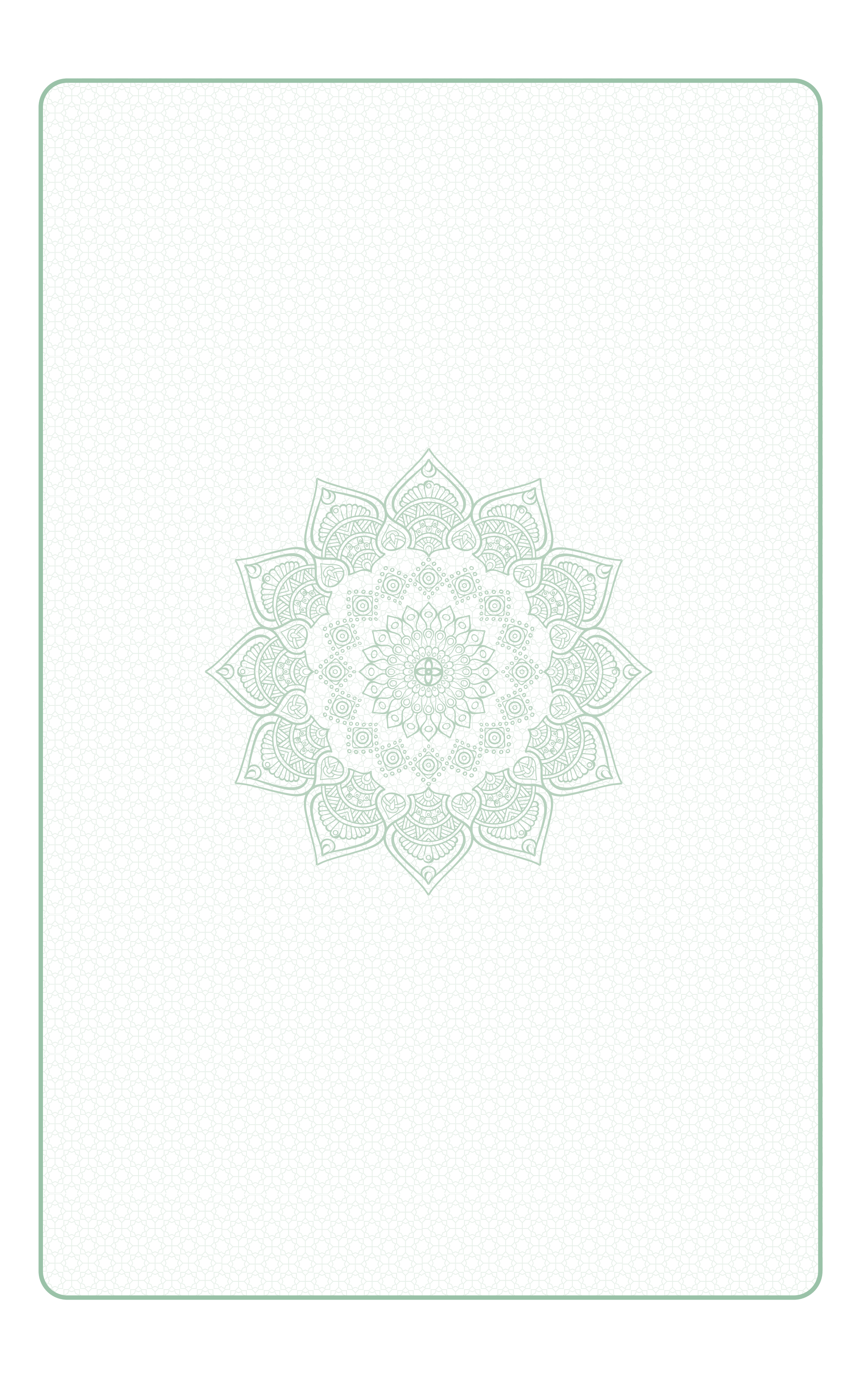
٢. شرح ثلاثة الأصول لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

٣. شرح الأصول الثلاثة لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

٤. شرح ثلاثة الأصول لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥. شرح الأصول الثلاثة لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا وبالله التوفيق.



ترجمة مؤلف كتاب (ثلاثة الأصول)

شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

ترجمة مؤلف كتاب (ثلاثة الأصول)

نسبه:

هو شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر من بني تميم.

مولده:

ولد هذا العالم في بلدة العيينة سنة ١١١٥ هجرية في بيت علم وشرف ودين، فأبوه عالم كبير، وجده سليمان عالم نجد في زمانه.

نشأته:

حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين ودرس في الفقه حتى نال حظًا وافرًا وكان موضع الاعجاب من والده لقوة حفظه، وكان كثير المطالعة في كتب التفاسير والحديث، وَجَدَّ في طلب العلم ليلاً ونهارًا، فكان يحفظ المتون العلمية في شتى الفنون، ورحل في طلب العلم في ضواحي نجد وفي مكة وقرأ على علمائها، ثم رحل إلى المدينة النبوية فقرأ على علمائها، ومنهم العلامة الشيخ عبدالله بن إبراهيم الشمري، كما قرأ على ابنه الفرضي الشهير إبراهيم الشمري مؤلف العذب الفائض في شرح ألفية الفرائض وعرّفاه بالمحدث الشهير محمد حياة السندي فقرأ عليه في علم الحديث ورجاله وأجازه بالأمهات. وكان الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قد وهبه الله فهمًا ثاقبًا وذكاءً مفرطًا وأكب على المطالعة والبحث، والتأليف وكان يثبت ما يمر عليه من الفوائد أثناء القراءة والبحث وكان لا يسأم من الكتابة وقد

خـط كتبـًا كثيـرة من مؤلفات ابـن تيمية وابن القيـم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ ولا تزال بعض المخطوطات الثمينة بقلمه السيال موجودة بالمتاحف.

ولما توفي والده -سـنة ١١٥٣ هـ- أخذ يعلن جهرًا بالدعوة السـلفية إلى توحيد الله وإنكار المنكر ويهاجم المبتدعة أهل الأوثان والأصنام، وقد شـدّ أزره الولاة من آل سعود وقويت شوكته وذاع خبره.

مؤلفاته:

وله رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ مؤلفات نافعة نذكر منها:

١- كتاب التوحيد.

٢- كتاب كشف الشبهات.

٣- كتاب «الكبائر».

٤- كتاب «ثلاثة الأصول».

٥- كتاب مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

٦- كتاب (مختصر زاد المعاد).

٧- وله فتاوى ورسائل جمعت باسم مجموعة مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب تحت اشراف جامعة الإمام محمد بن سعود.

وفاته:

توفي رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ عام ١٢٠٦ هـ فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بقلم

الفقير إلى الله تعالى

فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان

وقال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان في شرحه لكتاب (كشف الشبهات):

«الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعينَ أما بعد: ... وقبل أن ندخل في موضوع الرسالة نتكلم عن المؤلف والتعريف به من أجل أن يكون عند طالب العلم معرفة بهذا المؤلف وطريقته في دعوته؛ لأن هذا من الأمور المهمة في معرفة الأئمة والدعاة إلى الله، ومعرفة نشأتهم ودعوتهم؛ من أجل أن يسير طلاب العلم على نهجهم، ويقتبسوا من سيرتهم، ويقتدوا بهم. فهو الشيخ الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف التميمي النجدي ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بلدة العيينة[1] وهي قرية في شمال الرياض، وكانت محل أسرته. نشأ في بيت علم: فأبوه كان القاضي في البلد، وجده الشيخ سليمان كان هو المفتي والمرجع للعلماء، وأعمامه كلهم علماء، فنشأ في بيت علم.

ودرس على يد أبيه عبد الوهاب وعلى أعمامه منذ صغره، فقد حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ سن العاشرة، فاشتغل في طلب العلم وحفظ القرآن على أبيه، وقرأ كتب التفسير والحديث حتى برع في العلم وهو صغير وأعجب أبوه والعلماء من حوله بذكائه ونبوغه، وكان يناقش في المسائل العلمية حتى أنهم استفادوا من مناقشته فاعترفوا له بالفضل، ثم إنه لم يكتف بهذا القدر من العلم وإن كان فيه الخير إلا أن العلم لا يُشْبَع منه.

فرحل لطلب العلم وترك أهله ووطنه وسافر إلى الحج، وبعد الحج ذهب

---

(١) عام ١١١٥هـ المتوفى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٢٠٦هـ، انظر الأعلام للزركلي ٦/ ٢٧٥، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٣/ ٤٧٢ برقم ١٤٤٦٣.

إلى المدينة والتقى بعلمائها في المسجد النبوي خصوصا الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف وكان إماماً في الفقه وأصوله، وهو من أهل نجد من أهل المجمعة في سدير، وكذلك ابنه إبراهيم بن عبد الله مؤلف كتاب «العذب الفائض شرح ألفية الفرائض». والتقى كذلك بالمحدث الشيخ محمد حياة السندي وأخذ منه إجازة في مروياته من كتب الحديث ثم رجع إلى بلاده، ولم يكتف بهذا بل سار إلى بلاد الأحساء في شرق بلاد نجد وفيها العلماء من حنابلة وشافعية ومالكية وحنفية وأخذ عنهم خصوصا عن الحنابلة، ومنهم محمد بن فيروز وعبد الوهاب بن فيروز أخذ عنهم الفقه، وأخذ عن عبد الله بن عبد اللطيف الأحسائي.

ولم يكتف بهذا بل ذهب أيضا إلى العراق إلى البصرة خاصة وكانت آنذاك آهلة بالعلماء في الحديث والفقه، فأخذ عن علمائها خصوصا الشيخ محمد المجموعي وغيره، وكان في كل تنقلاته إذا ظفر بكتاب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومن كتب تلميذه ابن القيم نسخه بقلمه، ونسخ كثيرا من الكتب في الأحساء وفي البصرة فتجمعت لديه مجموعة عظيمة من الكتب.

ثم إنه هم بالسفر إلى بلاد الشام لما فيها من أهل العلم خصوصا من الحنابلة وأهل الحديث، ولكنه بعدما سار إليها شق عليه الطريق وحصل عليه جوع وعطش وكاد أن يهلك في الطريق وأنتم تعلمون الإمكانات في ذلك الوقت وبعد المسافة فرجع إلى البصرة، وعدل عن السفر إلى الشام، ثم رجع إلى نجد بعد ما تسلح بالعلم، وبعدما حصل على مجموعة كبيرة من الكتب، إضافة إلى الكتب التي كانت عند أهله وعند أهل بلده، ثم اتجه إلى الدعوة والإصلاح ونشر العلم النافع، ولم يرض بأن يسكت ويترك الناس

على ما هم عليه بل أراد أن ينتشر علمه وأن يدعو إلى الله، فنظر في مجتمعه فوجد فيه من الشر والشرك الأمور الكثيرة فأخذته الغيرة على دين الله والرحمة للمسلمين ورأى أنه لا يسعه السكوت على هذا الوضع.

وكان علماء نجد يعنون بالفقه وهم في العقيدة على عقيدة المتكلمين من أشاعرة وغيرهم ليس لهم عناية بعقيدة السلف كما هو في الشام وفي مصر وغيرها من الأقطار، وكانت العقيدة المنتشرة فيها هي عقيدة الأشاعرة، مع ما عند كثير منهم من الإخلال، بتوحيد الألوهية.

وأما عقيدة السلف فقل من يعني بها، وطغت على الكثير منهم الخرافات والبدع والشرك في العبادة المتمثل بعبادة القبور هذا من الناحية العلمية.

وأما من الناحية السياسية فكانوا متفرقين ليس لهم دولة تجمعهم بل كل قرية لها أمير مستقل بها، فالعيينة فيها حاكم، والدرعية فيها حاكم، والرياض فيها حاكم، وكل قرية صغيرة فيها حاكم، وكانت بينهم حروب وسلب ونهب فيما بينهم وبين القرى والبادية، فمن الناحية السياسية كانت البلاد في قلق وتفرق وفي تناحر وضياع حتى أن أهل البلد الواحد يقاتل بعضهم بعضا. وفي بلاد نجد عبادة القبور والاستغاثة بالأموات، فقد كانت عندهم قبور للصحابة كقبر زيد بن الخطاب الذي استشهد مع جماعة من الصحابة في حرب مسيلمة الكذاب وكانوا يستنجدون بها ويستغيثون بها، وعلى قبر زيد قبة وكانوا يأتون إليها من بعيد. وهي مشهورة عندهم. وعندهم أشجار ونخيل يعتقدون فيها ويتبركون بها، بل كانت عندهم النحل الباطلة مثل الصوفية ووحدة الوجود في الرياض والخرج، هكذا كانت حالتهم الدينية والعلماء ساكتون عن هذا الوضع، بل إن بعض العلماء يشجعون على هذه الخرافات ويؤيدونها،

فلما رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال المسلمين تحرك للدعوة إلى الله وقام يدعو إلى الله، ويدرس التوحيد، وينكر هذه الشركيات والخرافات، ويقرر منهج السلف الصالح فتكون عنده تلاميذ من الدرعية والعيينة ممن أراد الله له الخير.

ثم إنه اتصل بأمير العيينة وعرض عليه الدعوة فقبل منه الأمير ووعده بالمناصرة في أول الأمر وهدم قبة زيد بن الخطاب حيث طلب من الأمير هدمها لأنه لا يمكن أن يهدمها إلا من له سلطة أما الفرد فلا يستطيع ذلك فاستجاب له الأمير، وجاء إلى الشيخ امرأة اعترفت بالزنا وطلبت منه أن يقيم عليها الحد فردها، حتى كررت عليه الطلب مثل ما فعلت الغامدية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(١)] فأقام عليها الحد ورجمها، فلما بلغ أمير الأحساء هدم القبة وأنه رجم المرأة أرسل إلى أمير العيينة وقال: إما أن تطرد هذا المطوع وإلا قطعت عنك المساعدة التي أرسلها إليك. فجاء الأمير إلى الشيخ وعرض عليه الأمر وقال: أنا لا أقدر أن أقاوم هؤلاء. فهدأه الشيخ ووعده بالخير وأن يتوكل على الله وأن الرزق بيد الله وأن هذه عقيدة التوحيد من قام بها فإن الله يعينه وينصره، لكن الأمير أصر على خروج الشيخ من بلده، فخرج الشيخ من العيينة في وقت القيلولة وذهب إلى الدرعية وكان له فيها تلميذ من خيار التلاميذ يقال له ابن سويلم فذهب الشيخ من العيينة إلى الدرعية ليس معه إلا المروحة اليدوية يهوي بها على وجهه وهو يمشي ويقول ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق] يردد هذه الآية وهو يمشي فلما وصل إلى تلميذه في الدرعية أصاب التلميذ خوف وقلق من مجيء الشيخ لأنه يخشى على نفسه وعلى الشيخ من أهل البلد

(١) انظر صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٢،١٣٢١، كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا.

لأنهم متحاذرون من هذا الشيخ، فهدأه الشيخ وقال: لا يخطر في بالك شيء أبدا، توكل على الله جَلَّ وَعَلَا فهو ينصر من نصره.

وفيما هم كذلك علمت زوجة أمير الدرعية وكانت امرأة صالحة فعرضت على زوجها الأمير محمد بن سعود أن يناصر هذا الشيخ الذي جاء، وأنه نعمة من الله ساقها إليه فبادر باغتنامه، فأدخلت عليه الطمأنينة وحب الدعوة وحب هذا العلم، فقال الأمير: يأتيني. فقالت زوجته: بل اذهب أنت إليه لأنك إذا أرسلت إليه وقلت يأتيني ربما يقول الناس طلبه من أجل أن يبطش به، لكنك إذا ذهبت إليه يكون هذا عزاً له ولك.

فذهب إليه الأمير في بيت التلميذ وسلم عليه وسأله عن قدومه، فشرح له الشيخ وبين له أنه ليس عنده إلا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهي الدعوة إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، وشرح معناها وبين له أنها عقيدة الرسل. فقال الأمير: أبشر بالنصر والتأييد، وقال له الشيخ: وأبشر بالعز والتمكين لأن هذه الكلمة لا إله إلا الله من قام بها فإن الله يمكن له. فقال له الأمير: لكني أشترط عليك شرطا. قال: وما هو؟ قال: أن تتركني وما آخذ من الناس. قال الشيخ: لعل الله يغنيك عن هذا ويفتح لك باب رزق من عنده. فتفرقا على هذا، وقام الشيخ بالدعوة وقام الأمير بالمناصرة.

ثم توافد الطلاب على الدرعية وصار للشيخ مكانة فيها، فكان هو الإمام في الصلاة والمفتي والقاضي، فتكونت إمارة للتوحيد في بلاد الدرعية من ذلك الوقت، وأرسل الشيخ رسائل إلى أهل البلدان والقرى يدعوهم إلى الله، والدخول في عقيدة التوحيد، وترك البدع والخرافات، فمنهم من استجاب وانضم إلى الدعوة بدون جهاد وبدون قتال، ومنهم من مانعه

وعانـده، فقاتل جنود التوحيد بقيادة الأمير محمد بن سـعود وريادة الشـيخ محمـد بن عبـد الوهاب قاتلوا مـن عاند وعارض. وامتـدت الدعوة في بلاد نجـد وسـلمت له البلاد ومن حولهـا، حتى أمير العيينة الـذي كان له موقف مع الشيخ دخل في ولاية محمد بن سعود، وكذلك دخلت الرياض بعد قتال شـديد، وامتدت إلى الخرج وما وراء الخرج، وإلى الشمال والجنوب حتى عمت من حدود الشـام شـمالا إلى حدود اليمن جنوبـا، ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي شرقًا، كلها صارت تحت ولاية الدرعية بادية وحاضرة، وأفـاء الله علـى الناس في الدرعية الخير والرزق والغنـى والثروة، وقامت بها أسـواق تجارية، واستنارت بالعلم والقوة ببركة هذه الدعوة السلفية التي هي دعوة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.[1]



(١) شرح كتاب كشف الشبهات للعلامة الفوزان.

نبذة عن الكتاب

نبذة عن الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبين أيدينا هذه الرسالة - رسالة ثلاثة الأصول - وهي رسالة جليلة مختصرة مؤيدة بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذه الرسالة في أصل عظيم من أصول الإسلام وهو العقيدة، وكان العلماء يهتمون بهذه المختصرات يؤلفونها، ويتعبون على اختصارها وتهذيبها ثم يحفظونها لطلبتهم؛ لتبقى أصولا عندهم وذخيرة عندهم يستفيدون منها ويفيدون منها.

والبداءة بهذه المختصرات هي الأساس لطلبة العلم، فطالب العلم يبدأ بالتعلم شيئا فشيئا يأخذ من مبادئ العلم وأصوله، ويتدرج فيه.

فهذه المختصرات طريق المطولات. لا يمكن أن تفهم المطولات إلا بعد فهم المختصرات والتدرج منها شيئًا فشيئًا؛ ولهذا قالوا في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩] إن الربانيين هم الذين يبدؤون بصغائر مسائل العلم قبل كباره، يربون أنفسهم وطلابهم ابتداء من المسائل الصغيرة إلى المسائل الكبيرة، وهذا شيء طبيعي؛ لأن كل الأشياء تبدأ من أصولها وأساساتها ثم تكبر وتعظم بعد ذلك.

فأما الذي يهجم على العلم هجومًا من أعلاه، فهذا يتعب ولا يحصل

على شيء، بينما الذي يبدأ من الأصول ويتدرج هذا هو الذي بإذن الله يسير مع الطريق الصحيح والاتجاه السليم.(١)

هذه رسالة مهمة في العقيدة ألفها الشيخ أبو عبد الله الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي الإمام المشهور المجدد لِما اندرس من معالم الإسلام في النصف الثاني من القرن الثاني عشر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكرم مثواه-.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلقن الطلبة والعامة هذه الأصول ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم لكونها قاعدة في العقيدة.

وكانت وفاته سنة ست ومائتين وألف من الهجرة. وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة وألف من الهجرة، فقد عمَّر إحدى وتسعين سنة. وقد كان عمرا مليئا بالخير والدعوة إلى الله والتعليم والإرشاد والصبر على ذلك. وقد أنقذ الله به العباد والبلاد في زمانه في هذه الجزيرة، وانتشرت دعوتُه في غير الجزيرة من الشام ومصر والعراق والهند وغيرها، بسبب الدعاة الذين حملوا عنه العلم وانتقلوا إلى تلك البلدان والدول، وبسبب المكاتيب والكتب التي انتشرت منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن أتباعه وأنصاره والدعاة التابعين له في الدعوة إلى الله.(٢)

رسالة ثلاثة الأصول، رسالة مهمّة لكل مسلم، وكان العلماءُ أعني علمائنا يعتنون بها شرحا، في أول ما يشرحون من كتب أهل العلم، ذلك؛ لأن فيها الجواب عن أسئلة القبر الثلاث؛ ألا وهي سؤال الملكين العبد عن ربه، وعن

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

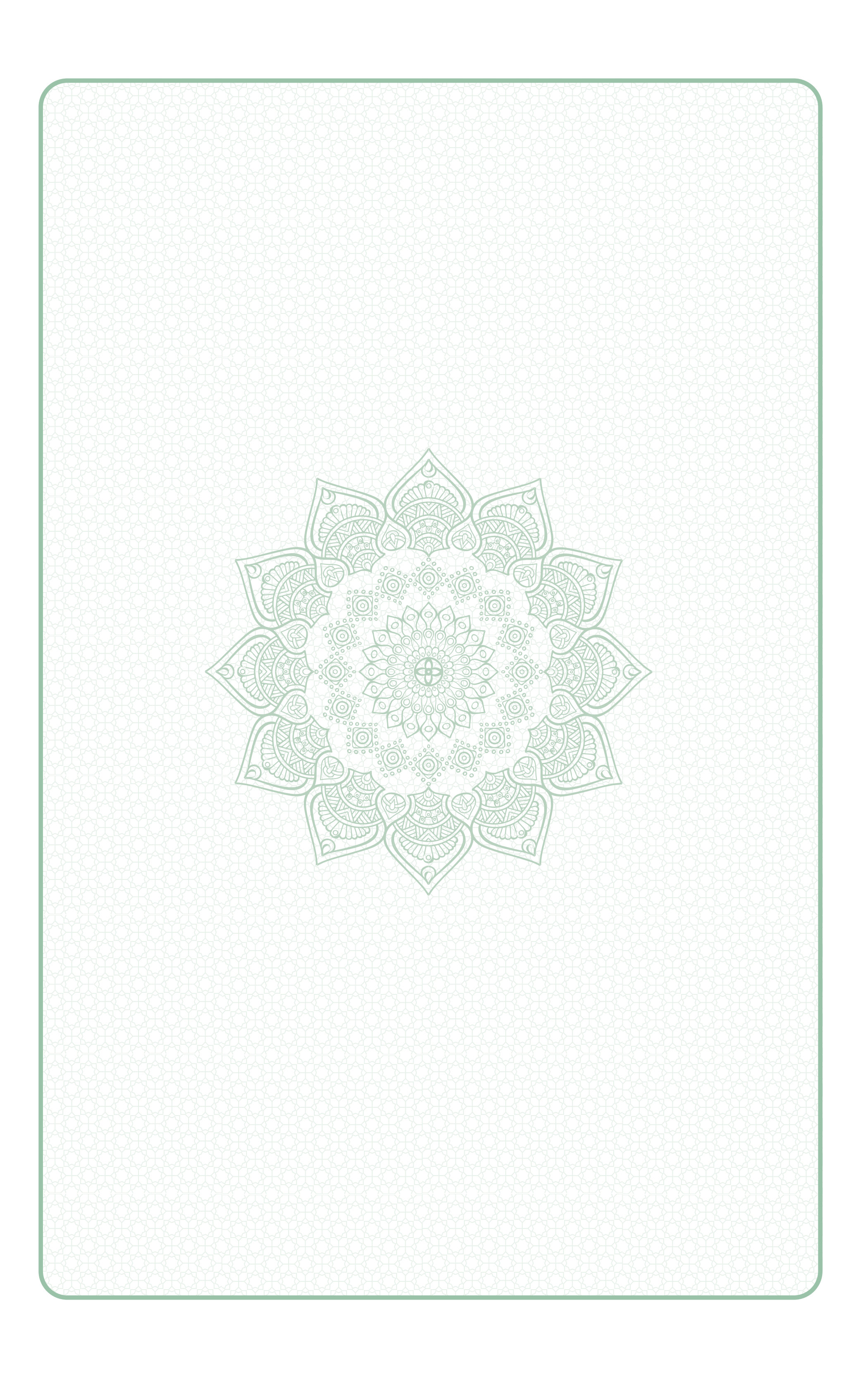
دينـه، وعن نبيه، وهـي ثلاثة الأصول يعنـي معرفة العبد ربـه؛ وهو معبوده، ومعرفة العبدِ دينه؛ دين الإسـلام بالأدلـة، ومعرفة العبد نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فمـن هاهنا جاءت أهمية هذه الرسـالة؛ لأن فيها مـن أصول التوحيد والدين الشيء الكثير.(١)

ينبغـي لنا أن نحـرص على هذه الرسـالة؛ تعليمـًا لها للعوام، وللنسـاء في البيوت، وللأولاد ونحو ذلك، على حسـب مسـتوى مـن يخاطب في ذلك، وقـد كان علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى يعتنون بثلاثة الأصـول هذه تعليما وتعلما، بل كانوا يلزمون عددا من الناس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، أن يحفظوا هـذه الأصـول ويتعلموها، وذلك هـو الغايـة في رغبة الخيـر، ومحبة الخير لعبـاد الله المؤمنين، إذْ أعظم ما تُسـدي للمؤمنين من الخير، أن تسـدي لهم الخير الذي ينجيهم حين سؤال الملكين للعبد في قبره، لأنه إذا أجاب جوابـًا حسـنـًا جوابـًا صحيحـًا عاش بعد ذلك سـعيداً، وإن لم يكن جوابه مستقيمـًا ولا صحيحـًا عاش بعد ذلك، والعياذ بالله على التوعد بالشقاء والعذاب.(٢)



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.



تراجم الشُرَّاح

ترجمة الشُرَّاح

فضيلة الشيخ/ صالح بن فوزان الفوزان

نسبه: هو فضيلة الشيخ د/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان من آل فوزان من أهل الشماسية، الوداعين من قبيلة الدواسر.

الوظيفة: عضو اللجنة الدائمة وعضو هيئة كبار العلماء.

المرتبة: الممتازة.

تاريخ التعيين: ١٥/ ٧/ ١٤١٢ هـ.

المناصب التي عمل بها: عمل أستاذاً مشاركًا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

نشأته ودراسته:

ولد عام ١٣٦٣ هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربى في أسرته، وتعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد إمام مسجد البلد، وكان قارئا متقنا وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولى القضاء أخيرا في بلدة ضرية في منطقة القصيم.

ثم التحق بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية عام ١٣٦٩هـ، وأكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١ هـ، وتعين مدرسا في الابتدائي، ثم التحق بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحه عام ١٣٧٣ هـ، وتخرج منه عام ١٣٧٧ هـ، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج منها

عام ١٣٨١ هـ، ثم نال درجة الماجستير في الفقه، ثم درجة الدكتوراه من هذه الكلية في تخصص الفقه أيضـًا.

أعماله الوظيفية:

بعد تخرجه من كلية الشـريعة عين مدرسًا في المعهد العلمي في الرياض، ثم نقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نقل للتدريس في الدراسات العليا بكلية أصـول الديـن، ثم في المعهد العالـي للقضاء، ثم عين مديـراً للمعهد العالي للقضاء، ثم عاد للتدريس فيه بعد انتهاء مدة الإدارة، ثم نقل عضواً في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال على رأس العمل.

أعماله الأخرى:

فضيلة الشيخ عضو في هيئة كبار العلماء، وعضو في المجمع الفقهي بمكة المكرمـة التابـع للرابطـة، وعضو في لجنة الإشـراف على الدعـاة في الحج، إلـى جانب عمله عضـوا في اللجنة الدائمة للبحوث العلميـة والإفتاء، وإمام وخطيـب ومـدرس في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سـعود في الملز، ويشارك في الإجابة في برنامج (نور على الدرب) في الإذاعة، كما أن لفضيلته مشاركات منتظمة في المجلات العلمية على هيئة بحوث ودراسات ورسائل وفتاوى، جمع وطبع بعضها، كما أن فضيلته يشرف على الكثير من الرسائل العلمية في درجتي الماجسـتير والدكتوراه، وتتلمذ على يديه العديد من طلبة العلم الذين يرتادون مجالسه ودروسه العلمية المستمرة.

مشايخه:

تتلمـذ فضيلة الشـيخ على أيـدي عدد من العلمـاء والفقهـاء البارزين، ومن أشـهرهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وسـماحة الشيخ عبد الله بن حميد،

حيث كان يحضر دروسه في جامع بريدة، وفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وفضيلة الشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي، وفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، وفضيلة الشيخ محمد بن سبيل، وفضيلة الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد العبد المحسن، وفضيلة الشيخ حمود بن عقلا، والشيخ صالح العلي الناصر.

وتتلمذ على غيرهم من شيوخ الأزهر المنتدبين في الحديث والتفسير واللغة العربية.

مؤلفاته: لفضيلة الشيخ مؤلفات كثيرة، من أبرزها:

١- [التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية] في المواريث، وهو رسالته في الماجستير، مجلد.

٢- [أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية]، وهو رسالته في الدكتوراه، مجلد.

٣- [الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد] مجلد صغير.

٤- [شرح العقيدة الواسطية] مجلد صغير.

٥- [البيان فيما أخطأ فيه بعض الكتاب] مجلد كبير.

٦- مجموع محاضرات في العقيدة والدعوة] مجلدان.

٧- [الخطب المنبرية في المناسبات العصرية] في أربع مجلدات.

٨- [من أعلام المجددين في الإسلام].

٩- رسائل في مواضيع مختلفة.

١٠- [مجموع فتاوى في العقيدة والفقه] مفرغة من نور على الدرب، وقد أنجز منه أربعة أجزاء.

١١- [نقد كتاب الحلال والحرام في الإسلام].

١٢- [شرح كتاب التوحيد- للشيخ محمد بن عبد الوهاب]، شرح مدرسي.

١٣- [التعقيب على ما ذكره الخطيب في حق الشيخ محمد بن عبد الوهاب].

١٤- [الملخص الفقهي] مجلدان.

١٥- [إتحاف أهل الإيمان بدروس شهر رمضان].

١٦- [الضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع].

١٧- [بيان ما يفعله الحاج والمعتمر].

١٨- [كتاب التوحيد] جزآن مقرران في المرحلة الثانوية بوزارة المعارف.

١٩- [فتاوى ومقالات نشرت في مجلة الدعوة]، وهو هذا الذي نُشر ضمن [كتاب الدعوة]. علاوة على العديد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو في طريقه للطبع.

نسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله في موازين حسنات شيخنا الجليل، إنه سميع مجيب.(١)



---

(١) كتب الترجمة: عبدالعزيز بن عبدالكريم العيسي.

الشيخ محمد بن صالح العثيمين

نسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي.

مولده:

ولد في مدينة عنيزة في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧ هـ.

نشأته:

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبدالرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحفظه ثم اتجه إلى طلب العلم فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، وكان الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أقام اثنين من طلبة العلم عنده ليدرسا الطلبة الصغار أحدهما الشيخ علي الصالحي، والثاني الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قرأ عليه مختصر العقيدة الواسطية للشيخ عبدالرحمن السعدي، ومنهاج السالكين في الفقه للشيخ عبدالرحمن أيضًا، والأجرومية والألفية.

وقرأ على الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

وكانت لفضيلة الشيخ منزلة عظيمة عند شيخه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فعندما انتقل والد الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الرياض إبان أول تطوره رغب في أن ينتقل معه

ولده – الشيخ حفظه الله – فكتب له الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إن هذا لا يمكن نريد محمدًا أن يمكث هنا حتى يستفيد».

ويقول فضيلة الشيخ حفظه الله «إنني تأثرت به كثيراً في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني، وكذلك أيضًا تأثرت به من ناحية الأخلاق لأن الشيخ عبدالرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على قدر كبير في العلم والعبادة، وكان يمازح الصغير، ويضحك إلى الكبير، وهو من أحسن من رأيت أخلاقًا».

قرأ على سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز حيث يعتبر شيخه الثاني، فابتدأ عليه قراءة صحيح البخاري وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية.

يقول الشيخ «تأثرت بالشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا وبسط نفسه للناس».

في عام ١٣٧١ هـ جلس للتدريس في الجامع، ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام ١٣٧٢ هـ، يقول الشيخ حفظه الله: «دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله، وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاص وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضًا من شاء أن يقفز –كما يعبرون– بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها وبهذا اختصرت الزمن»اهـ.

وبعد سنتين تخرج وعين مدرسًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة

الدراسة انتسابًا في كلية الشريعة ومواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي.

ولما توفى فضيلة الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم حتى الآن، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ولفضيلة الشيخ حفظه الله نشاط كبير في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتبصير الدعاة في كل مكان وله جهود مشكورة في هذا المجال.

والجدير بالذكر أن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد عرض بل ألح على فضيلة الشيخ في تولي القضاء بل أصدر قراره بتعيينه حفظه الله تعالى رئيسًا للمحكمة الشرعية بالاحساء فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصال شخصي من فضيلة الشيخ سمح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بإعفائه من منصب القضاء.

مؤلفاته:

له حفظه الله تعالى مؤلفات كثيرة تبلغ ٤٠ ما بين كتاب ورسالة وسوف تجمع إن شاء الله تعالى في مجموع الفتاوى والرسائل.(١)



---

(١) شرح ثلاثة الأصول لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين. إعداد فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.

الشيخ عبدالعزيز بن باز

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو سماحة الشيخ الإمام العَلم المجتهد، بقيَّة السَّلف، ومفتي المسلمين، أبو عبد الله عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن باز؛ لقبه: ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مولده ونشأته:

ولد في الرياض في [١٢] من شهر ذي الحجة سنة [١٣٣٠هـ].

ونشأ بها في بيت عامر بالصّلاح وحب الخير في حجر والدته، فقد توفى والده [١٣٣٣هـ] وعمره دون الثَّالثة، فعاش يتيمًا، وتربى في حضن والدته، وقد أحسنت تربيته وتنشأته رحمها الله، وقد توفيت سنة [١٣٥٦هـ] وكان لها دور بارز في توجهه نحو العلم الشَّرعي، كما كانت كذلك البيئة في ذلك الوقت بيئة علميَّة، يوجد في الرِّياض كبار أئمة الدَّعوة السَلفيّة في هذا العصر.

حياته العلمّية والعمليّة:

تلقى تعليمه على يد كوكبة من علماء الدَّعوة السَّلفية من أبرزهم: محمّد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي أخذ عنه جميع العلوم الشرعية.

أما حياته العمليَّة:

فقد تولى عدة أعمال منها:

- القضاء في منطقة الخرج بالدلم من (١٣٥٧هـ-١٣٧١هـ) ثُمَّ.

- التَّعليم في منطقة الرياض والمدينة من (١٣٧١هـ-١٣٩٥هـ).

- ثُمَّ تم تعينه رئيسًا لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء، والدَّعوة والإرشاد برتبة وزير من (١٤/ ١٠/ ١٣٩٥هـ حتى ١٤/ ٠١/ ١٤١٤هـ).

- وقد عُيِّنَ مفتيًا عامًا للمملكة، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، ورئيسًا للَّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء من (٢٠/ ٠١/ ١٤١٤هـ) وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات أكثرها قد جمع ضمن كتابه المشهور مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، كما حوّلت تسجيلات

برنامجه الإذاعي نور على الدَّرب إلى كتاب بعنوان: «فتاوى نور على الدرب» صدر منه حتَّى إعداد هذه الترجمة ٢٥ مجلدًا من جمع وترتيب فضيلة الدكتور/ محمّد بن سعد الشويعر حفظه الله بإشراف مفتي عام المملكة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ وفقه الله لكل خير.

كما أصدرت مؤسسة عبدالعزيز ابن باز الخيريَّة بعض تعليقات وشروح سماحته لبعض كتب أهل العلم منها كُتب الإمام المجدد

الشَّيخ/ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كـ(كتاب كشف الشُّبهات، والقواعد الأربع، وفضل الإسلام)، و(كتاب الفتوى الحمويَّة، والعقيدة الواسطية) كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(كتاب التبصير في معالم الدِّين) لابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتاب وظائف رمضان للشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما أشرفت المؤسسة على ما طبعه

تلميـذه الشـيخ/ عبدالعزيز بن إبراهيم بن قاسـم وفقـه الله كتحفة الإخوان، وتحفة أهل العلم والإيمان، والتحفة الكريمة وغيرها.

وفاتـه: توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالطائف قُبيل فجر يوم الخميس ٢٧ من شـهر محرم سـنة ١٤٢٠هـ، وصُلِّـيَ عليه بعد صلاة الجمعة بالمسـجد الحـرام، ودفن بمقبرة العدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.(١)



(١) شرح سماحة الشيخ العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتاب العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك

اسمه ونسبه:

عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك، ينحدر نسبه من بطن العرينات من قبيلة سبيع.

ميلاده ونشأته:

ولد الشيخ في بلدة «البكيرية» من منطقة «القصيم» في شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٢هـ.

وتوفي والده وعمره سنة، فنشأ في طفولته في بيت أخواله مع أمه، فتربى خير تربية.

ولما بلغ الخامسة من عمره سافر مع أمه إلى «مكة»، وكان في كفالة زوج أمه «محمد بن حمود البراك».

وفي «مكة» التحلق الشيخ بالمدرسة «الرحمانية»، وهو في السنة الثانية الابتدائية قدَّر الله أن يصاب بمرض في عينيه تسبب في ذهاب بصره، وهو في التاسعة من عمره.

طلبه للعلم ومشايخه:

عاد من «مكة» إلى «البكيرية» مع أسرته، فحفظ القرآن وعمره عشر سنين تقريباً على عمه عبدالله بن منصور البراك، ثم قرأ على مقرئ البلد عبدالرحمن بن سالم الكريديس رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

وفي عام ١٣٦٥هـ تقريباً بدأ الشيخ في القراءة على العلماء فقرأ على الشيخ

«عبد العزيز بن عبد الله السبيل» جملة من كتاب «التوحيد»، و«الآجرومية»، وقرأ على الشيخ محمد بن مقبل «الثلاثة الأصول».

ثم قُدِّرَ له السفر إلى «مكة» مرة أخرى في عام ١٣٦٦هـ تقريباً، ومكث بها ثلاث سنين، فقرأ في «مكة» على الشيخ «عبد الله بن محمد الخليفي» إمام المسجد الحرام في «الآجرومية»، وهناك التقى بعالم فاضل من كبار تلاميذ العلامة «محمد بن إبراهيم»، وهو الشيخ «صالح بن حسين العلي العراقي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من أصدقاء الإمام «عبد العزيز ابن باز» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجالسه واستفاد منه، ولما عُيِّن الشيخ «صالح العلي العراقي» مديراً للمدرسة «العزيزية» في بلدة «الدلم» رغب أن يرافقه الشيخ «عبدالرحمن البراك» لطلب العلم على الشيخ «ابن باز» حين كان قاضياً في بلدة «الدلم»، فرحل معه في ربيع الأول من عام ١٣٦٩هـ، والتحق بالمدرسة «العزيزية» بالصف الرابع، وكان من أهم ما استفاده في تلك السنة الإلمام بقواعد «التجويد» الأساسية.

وفي نفس السنة سافر مع جمع من الطلاب مع الشيخ «ابن باز» إلى الحج، وبعد عودته ترك الدراسة في المدرسة «العزيزية»، وآثر حفظ المتون مع طلاب الشيخ «عبدالعزيز بن باز»، ولازم دروس الشيخ ابن باز المتنوعة فقد كان يُقرأ عليه في «كتاب التوحيد»، و«الأصول الثلاثة»، و«عمدة الأحكام»، و«بلوغ المرام»، و«مسند أحمد»، و«تفسير ابن كثير»، و«الرحبية»، و«الآجرومية».

ومكث في «الدلم» في رعاية الشيخ «صالح العراقي»، فقد كان مقيماً في بيته، ودَرَس عليه علم «العَروض».

وحفظ في بلدة «الدلم» «كتاب التوحيد»، و«الأصول الثلاثة»، «والآجرومية»، و«قطر الندى»، و نظم «الرحبية»، وقدراً من «ألفية ابن مالك»

في النحو، ومن «ألفية العراقي» في علوم الحديث.

وكانت مدة إقامته لها أثر كبير في حياته العلمية.

ثم التحق الشيخ بـ «المعهد العلمي» في الرياض حين افتتاحه في محرم ١٣٧١هـ ثم تخرج فيه عام ١٣٧٤هـ، والتحق بـ«كلية الشريعة»، وتخرج فيها سنة ١٣٧٨هـ.

وتتلمذ في المعهد، والكلية على مشايخ كثيرين من أبرزهم:

العلامة «محمد الأمين الشنقيطي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودرسهم في المعهد في التفسير، وأصول الفقه، والعلامة «عبدالرزاق عفيفي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودرسهم في «التوحيد»، و«النحو»، وكذلك درسهم «أصول الفقه»، والشيخ «محمد عبدالرزاق حمزة»، و«عبد العزيز بن ناصر الرشيد» وغيرهم، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعًا.

وكان في تلك المدة يحضر بعض دروس العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ في المسجد.

وأكبر مشايخه عنده، وأعظمهم أثراً في نفسه الإمام العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أفاد منه أكثر من خمسين عاماً بدءاً من عام ١٣٦٩هـ حين كان الإمام ابن باز في بلدة الدلم إلى وفاته في عام ١٤٢٠هـ، ثم شيخه العراقي الذي استفاد منه حب الدليل، ونبذ التقليد، والتدقيق في علوم اللغة، والنحو، والصرف، والعَروض.

الأعمال التي تولاها:

عمل الشيخ مدرساً في «المعهد العلمي» في مدينة الرياض ثلاثة أعوام من سنة ١٣٧٩هـ، ثم انتقل بعدها إلى تدريس العلوم الشرعية في كلية الشريعة

بالرياض، ولما افتتحت كلية أصول الدين عام ١٣٩٦هـ نقل إليها في قسم «العقيدة والمذاهب المعاصرة»، وعمل مدرسًا فيهما إلى أن تقاعد عام ١٤٢٠هـ، وأشرف خلالها على العشرات من الرسائل العلمية.

وبعد التقاعد رغبت «الكلية» التعاقد معه فأبى؛ كما طلب منه سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتولى العمل في الإفتاء مراراً فتمنَّع، ورضي منه شيخه أن ينيبه على الإفتاء في دار الإفتاء في الرياض في فصل الصيف حين ينتقل المفتون إلى مدينة «الطائف»، فأجاب الشيخ حياءً، إذ تولى العمل في فترتين ثم تركه.

وبعد وفاة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ طلب منه المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ أن يكون عضو إفتاء، وألح عليه في ذلك فامتنع، وآثر الانقطاع للتدريس في المساجد.

جهوده في نشر العلم:

جلس الشيخ للتعليم في مسجده الذي يتولى إمامته «مسجد الخليفي بحي الفاروق»، ومعظم دروسه فيه، وكذلك التدريس في بيته مع بعض خاصة طلابه، وله دروس في مساجد أخرى، وله مشاركات متعددة في الدورات العلمية المكثفة التي تقام في الصيف، إضافة لإلقائه لكثير من المحاضرات؛ كما تعرض على الشيخ بعض الأسئلة من عدد من المواقع الإسلامية في الشبكة العنكبوتية.

طلابه:

طلاب الشيخ كُثُرٌ يتعذر على العاد حصرهم، وكثير من أساتذة الجامعات، والدعاة المعروفين، قد تتلمذوا عليه، وغيرهم من طلاب العلم.

وبعد توفر الوسائل الحديثة يسر الله لكثير من طلاب العلم في خارج البلاد من متابعة دروس الشيخ عبر الشبكة على الهواء مباشرة عن طريق موقع «البث الإسلامي» «www.liveislam.net».

احتسابه:

وللشيخ جهود كبيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومناصحة المسؤولين، والكتابة لهم، وتحذير الناس من البدع، وسائر الانحرافات، والمخالفات.. وله في ذلك فتاوى كثيرة، وله مشاركة مع بعض المشايخ في عدد من البيانات والنصائح الموجهة للعموم المسلمين.

اهتمامه بأمور المسلمين:

للشيخ حفظه الله اهتمام بالغ بأمور المسلمين في جميع أنحاء العالم، فهو كثير الحزن، والتألم لما يحدث لهم في كثير من البلاد، وهو متابع لأخبارهم، وفي أوقات الأزمات يبادر بالدعاء لهم، والدعاء على أعدائهم، ويبذل النصح والتوجيه لهم، وللمسلمين فيما يجب نحوهم.

إنتاجه العلمي:

الشيخ باذل معظم وقته في تعليم العلم، والإجابة عن الأسئلة، وقد قرئت عليه عشرات الكتب في مختلف الفنون، وقد سُجل بعضها، وما لم يسجل أكثر.

وقد صدر للشيخ من المطبوعات «شرح الرسالة التدمرية»، و«جواب في الإيمان ونواقضه»، و«موقف المسلم من الخلاف»، و«التعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري» طبع مع فتح الباري في دار طيبة.[1]

(١) و«شرح العقيدة الطحاوية»، و«توضيح المقصود في نظم ابن أبي داود»، «والفوائد المستنبطة من الأربعين النووية».

وفي حياة الشيخ جوانب كثيرة مشرقة أعلم أنه يكره ذكرها، أسأل الله أن يبارك في عمره، ويمد فيه على الطاعة، وينفع المسلمين بعلمه.[١]



(١) توضيح مقاصد العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية تأليف فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك.

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

نسبه وولادته ونشأته وحياته العلمية:

هو صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعًا-، والشيخ يرجع نسبه إلى قبيلة بني تميم المشهورة.

نشأ الشيخ في دار علم وديانة -ولا نزكي على الله أحدا-.

ولد في مدينة الرياض سنة ١٣٧٨هـ، وأكمل تعليمه الثانوي في الرياض، ولحرصه -حفظه الله- على أن يكون تعليمه الجامعي شرعيًّا فقد التحق بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين بقسم القرآن وعلومه، وبعد تخرجه منها عمل ضمن هيئة التدريس فيها، منذ ذلك الحين إلى عام ١٤١٦هـ حيث عين نائبًا لوزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

وفي عام ١٤٢٠هـ صدر الأمر بتعيينه وزيرًا للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، إلى جانب إشرافه على المؤسسات الخيرية كمؤسسة الحرمين الخيرية، وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، والندوة العالمية للشباب الإسلامي.

والشيخ -حفظه الله- منصرف إلى طلب العلم وتحقيق المسائل على نحو ما كان عليه علماء الدعوة السلفية وكبار العلماء منذ نعومة أظفاره،

ودَأبَ على نشر ذلك وتعليمه في دروسه ومحاضراته وتوجيهاته التي يلقيها في المساجد وفي غيرها.

والشيخ قارئ وباحثٌ كبير في فتاوى جدّه سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم، حيث تفرَّغ لدراستها وفهم مقاصدها واصطلاحاتها الفقهية والعلمية ومقاصدها التي انفردت بها بحكم الزمان والمكان، وكان يستعين بعد الله بكبار العلماء في ذلك كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وسماحة والده الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم -حفظه الله-، وسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي عام المملكة -حفظه الله-، وفضيلة الشيخ عبد الله بن عقيل رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا -حفظه الله-.

وتلقى العلم على عدد من العلماء وهم:

١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

٢- والده سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم.

٣- فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل.

٤- فضيلة الشيخ عبد الله بن غديان عضو هيئة كبار العلماء.

٥- فضيلة الشيخ عبد العزيز بن مرشد.

٦- فضيلة الشيخ أحمد المرابط الشنقيطي -حفظه الله- نائب مفتي الديار الموريتانية، درس عليه في علوم اللغة.

٧- الشيخ محمد بن سعد الدبل -حفظه الله- درس عليه في النحو.

٨- وكان له جلسات ومباحثات علمية متكررة مع فضيلة الشيخ المحدث حماد الأنصاري.

وقـد حـرص -رعـاه الله- على جمع الإجـازات العلمية من شـتى أنحاء الأرض، حيـث حصل على إجازات عدة مـن بعض علماء المملكة، ورحل إلى: تونس والمغرب وباكستان والهند وغيرها في سبيل ذلك.

ولـه من المؤلفات والتحقيقات التي يحرص على اقتنائها طلبة العلم لما فيها من الشمولية والتدقيق العلمي ما يقارب سبعة عشر عملا علميًّا.

وشـارك في عدد مـن المؤتمرات في داخـل المملكة وفي أمريـكا وأوروبا ومصر وغيرها.

فنسأل الله أن يحفظ الشيخ ويسدد على درب الخير خطاه، آمين.

ثناء أهل العلم عليه:

أثنى عليه جملة من أهل العلم منهم:

١ - فضيلة الشيخ العلامة زيد بن هادي بن محمد المدخلي.

٢ - فضيلة الشيخ العلامة محمد بن هادي المدخلي.

٣- فضيلة الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني.

٤ - فضيلة الشيخ العلامة مقبل بن هادي الوادعي.

مؤلفات الشيخ:

نذكر منها:

١ - «**هـذه مفاهيمنا**»: وهو رد على محمد علوي المالكي الذي ألف كتابا سـمَّاه «مفاهيـم يجب أن تصحـح»، وأقيم له مجلس اسـتتابة ورد عليه أهل العلم لما وقع منه من غلو في الدين ومن استغاثة بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن شركيات وكفريات كثيرة جداً.

٢. «**المعيـار لعلم الغزالي**»: وهو رد على العقلاني محمد الغزالي في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث».

٣. «**التكميل لما فات تخريجه صاحب إرواء الغليل**»: وهو استدراك على الإمام الألباني في كتابه ((**إرواء الغليل**)).

شروحاته:

نذكر منها: شرحه لـ:

«**كتـاب الفرقان**»، «**كتـاب العقيـدة الطحاوية**»، «**كتاب نظـم الورقات**»، «**كتاب الأصول الثلاثة**»، «**كتاب الأربعين النووية**»، «**كتاب التوحيد**»، «**كتاب الطهارة من بلوغ المرام**»، «**كشف الشبهات**»، «**كتاب فضل الإسلام**»، «**كتاب مسـائل الجاهليـة**»، «**كتاب لمعـة الاعتقـاد**»، «**الفتوى الحمويـة الكبرى**»، وغيرها كثير...



بداية الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله أصل العلوم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، نحمده سبحانه على أن هيأ لنا أبواب الخيرات، ونسأله أن يثبتنا على ذلك إلى أن نلقاه وهو راض عنا، غير مبدلين ولا مغيرين ولا مفتونين - اللهم آمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد...

فإن العلم وطلبه من أفضل القربات إلى الله عَزَّوَجَلَّ، بل عد جمع كثير من أهل العلم طلب العلم أفضل النوافل التي يطلبها العبد، ولهذا فإن السعي لنشر العلم النافع المقتبس من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما بَيَّنَه أئمة الإسلام المؤتمنون على الدين في فهم الكتاب والسنة، إن السعي في ذلك من الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومما يراغم به الشيطان وأعداء الدين.

وهذا لا شك حاصل؛ لأن أهل العلم في كل زمان وفي كل مكان هم الذين يرثون الأنبياء، وإذا كانوا هم ورثة الأنبياء فإن ذلك يعني أنهم القائمون بأعباء الدين، فكلما ازداد العلم ازداد الخير، وإذا قل العلم كثرت الجهالة، وكثر الشر.

ومن جهة أخرى فإن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى أعداد كبيرة من طلاب العلم؛ ليفقهوا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فالناس في

حاجة ماسة إلى مَنْ يُبين لهم الحق، ويُبين لهم التوحيد الصحيح، والعقيدة الخالصة، ويُبين لهم معنى اتباع سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويبين لهم أحكام الشرع، ويبين لهم ما به قوتهم في دينهم، وهذا مما يحتاج إلى أعداد كبيرة من طلاب العلم.

وبين أيدينا رسالة **(ثلاثة أصول وأدلتها)** وهي رسالة مهمة لكل مسلم، وكان علماؤنا يعتنون بها في أول ما يشرحون من كتب العلم، وذلك لسببين:

السبب الأول: أنها من المتون المختصرة، فالعلم لا ينال مرة واحدة، وإنما ينال على مر الأيام والليالي كما قال ابن شهاب الزهري رَحِمَهُٱللَّهُ فيما رواه ابن عبد البر في كتاب الجامع[١]، قال: «مَنْ رَامَ الْعِلْمَ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللَيَالِي».

وهذا حق، العلم يُبدأ بتحصيل صغاره قبل كباره[٢]، فإذا حصلت صغار المسائل[٣] قبل الكبار فأنت على طريق العلم، وأما إذا ابتدأت بالكبار التي

(١) انظر: الجامع لابن عبد البر (١/ ٤٣١) عن يونس بن يزيد قال: «قال لي ابن شهاب: يا يونس لا تكابر العلم، فإن العلم، أودية فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام». وانظر أيضًا: الجامع للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٢)، والإلماع للقاضي عياض (١/ ٢٢٠).

(٢) قال الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه (١/ ١٩٢ فتح): «ويُقال الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره». وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في مفتاح دار السعادة (١ / ٦٦): «فيه تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون».

(٣) قال الحافظ ابن حجر الله في فتح الباري (١/ ١٩٥): «والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دق منها».

تحتاج إلى بحث وترتيب، وقد تنازع العلماء فيها، كما هو ديدن بعض طلبة العلم، أو بعض المبتدئين في العلم دون معرفة صغار وواضحات المسائل، فإنه يذهب عنك العلم، لهذا أؤكد على ضرورة تأصيل العلم والسير فيه خطوة فخطوة، وإنما يُطلب العلم على مر الأيام والليالي، كما قال القائل[(١)]:

الْيَوْمَ عِلْمٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِنْ نُخَبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطْ

وهذا واقع، فقد ذكر الخطيب البغدادي بإسناده في كتاب (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)[(٢)] عن الفضل بن سعيد بن سلم قال: «كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه، فعزم على تركه، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر الماء فيها، فقال: الماء على لطافته قد أثر في صخرة على كثافتها والله لأطلبن العلم فطلب فأدرك».

فالعلم يحتاج إلى مواصلة وحفظ ومدارسة وترك اليأس، ولكن يجب أن يكون على طريقة خطوة فخطوة، ومن بدأ بالأهم ثم أعقبه بالمهم، فإنه يحصل من العلم ما شاء الله.

السبب الثاني: لأن فيها الجواب على أسئلة القبر الثلاثة[(٣)]؛ ألا وهي:

---

(١) القائل هو: محمد بن إبراهيم بهاء الدين بن النحاس (٦٩٨هـ)؛ كما في بغية الوعاة للسيوطي (١/ ١٤).

(٢) انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ =

سؤال الملكين العبد عن ربه، ودينه، ونبيه، وهي ثلاثة الأصول، أي: معرفة العبد ربه، وهو معبوده، ومعرفة العبد دينه -أي دين الإسلام- بالأدلة، ومعرفة العبد نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن هنا جاءت أهمية هذه الرسالة؛ لأن فيها من أصول التوحيد والدين الشيء الكثير.

ولهذا ينبغي لنا أن نحرص على هذه الرسالة تعليما لها للعوام، وللنساء في البيوت، وللأولاد ونحو ذلك، على حسب مستوى من يُخاطب بذلك، وقد كان علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يعتنون بثلاثة الأصول هذه تعليمًا وتعلمًا، بل كانوا يلزمون عددًا من الناس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، وأن يحفظوها، وذلك هو الغاية في رغبة الخير، ومحبة الخير لعباد الله المؤمنين، إذ أعظم ما تُسدي للمؤمنين من الخير أن تُسدي لهم ما ينجيهم عند سؤال الملكين للعبد في قبره؛ لأنه إذا أجاب جوابًا حسنًا صحيحًا عاش بعد ذلك سعيدًا، وإن لم يكن جوابه مستقيمًا ولا صحيحًا عاش بعد من ذلك -والعياذ بالله- على التوعد بالشقاء والعذاب.

ولقائل أن يقول: ما إعراب (**ثلاثة أصول وأدلتها**)؟ ولماذا لم يقل المصنف: الأصول الثلاثة وأدلتها، وما هي العبارة الأصح؟

والجواب: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة أخرى بعنوان: (**الأصول الثلاثة**)، وهي رسالة صغيرة أقل من هذه علمًا؛ ليعلمها الصبيان والصغار، وأما (**ثلاثة أصول**) فهي هذه التي نشرحها، ويكثر الخلط بين التسميتين، وربما أُطلق

= فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ».

قال المنذري في الترغيب والترهيب، (٤/ ١٩٦): (رواه أبو داود وأحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح). وأصله في البخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧٠).

عليها ثلاثة الأصول، أو الأصول الثلاثة، ولكن تسميتها المعروفة أنها **(ثلاثة أصول وأدلتها)**.

إعراب ثلاثة أصول وأدلتها:

(ثلاثة) خبر لمبتدأ تقديره هذه -هذه ثلاثة - خبر مرفوع بالابتداء، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف.

و**(أصـول)**: مضاف إليه مجـرور بالتبعية وعلامة جره الكسـرة الظاهرة على آخره.

و**(الواو)**: عاطفة.

و**(أدلة)**: معطوف على ثلاثة مرفوع بالتبعية، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف.

و**(ها)**: ضمير متصل مبني على السكون في محل جر بالإضافة.[١]



(١) شرح الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

شرح الكتاب

المتن: بسم الله الرحمن الرحيم

المتن: بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإن أول ما يقع عليه بصرك في المصحف وقبل كل سورة منه «بسم الله الرحمن الرحيم». فالبداءة بها في الرسائل وفي الكتب وفي المؤلفات اقتداء بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلى الأمراء والرؤساء وإلى من في أقطار الأرض يدعوهم إلى الإسلام يبدأ كتابته بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح أحاديثه وكلامه «ببسم الله الرحمن الرحيم» مما يدل على أن البداءة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كتب إلى بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: ٢٩-٣١]، فينبغي البدء بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» في كل أمر له أهمية وكل مؤلف له أهمية وله قيمة، وكل رسالة.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

اعلم رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَينا تَعلُّمُ أَربَع مَسَائِلَ:

المسألة الأُولَى: العِلمُ: وَهُوَ مَعرِفَةُ اللهِ، وَمَعرِفَةُ نَبِيّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعرِفَةُ دِينِ الإِسلامِ بالأَدِلَّةِ.

المسألة الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعوَةُ إِلَيهِ.

المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

اعلم رحمك الله

قوله: (أعلم): كلمة تشير إلى الاهتمام بالموضوع فإذا قال اعلم: فمعناه أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمر مهم، فهذه الكلمة تدل على أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه. ومعنى اعلم: فعل أمر من العلم، أي تعلم، والعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع أو تصور الشيء على طبق الواقع.(١)

(رحمك الله): وصنيع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يدل على عنايته وشفقته بالمخاطب وقصد الخير له.(٢)

وهذا فيه التلطف، وفيه تنبيه إلى أن مبنى هذا العلم على التلطف، وعلى الرحمة بالمتعلمين، لأنه دعا له بالرحمة، وكان العلماء يَروُون ويُروُّون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة في الحديث، رواية حديث «الراحمون يرحمهم الرحمان»، وهذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

بالأولية لما؟ لأن كل راو يقول لمن بعده «وهو أول حديث سمعته منه» فعلماء الحديث يروون هذا الحديث لتلامذتهم ويكون أول حديث فيما يروون ألا وهو حديث «الراحمون يرحمهم الرحمان» ففي الإجازات ترى أن كل شيخ يقول عن شيخه حدثني فلان وهو أول حديث سمعته منه، قال حدثني شيخي فلان وهو أول حديث سمعته منه، إلى أن يصل إلى منتهاه قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الراحمون يرحمهم الرحمان، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، قال العلماء سبب ذلك أن مبنى هذا العلم الرحمة، ونتيجته الرحمة في الدنيا، وغايته الرحمة في الآخرة، لهذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبه على ذلك تنبيها لطيفا دقيقا حيث قال (اعلم رحمكَ اللهُ)؛ دعاء للمتعلم بالرحمة، ذلك لأن مبنى التعلم بين المعلم والمتعلم هو التراحم كلٌّ بما يناسبه.[1]

وأنه يبدأ بالكلام الطيب والدعاء الصالح حتى يؤثر ذلك فيه، ويقبل على معلمه. أما إذا بدأ المعلم بالكلام القاسي والكلام غير المناسب فإن هذا يُنفره، فالواجب على المعلم وعلى من يدعو إلى الله، وعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر التلطف بمن يخاطبه بالدعاء والثناء عليه والكلام اللين فإن هذا أدعى للقبول. أما المعاند والمكابر فهذا له خطاب آخر قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالذين ظلموا من أهل الكتاب وعاندوا وكابروا هؤلاء لا يخاطبون بالتي هي أحسن بل يخاطبون بما يردعهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]، المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يجاهـدون بالحجة والكلام والـرد عليهم بالغلظة ردعا لهـم وتنفيرا للناس عنهـم، وقـال تعالى فيهم: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝٦٣﴾ [النساء: ٦٣]، هـؤلاء لهـم خطاب خاص؛ لأنهم أهـل عناد ومكابرة ولا يريـدون الحق بل يريدون تضليل الناس فهؤلاء يخاطبون بما يليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يخاطب بالرفق والرحمة واللطف؛ لأنه يريد الحق ويريد العلم والفائدة.(١)

أنه يجب علينا تعلم أربعة مسائل

قوله: (يجب): الواجب: هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه، والمستحب: هو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، والمباح: لا ثواب في فعله ولا عقاب في تركه.

فقوله: يجب: يعني أن هذا الأمر ليس من المستحب، ولا من المباح بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلم هذه المسائل فإننا نأثم لأن هذا شأن الواجب، لم يقل يستحب لنا أو يستحسن لنا بل قال يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه الحتم، من تركه يأثـم، ولأن العلم لا يحصل عليه إلا بالتعلم، والتعلم يحتاج إلى عناية وجهد ووقت، ويحتاج إلى فهم وإلى حضور قلب، هذا هو التعلم.(٢)

الوجـوب ها هنـا المقصـود به ما يشـمل الوجـوب العينـي والوجوب الكفائـي؛ أمـا بالنسـبة لـلأول ألا وهـو العلم، فما ذكـره واجـب علينا أن نتعلمـه وجوبـًا عينيـًا، ألا وهو معرفـة ثلاثة الأصـول؛ معرفـة العبد ربه، ومعرفـة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه، هـذا واجب فمثل هذا العلم لا ينفع

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فيـه التقليد، واجب فيـه أن يحصله العبـدُ بدليله، والعبارة المشـهورة عند أهـل العلم: أن التقليد لا ينفع في العقائد، بل لابد من معرفة المسـائل التي يجـب اعتقادهـا بدليلها، هذا الدليل أعم من أن يكـون نصـًا من القرآن، أو مـن سـنة، أو من قول صاحـب، أو من إجمـاع، أو قياس، وسـيأتي تفصيل الدليل إن شاء الله تعالى في موضعه.

التقليـد هذا لا يجوز في العقائد عند أهل السـنة والجماعة ... أهل السـنة فيقولون يجـب أن يأخذ الحق بالدليل، وهذا الدليـل يكون بالآيات المتلوّة ... لا بد من النظر في الدليل، لا لأجل الاستنباط، ولكن لأجل معرفة أن هذا قد جاء عليه دليل؛ في أي المسائل؟ في المسائل التي لا يصح إسلام المرء إلا به؛ مثل معرفة المسـلم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المستحق للعبادة دون ما سواه، هذا لابـد أن يكـون عنده برهان عليه، يعلمه في حياته، ولو مرة، يكون قد دخل في هذا الدين بعد معرفةٍ الدليل، ولهذا كان علماؤنا يعلمون العامة في المساجد، ويحفظونهم هذه الرسالة ثلاثة الأصول لأجل عظم شأن الأمر.[١]

هـذه الـمسائل التـي ذكرها الـمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ تشـمل الديـن كله فهي جديرة بالعناية لعظم نفعها.[٢]

الأولى: العلم، وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وهـذه المعارف الثلاثة هـي: الأصول الثلاثة التي سـيتكلم عنها الشـيخ إجمالاً وتفصيلاً.[٣]

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

المراد بالعلم هنا هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلمه، وهذه المسائل يجب تعلمها على كل مسلم من ذكر أو أنثى أو حر أو عبد أو غني أو فقير أو ملك أو صعلوك، كل مسلم يجب عليه أن يتعلم هذه المسائل الأربع.

وهذا ما يسميه العلماء بالواجب العيني، وهو الذي يجب على كل أحد من المسلمين، فالصلوات الخمس على الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد على الرجال هذا واجب على كل فرد من المسلمين أن يتعلمها؛ ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب على بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني معشر المسلمين، فهذا من العلم الذي يجب تعلمه على الأعيان؛ لأن العلم على قسمين:

الأول: ما يجب تعلمه على الأعيان، فلا يعذر أحد بجهله وهو ما لا يستقيم الدين إلا به، مثل أركان الإسلام الخمسة التي هي: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها بل لا بد أن يتعلمها.

لأن تعلم معنى الشهادتين إنما هو تعلم العقيدة، يتعلم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يضادها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين، كذلك يتعلم أركان الصلاة وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسنن الصلاة، يتعلم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة. كيف يعمل الإنسان عملاً وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يؤدي الصلاة وهو جاهل بأحكامها؟ فلا بد أن يتعلم أحكام الصلاة، ومبطلات الصلاة، لا بد من تعلم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا

أراد أن يحج وَجَبَ عليه تعلم أحكام الحج وأحكام العمرة، من أجل أن يؤدي هذه العبادات على الوجه المشروع.

وهذا القسم لا يعذر أحد بجهله، وهو ما يسمى بالواجب العيني على كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: فهو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأمة بمجموعها وقد لا يحتاجه كل أحد بعينه مثل أحكام البيع وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف والمواريث والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لا بد منها للأمة، لكن لا يجب على كل فرد من الأمة أن يتعلمها بل إذا تعلمها من يحصل به المقصود من العلماء كفى هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء وإفتاء وتعليم وغير ذلك، هذا يسمى واجب الكفاية الذي إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثموا جميعاً.

لا بد للأمة من أناس يتعلمون هذا القسم لأنهم بحاجة إليه؛ لكن ما يقال لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتى هذا لكل أحد، وإنما يختص هذا بأهل القدرة وأهل الاستطاعة من الأمة، ولأنه إذا تعلم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب، بخلاف القسم الأول فكل واحد مسؤول عنه في نفسه، لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم، ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب على المسلمين، أو يجب على بعضهم، بل قال: يجب علينا، أي على كل واحد منا وجوباً عينياً.

ولنعلم أيضاً قبل الدخول في المسائل أن المراد بالعلم الذي يجب على الأمة إما وجوباً عينياً أو كفائياً أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات والحِرَف والحساب والرياضيات والهندسة، فهذا العلم مباح يباح تعلمه وقد يجب إذا احتاجت الأمة إليه، يجب على من يستطيع لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة والذي أثنى الله تعالى على أهله ومدحهم والذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «العلماء ورثة الأنبياء»[1] المراد العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيوي فمن جهله فلا إثم عليه، ومن تعلمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأمة فهو مأجور عليه ومثاب عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يؤاخذ عليه يوم القيامة لكن من مات وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلم الضروري فإنه يسأل عنه يوم القيامة، لِمَ لَم تتعلم؟ لماذا لَم تسأل؟ الذي يقول إذا وضع في قبره: ربي الله والإسلام ديني ونبيي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب الله وتعلمته.

أما الذي أعرض عن ذلك فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فهذا يؤجج عليه قبره ناراً والعياذ بالله ويضيق عليه فيه حتى تختلف أضلاعه، ويصبح في حفرة من حفر النار؛ لأنه ما درى ولا تلا فيقال له: «لا دريت ولا تليت [أو لا تلوت]»[2] فهو لم يتعلم ولم يَقتَدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يؤول إلى الشقاء

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العِلم، باب: العِلم قبل القول والعمل، بإثر الحديث (٦٧)، وأبو داوود (٣٦٤١) وابن ماجة (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا مِن حديث أنس (١٣٣٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا أيضًا مِن حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٨٧٠)، وأخرجه أبو داوود من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل (٤٧٥٣)

والعياذ بالله. فقوله: العلم: هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعة وأفراداً، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا وهو عبادته وحده لا شريك له، فأولُ ما يجب على العبد هو معرفةُ ربه عَزَّوَجَلَّ وكيف يعبده.[١]

فعلى الإنسان أن يتعلم ويتبصر حتى يكون على بينة، ويعرف دين الله الذي خلق من أجله. وهذا العلم هو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة؛ فهذا أول شيء: أن يتبصر العبد؛ من هو ربه؟ فيعرف أن ربه الخالق الذي خلقه، ورزقه، وأسدى إليه النعم، وخلق من قبله، ويخلق من بعده، هو رب العالمين، وأنه الإله الحق المعبود الذي لا يستحق العبادة سواه أبداً؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا جن، ولا إنس، ولا صنم، ولا غير ذلك. بل العبادة حق لله وحده، فهو المعبود بحق، وهو المستحق بأن يعبد، وهو رب العالمين، وهو ربك وخالقك وإلهك الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن ذلك أن تعرف نبيك وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي المكي ثم المدني «عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ» فتعرف أنه نبيك وأن الله أرسله إليك بدين الحق يعلمك ويرشدك فتؤمن بأنه رسول الله حقاً وأن الله أرسله للعالمين جميعاً من الجن والإنس، وأن الواجب اتباعه، والسير على منهاجه. وسيأتي تفصيل هذا في الأصل الثالث من الأصول الثلاثة.[٢]

ومعرفة نبيه: هو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه هو المبلغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الواسطة بيننا وبين الله عَزَّوَجَلَّ في تبليغ الرسالة، لا بد أن تعرفه، تعرف من هو؟ وتعرف نسبه وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تعرف كيف

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

بدأه الوحي؟ وكيف قام بالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ في مكة والمدينة، تعرف سيرة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولو باختصار.

الرسـول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى آخر النسب النبوي الذي ينتهي إلى إبراهيم عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاء الوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، وماذا عمل عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سيرته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كيف تتبع شخصًا وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.(١)

قوله (**بالأدلة**): جمع دليل وهو ما يرشد إلى المطلوب، والأدلة على معرفة ذلك سمعية، وعقلية، فالسمعية ما ثبت بالوحي وهو الكتاب والسنة، والعقلية ما ثبت بالنظر والتأمل، وقد أكثر الله عَزَّوَجَلَّ من ذكر هذا النوع في كتابه فكم من آية قال الله فيها ومن آياته كذا وكذا وهكذا يكون سياق الأدلة العقلية الدالة على الله تعالى. وأما معرفة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالأدلة السمعية فمثل قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. بالأدلة العقلية بالنظر والتأمل فيما أتى به من الآيات البينات التي أعظمها كتاب الله عَزَّوَجَلَّ المشتمل على الأخبار الصادقة النافعة والأحكام المصلحة العادلة، وما جرى على يديه من خوارق العادات، وما أخبر به من أمور الغيب التي لا تصدر إلا عن وحي والتي صدقها ما وقع منها.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين النصوص وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد يكون فيها أو في بعضهما خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء إنما الأدلة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضح ومبين لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولى وهي الأساس، بدأ بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنها هي الأساس وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلم والتعليم والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يبدأ بالعقيدة لأنها هي الأصل وهي الأساس.[١]

فتعرف هذه المسألة الأولى: وهي أن تعرف ربَّك ونبيَّك ودينَك بالأدلة قال الله وقال الرسول لا بالرأي ولا بقول فلان، بل بالأدلة من الآيات والأحاديث، وذلك هو دين الإسلام الذي أنت مأمور بالدخول فيه، والالتزام به.[٢]

الثانية: العمل به.

فالعلم بلا عمل يكون وبالاً على صاحبه، وحجة عليه نعوذ بالله.[٣]

من عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحق وتركه على بصيرة. وهذا مذكور في الحديث الشريف: «إن من أول من تسعر بهم النار

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

يـوم القيامة، عالم لم يعمل بعلمه»[١] العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلـم، فعلم بلا عمل كشـجرة بلا ثمـر، لا فائدة فيها، والعلـم إنما أنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون علم يكون وبالاً وضلالاً على صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم فإن عمله وبال وتعب على صاحبه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢].

ولهذا نقـرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. فسـمى الله الذين يعملون بدون علم الضآلين، والذين يعلمون ولا يعملون بالـمغضوب عليهم، فلنتنبه لذلك فإنه مهم جداً.[٣]

فمـن عمـل بلا علم فقد شـابه النصارى، ومن علم ولم يعمل فقد شـابه اليهود.[٤]

والعمـل بالعلـم منه مـا تركه كفـر، ومنه ما تركـه معصية، ومنـه ما تركه مكـروه، ومنـه مـا تركه مبـاح، كيـف يكون ذلـك؟ العلـم ينقسـم، فالعلم بالتوحيـد؛ بأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المسـتحق للعبادة وحـده، إذا علمه العبد ولم

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وهو حديث طويل وفيه: «أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة» مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا قبل الحديث (٧٣٥٠)، ومسلم (١٨) (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧) (١٧١٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن أحدَثَ في أمرنا ما ليس منه فهو رَد».

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

يعمل بهذا العلم بأن أشرك بالله جَلَّ وَعَلَا لم ينفعه علمه، فكان ترك العمل في حقه كفراً، وقد يكون معصية بأن علم مثلاً أن الخمر حرام شُربها، حرام بيعها، حرام شراؤها، حرام سقيها، حرام استسقاؤها، ونحو ذلك، وخالف العلم الذي عنده، عَلِمَ أنه حرام فخالف، فتكون مخالفته معصية، يعني ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب في هذه المسألة، منه ما هو مكروه؛ إذا علم أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كان يصلي على هيئة، وصِفة معينة، فخالفه في سنة من السنن بعد عِلمه بها، ترك العمل بالعلم الذي عنده هذا مكروه؛ لأنه ترك العمل بسنة ليس بواجب، فيكون تركه مكروه، ويكون العمل بذلك مستحبا، وقد يكون العمل بالعلم مباحاً، وتركه مباح أيضاً، بمثل المباحات، والعادات ونحو ذلك، كأن بلغنا من العلم أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان من هيئته في لباسه كذا وكذا، كانت مشيته على نحو ما، هذه الأمور الجبلية الطبيعية، فيما نتعلمه، مما لم نخاطب فيها بالاقتداء، إذا ترك العمل بها، كان تركه مباحاً له لأنه لم يخاطب المسلم أن يقتدي بمثل هذه الأمور بنحو سير النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بصوته، بالأمور الجبلية التي كان عليها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيكون العمل بذلك مباح، وقد يُؤجر عليه إذا نوى الاقتداء، بنية الاقتداء، فيكون ترك العمل أيضاً مباحاً.(١)

الثالثة: الدعوة إليه.

أي أن تدعو إلى هذا الدين فتنصح الناس بأن يستقيموا عليه، وترشدهم وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، هذه هي الدعوة إلى دين الإسلام؛ فعلى كل مسلم أن يدعو إلى الله حسب طاقته وعلمه.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فكل واحد رجل أو امرأة، عليه قسط من هذا الواجب من التبليغ والدعوة والإرشاد والنصيحة، وأن يدعو إلى توحيد الله، وإلى الصلاة والمحافظة عليها، وإلى الزكاة وأدائها، وإلى صوم رمضان، وحج البيت مع الاستطاعة، وإلى بر الوالدين، وصلة الأرحام، وترك المعاصي كلها(١)؛ لأن هذه وظيفة الرسل وأتباعهم.(٢)

والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وطريقة من تبعهم بإحسان، فإذا عرف الإنسان معبوده، ونبيه، ودينه؛ ومن الله عليه بالتوفيق لذلك فإن عليه السعي في إنقاذ إخوانه بدعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ وليبشر بالخير؛ قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم خيبر: «أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم»(٣) متفق على صحته. ويقول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رواه مسلم: «من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(٤). وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رواه مسلم أيضًا: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»(٥).(٦)

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى الإسلام والنبوة. ومسلم. كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-.
(٤) مسلم، كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة.
(٥) مسلم، كتاب الإمارة باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره.
(٦) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

ولأن هـذا العلم أمانة، ليس بملك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجـة إليه، فالواجب عليـك التبليغ والبيان ودعوة النـاس إلى الخير، هذا العلـم الـذي حملك الله إيـاه ليس وقفًا عليـك؛ وإنما هو لـك ولغيرك، فلا تحتكـره على نفسـك وتمنع الناس مـن الانتفاع به، بل لا بد مـن تبليغه ولا بـد من بيانـه للناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

هـذا ميثاق أخـذه الله على العلماء أن يبينوا للنـاس ما علمهم الله من أجل أن ينشـروا الخيـر، ويخرجـوا الناس مـن الظلمـات إلى النـور، وهذا عمل الرسـل عليهم الصلاة والسـلام ومن اتبعهم، قـال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨] هذه طريقة الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعـوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، «فمن لم يدع وهو قـادر على الدعوة وعنده وكتمه، فإنه يلجم بلجام من نار يوم القيامة[١] كما في الحديث».[٢]

ولا بد لهذه الدعوة من علم بشريعة الله عَزَّوَجَلَّ حتى تكون الدعوة عن علم وبصيـرة. لقولـه تعالـى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١) (٢٦٦) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام مِن نار يوم القيامة» وابن ماجه (٢٦٥) مِن حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قـال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن كتـم عِلمًا مما ينفـع الله به في أمر النـاس، أمر الدِّين، ألجمـه الله يـوم القيامة بلجـام مِن نار». المؤلـف: وأصح ما جاء في هـذا الباب ما أورده الترمذي (٢٦٤٩): «مَن سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَهُ، أُلْجِمَ يومَ القيامَةِ بِلِجامٍ من نارٍ».

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨] والبصيرة تكون فيما يدعو إليه بأن يكون الداعية عالمًا بالحكم الشرعي، وفي كيفية الدعوة، وفي حال المدعو.

ومجالات الدعوة كثيرة منها: الدعوة إلى الله تعالى بالخطابة، وإلقاء المحاضرات، ومنها الدعوى إلى الله بالمقالات، ومنها الدعوة إلى الله بحلقات العلم، ومنها الدعوى إلى الله بالتأليف ونشر الدين عن طريق التأليف، ومنها الدعوة إلى الله في المجالس الخاصة فإذا جلس الإنسان في مجلس في دعوة مثلاً فهذا مجال للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولكن ينبغي أن تكون على وجه لا ملل فيه ولا إثقال، ويحصل هذا بأن يعرض الداعية مسألة علمية على الجالسين ثم تبتدئ المناقشة ومعلوم أن المناقشة والسؤال والجواب له دور كبير في فهم ما أنزل الله على رسوله وتفهيمه، وقد يكون أكثر فعالية من إلقاء خطبة أو محاضرة إلقاء مرسلاً كما هو معلوم.(١)

والدعوة قد تكون بالمقال، وقد تكون بالفعال؛ لأن الامتثال بالفعل دعوة، فإذا امتثل المسلم لما أُمر به، فإن هذا يجعله يرشد غيره إرشاداً صامتًا، بالفعل إلى أن هذا مطلوب.(٢)

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

يتعلم الداعية، الذي علم، ثم عمل ثم دعا، أنه يجب عليه أن يصبر: لأن سنة الله جَلَّ وَعَلَا في خلقه لم يجعل القبول حاصلاً للنبيين والمرسلين الذين هم أفضل الخلق وأعلاهم درجة، لم يجعل القبول لهم، وإنما عورضوا، وأوذوا،

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وحصل لهم ما حصل، فالداعية يحتاج إلى أن يصبر كما صبر المرسلون، بل إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أُمِرَ بأن يحتذي حذو الصابرين بقول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، فالصبر، الصبر في غاية المهمات لمن علِم، فعمل، فدعا، يحتاج إلى أن يصبر، فإن لم يصبر، كان من الذين يستخفهم الذين لا يوقنون، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم:٦٠]؛ قد حذر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أصحابه من العجلة قال: «ولكنكم قوم تستعجلون».(١)

فالواجب على من يدعو إلى الله ويريد وجه الله أن يصبر على الأذى وأن يستمر في الدعوة إلى الله، وقدوته في ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام وخيرهم وخاتمهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ماذا لقي من الناس، وكم لقي من الأذى بالقول والفعل، قالوا ساحر وكذاب، وقالوا مجنون، وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن، وتناولوه بالأذى، قذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دعاهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وألقوا سلا جزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتوعدوه بالقتل وهددوه، وفي غزوة أحد جرى عليه وعلى أصحابه ما جرى، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كسروا رباعيته وشجوه في رأسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع في حفرة، وهو نبي الله، كل هذا أذى في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لكنه صبر وتحمل وهو أفضل الخلق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا بد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذى على حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه على حق فإنه يصبر ويتحمل فهو في سبيل الله وما يناله من الأذى فهو في كفة حسناته أجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الصبر: حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط من أقدار الله فيحبس النفس عن التسخط والتضجر والملل، ويكون دائمـًا نشـيطـًا في الدعوة إلى ديـن الله وإن أوذيَّ، لأن أذية الداعين إلى الخير مـن طبيعـة البشـر إلا من هدى الله، قـال الله تعالـى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] وكلما قويت الأذية قرب النصر، وليس النصر مختصـًا بأن ينصر الإنسـان في حياتـه ويرى أثر دعوته قـد تحقق بل النصر يكون ولو بعد موته بأن يجعل الله في قلـوب الخلق قبولاً لما دعا إليه وأخذاً به وتمسـكـًا به فإن هذا يعتبر نصراً لهذا الداعية وإن كان ميتـًا، فعلى الداعية أن يكون صابراً على دعوته مسـتمراً فيهـا، صابـراً على ما يعترضه من الأذى، وها هم، ها هم الرسـل صلوات الله وسلامه عليهم أوذوا بالقول وبالفعل قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريـات:٥٢] وقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقـان:٣١] ولكـن علـى الداعيـة أن يقابل ذلك بالصبر وانظر إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسـان: ٢٣] كان مـن المنتظر أن يقال فاشـكر نعمـة ربك ولكنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤] وفي هذا إشارة، أن كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر، وانظر إلى حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيـن ضربـه قومه فأدموه وهو يمسـح الدم عـن وجهه ويقـول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١] فعلى الداعية أن يكون صابراً محتسباً.[٢]

(١) رواه البخـاري، كتـاب اسـتتابة المرتدين والمعاندين. ومسـلم، كتـاب الجهاد، باب: غزوة أحد.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الصبر ثلاثة أنواع:

فالأول: صبر على طاعة الله، لأن النفس تريد الكسل وتريد الراحة، فلا بد أن يصبرها الإنسان على الطاعة وعلى الصلاة وعلى الصيام وعلى الجهاد في سبيل الله وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبرها ويحبسها على طاعة الله.

والثاني: صبر على محارم الله، النفس تريد المحرمات والشهوات، تميل إليها وتنزع إليها، فلا بد أن يربطها ويحبسها عن المحرمات، وهذا يحتاج إلى صبر، وليس من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، من ليس عنده صبر فإن نفسه تتغلب عليه وتجنح إلى المحرمات.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان، لا بد أن يصبر على قضاء الله وقدره لا يجزع ولا يتسخط بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخط ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، هذا هو الصبر على المصائب.(١)

فالصبر هو أساس القيام بالمهمات والأعمال الصالحة.(٢)



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلمها بالتفصيل، هل من دليل على ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟ قال: الدليل على ذلك قوله تعالى: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].[(١)]

«**الْعَصرِ**» هو الزمان، أقسم الله جَلَّ وَعَلَا به لشرفه؛ الزمان المطلق، والعصر يعني: والزمن، والعمر، والوقت؛ لأنه أشرف شيء أُعطيه الإنسان، أن أعطي عمراً فيه يعبد الله جَلَّ وَعَلَا، ويطيعه، فبسبب العمر عَبَدَ الله، وبسبب العمر شَرُف.[(٢)]

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس يطول عليهم الوقت يملون ويقولون: نريد قتل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العطلة والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.[(٣)]

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقسم بما شاء من خلقه، فلا أحد يتحجر عليه، فأقسم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

بالسماء ذات البروج، وأقسم بالسماء والطارق، وبالضحى وبالشمس وضحاها، وبالليل إذا يغشى، وبالنازعات، وغير ذلك؛ لأن المخلوقات تدل على عظمته، وعلى أنه سبحانه هو المستحق للعبادة ولبيان عظم شأن هذه المخلوقات التي تدل على وحدانيته وأنه المستحق للعبادة وحده؛ وأما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بربه، فلا يقسم ولا يحلف إلا بالله، ولا يجوز له أن يحلف بالأنبياء، ولا بالأصنام، ولا بالصالحين، ولا بالأمانة، ولا بالكعبة، ولا بغيرها.

هذا هو الواجب على المسلم؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك» أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».[(١)]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

والمعنى: أن كل إنسان في خسارة، والخُسر ضد الربح، إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، فمن حقق هذه الأركان الأربعة؛ فاز بالربح العظيم، ونجا من الخسران، فحظ الإنسان من الربح بحسب حظه من هذه الخصال الأربع.[(٢)]

هؤلاء الذين استثناهم الله جَلَّ وَعَلَا هم أصحاب هذه المسائل الأربعة التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.[(٣)]

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جميع بني آدم لم يستثن أحداً لا الملوك ولا الرؤساء، ولا

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور ولا الإناث. فـ «ال» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خسر٣، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والإيمان لا يكون إلا بعلم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهذه ثمرة العلم والإيمان، عَمِلَ الصالحات. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نصح بعضهم بعضًا، وذكر بعضهم بعضًا، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر.١؛ والصبر أقسام ثلاثة: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قدر الله المؤلم بل صبر على أقدار الله التي تسرّ والتي تؤلم، هذه أنواع الصبر الثلاثة؛ صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قدر الله، وكلها يحتاج إليها العالمون، العاملون، الدعاة.[1]

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر هما من جملة العمل الصالح، وهو يدخل في الإيمان، فهذه الأمور الأربعة بعضها يدخل في بعض، فعطف الأعمال الصالحة على الإيمان، وعطف التواصي على عمل الصالحات، كلها من عطف الخاص على العام.[2] والإيمان علم وعمل، أليس كذلك؟ الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ هذا الاعتقاد هو العلم، لأن العلم مورده القلب والعقل... ألم نقل: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وهنا قال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعطف بالواو العمل على الإيمان، وأهل اللغة النحاة يقولون إن الواو تأتي كثيراً للمغايرة، فهل معنى ذلك أن العمل غير الإيمان؟ وأن مسمى الإيمان لا يدخل فيه العمل؟ الجواب لا، ذلك لأن المغايرة تكون بين حقائق الأشياء، وحقيقة الإيمان أكبر من حقيقة العمل؛ لأن العمل جزء من الإيمان؛ العمل بعض الإيمان، وعطف الخاصّ بعد

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

العام يأتي كثيراً، وكذلك عطف العام بعد الخاص يأتي كثيراً بالواو، من مثل قول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]، هنا ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أليسا من الملائكة؟ لما عطفهم على الملائكة؟ عطفٌ للخاص بعد العام، إذاً لماذا يعطف الخاص على العام مع دخول الخاص في العام؟ لابد يكون له قصد، لابد يكون ثَم فائدة، الفائدة التنبيه على أنه في الحكم مثل الأول، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا هنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فهم ذلك؛ فقال (يجب علينا تعلم أربع هذه المسائل)، فذكر العلم ثم العمل؛ لأنه قال وعملوا الصالحات، فلما عطف الخاص على العام دل على شرفه، وعلى أنه يهتم به، وعلى مزيد مكانته، ثم لأنه في الحكم مثل الأول.(١)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين».(٢)



---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «لَو مَا أَنزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتهُم».[(١)]

قال الشــافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: الإمام المعروف محمد بن إدريس أحد الأئمة الأربعة المتبوعين: **«لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»**

وفي روايـة: «لـو فكر النـاس في هذه الســورة لكفتهم»؛ أي لـو نظروا فيها وتأملـوا فيها لكانت كافية في إلزامهم بالحق، وقيامهم بما أوجب الله عليهم، وتـرك مـا حرمـه عليهـم؛ لأن الله بيـن أن الذين آمنـوا وعملـوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر هم الرابحون، ومن سـواهم خاسـر، وهذه حجة قائمة على وجوب التواصي، والتناصح، والإيمان والصبر، والصدق، وأنـه لا طريق للسـعادة والربـح إلا بهذه الصفات الأربـع: إيمان صادق بالله ورسوله، وعمل صالح، وتواص بالحق، وتواص بالصبر.[(٢)]

معنـى ذلـك إذا خوطبنا بهذه السـورة، لـو خوطبنا بها وحدهـا، مؤمنون بمن؟ لا بد هناك شيء يؤمن به، ثم يعملون، يعملون على أي شيء؟ وبأي شـيء؟ لابد أن هناك سـبيلاً؛ وهو سـنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هناك تواصي بالحـق، دعوة إلـى ذلك، وتواصـي بالصبر؛ صبر على هـذا، فترى أن هذه السـورة اشـتملت على كل ما يدل الخلق على ربهـم جَلَّ وَعَلَا، ويقودهم إلى اتباع رسـالة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. ٢ ففي هذه السورة العظيمة الحجة لهذه الأمـور، وهذا هو الدين كله. فالدين كله إيمان وعمل ودعوة وصبر. إيمان

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة ص ٤٨٢، وابن كثير في تفسيره ١/ ٢٠٥ بنحوه.
(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

بالحق وعمل به ودعوة إليه وصبر على الأذى فيه.[(١)]

مـراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هـذه السـورة كافيـة للخلـق في الحـث على التمسـك بديـن الله بالإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلـى الله، والصبر على ذلك، وليس مراده أن هذه السـورة كافية للخلق في جميع الشـريعة. وقوله: «لو ما أنـزل الله حجـة على خلقه إلا هذه السـورة لكفتهم» لأن العاقـل البصير إذا سـمع هذه السورة أو قرأها فلا بد أن يسعى إلى تخليص نفسه من الخسران وذلـك باتصافه بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.[(٢)]

وقال هذه المقالة؛ لأن الله بيّن في هذه السـورة أسـباب الشـقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر على الأذى في سـبيل الله تعالى، فقامت الحجة من الله على خلقه بهذه السورة، إن الله سبحانه يقول لهم أني قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله والسـنة هما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بينت أسـباب السعادة مجملة، فقامت بها الحجة على الخلق، وبقية نصوص القـرآن والسـنة مفصِّلَـة ومبينـة لهذه المسـائل الأربـع، وليـس معنى كلام الشـافعي أن هذه السـورة تكفـي الناس، لو ما أنزل الله غيرهـا؛ لكنها أقامت الحجة عليهم لأن الله بين فيها أسـباب السـعادة وأسـباب الشقاوة، فلا أحد

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.(١)



وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «بَابُ: العِلمُ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلمِ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ».(٢)

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ صاحب الصحيح(٣)

بَابُ: العِلمُ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، **فَبَدَأَ بِالعِلمِ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ**

استدل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل وهذا دليل أثري يدل على أن الإنسان يعلم أولاً ثم يعمل ثانيًا، وهناك دليل عقلي نظري يدل على أن العلم قبل القول والعمل وذلك لأن القول أو العمل لا يكون صحيحًا مقبولاً حتى يكون على وفق الشريعة، ولا يمكن أن يعلم الإنسان أن عمله على وفق الشريعة إلا بالعلم، ولكن هناك أشياء يعلمها الإنسان بفطرته كالعلم بأن الله إله واحد فإن هذا قد فطر عليه العبد ولهذا لا يحتاج إلى عناء كبير في التعلم، أما المسائل الجزئية المنتشرة فهي التي تحتاج إلى تعلم وتكريس جهود.(٤)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) صحيح البخاري:١/ ٢٤.
(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

بدأ الله في الآية بالعلم قبل القول والعمل، وهو: الاستغفار، فأمر الله أولاً: بالعلم بالتوحيد ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أمر ثانيًا: بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو من العمل.١ لـما ذكر الشيخ هذا؟ لأي شيء؟ لأجل أن هذه الرسالة؛ رسالة علم، كلها شرح وبيان للمسألة الأولى، للواجب الأول، ألا وهو العلم، فينبه طالب العلم أن العلم مهم، مهم للغاية، حتى إنه قبل القول والعمل، فقبل أن يستغفر العبد، لابد أن يعلم العلم الواجب عليه، وهذا العلم هو الذي ينجيه بنفسه، هو الذي ينجي به نفسَه بفضل الله جَلَّ وَعَلَا إذا سئل عن هذه المسائل الثلاثة. الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يريد أن يبين لك، ثلاثة الأصول هذه، والمسائل المتعلقة بها، فأكد لك أهمية العلم بقوله، فيما ساق عن البخاري (باب العلم قبل القول والعمل)، العلم قبل ولا شك؛ ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ –وما أحسن ما قال– يقول: «والجهلُ داءٌ قاتلٌ» صدق، الجهل داء قاتلٌ؛ قال:

والجهلُ داءٌ قاتلٌ وشفاؤه	أمران في التركيبِ متفقانِ
نص من القرآن أو من سنة	وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث مالها	من رابع والحق ذو تبيانِ
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للديانِ
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان
والله ما قال امرؤ متحذلق	بسواهما إلا من الهذيان

بيَّن أن الجهل داء قاتل، بما يُزال الجهل؟ قال (بنص من القرآن أو من السنة)، من طبيب ذاك الذي يرشدك ويُبين لك؟ قال: (وطبيب ذاك العالم الرباني)،

ليس كل منتسب للعلم ولكن هو العالم الرباني، الذين وصفهم الله جَلَّ وَعَلَا في سورة آل عمران، بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران:٧٩]، ثم بين العلم هذا ما هو الذي تسعى إليه؟، فقال (علم بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للديان)، هذه شملت التوحيد؛ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ثم قال العلم الثاني ما هو؟ قال: (والأمر والنهي الذي هو دينه) يعني الفقه؛ الأمر والنهي، الأحكام؛ الحلال والحرام، هذا مأمور به، وهذا منهي عنه، هذا افعله، وذاك لا تفعله، هذا النوع الثاني من العلم النافع. والثالث (وجزاءه يوم المعاد الثاني) الذي هو العلم بما يكون يوم القيامة، ووسائل ذلك.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول (العلم قبل القول والعمل)، نعم، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالعلم إذا كان قبل القول والعمل بورك لصاحبه في القليل، وإن كان العملُ والقول قبل العلم ربما كانت الأعمال والأقوال جبالاً، ولكنها ليست على سبيل نجاة، ولهذا روى الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم وجماعة عن أبي الدّرداء أنه قال: (يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبِطُنا سهر الحمقى وصومهم، ولمثقال ذرة مع بِرٍّ ويقين أعظم عند الله من أمثال الجبال عبادةً من المغترين) يقول يا حبذا، يعني يتمنى نوم الأكياس، الأكياس من؟ (إن لله عباداً فطنا) هؤلاء هم الأكياس الذين حيوا؛ قلوبهم صحيحة، عقولهم صحيحة، يقول يا حبذا نوم الأكياس؛ أهل العلم، وإفطارهم، ناموا، والحمقى على كلام أبي الدرداء سهروا ليلهم في صلاة، لكن هؤلاء لا يستوون عند أبي الدرداء مع أولئك؛ لأن أولئك عبدوا الله جَلَّ وَعَلَا على جهل، وهؤلاء عبدوا الله بعبادات قليلة، ولكنها مع علم وبصيرة فكانوا أعظم أجراً، بحيث قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: (ولمثقال

ذرة مع بر ويقين أعظم من أمثال الجبال عبادة من المغترين)، لهذا نقول العلم في غايــة الأهميــة، العلم في غاية الأهمية، ويُبدأ به قبل أي شــيء، خاصة العلم الذي يصحح العبادة، يصحح العقيدة، يصحح القلب، ويجعل المرء في حياته يسير على بيِّنة وفق سنة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس على جهالة.(١)



اعلَم رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ وَمُسلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ المَسَائِلِ الثَّلاثِ، والعَمَلُ بِهِنَّ.

يجب تعلم المَسَائِل الثَّلاث مع المسائل الأربع السابقة:

اعلــم أنــه يجب على كل مســلم ومســلمة تعلم ثــلاث هذه المســائل مع المسائل الأربع التي سبقت، وهذه المسائل يجب أن يتعلمها كل مسلم وكل مسلمة؛ لأن فيها بيان أصل الدين وقاعدة الدين.(٢) هذه المسائل الثلاث من أهم المسائل التي تتعلق بالتوحيد وحقوقه.(٣)

قوله: (**يجب علينا**) يدل على أن الأمر ليس من باب الاستحباب، من شاء فعل ومن شــاء ترك، بــل الأمر من باب الإلزام مــن الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ليس هذا الإيجــاب من قبل الشــيخ، وإنمــا هو من قبل الله عَزَّوَجَلَّ فيمــا أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.(٤)



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الأُولَى: أَنَّ اللّهَ خَلَقَنا، وَرَزَقَنا، وَلَم يَتركنا هَمَلًا، بَل أَرسَلَ إِلَينا رَسُولًا، فَمَن أَطاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل: ١٥- ١٦].

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَم يَترُكنا هَمَلًا، بَل أَرسَلَ إِلَينا رَسُولًا، فَمَن أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ:

قوله: أن الله خلقنا: أي أوجدنا من العدم فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئًا، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان:١]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم:٩] كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو الله عَزَّوَجَلَّ قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور: ٣٥].[1]

ودليل ذلك أعني أن الله خلقنا سمعي وعقلي: أما السمعي فكثير ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢﴾ [الأنعام:٢]

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف:١١] الآية،

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر:١٥]

وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم:٢٩]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرحمن: ١٤]

وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]

إلى غير ذلك من الآيات. أما الدليل العقلي على أن الله خلقنا فقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥] فإن الإنسان لم يخلق نفسه لأنه قبل وجوده عدم والعدم ليس بشيء وما ليس بشيء لا يوجد شيئًا، ولم يخلقه أبوه ولا أمه ولا أحد من الخلق، ولم يكن ليأتي صدفة بدون موجد؛ لأن كل حادث لا بد له من محدث؛ ولأن وجود هذه المخلوقات على هذا النظام والتناسق المتآلف يمنع منعًا باتًا أن يكون صدفة. إذا الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره، فتعين بهذا أن يكون الخالق هو الله وحده فلا خالق ولا آمر إلا الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولم يعلم أن أحداً من الخلق أنكر ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا على وجه المكابرة كما حصل من فرعون، وعندما سمع جبير بن مطعم رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ سورة الطور فبلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] وكان جبير بن مطعم يومئذ مشركًا فقال: «كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي».[(١)،(٢)]

(١) البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(ورزقنا): أدلة هذه المسألة كثيرة من الكتاب والسنة والعقل أما الكتاب: فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤] وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١] والآيات في هذا كثيرة.

وأما السنة: فمنها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنين يبعث عليه ملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله، وعمله وشقي أم سعيد.[١]

وأما الدليل العقلي على أن الله رزقنا فلأننا لا نعيش إلا على طعام وشراب، والطعام والشراب خلقه الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠] ففي هذه الآيات بيان إن رزقنا طعاماً وشراباً من عند الله عَزَّوَجَلَّ.[٢]

قوله: «وَلَم يَترُكنا هَمَلًا»

أن الله جَلَّ جَلَالُهُ خلق الخلق لغاية، لم يخلقهم لغير غاية، لم يخلقهم سداً ولا عبثاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يصفون، بل إنما خلق الخلق لغاية، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾[المؤمنون:١١٥]، يعني لغير غاية ولغير حكمة ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، وأنه لن يكون بعث بعد خلقكم، وأنه لن يكون إرجاع لكم

(١) البخاري، كتاب القدر. ومسلم، كتاب القدر.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

إلـى من خلقكم، هـذا فيه قدح، هذا الظن فيه قدح في حكمة الله جَلَّ وَعَلَا، لذلك قال جَلَّ وَعَلَا بعدها ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون:١١٦] تعالى عما يصفه به المبطلون، تعالى عما يظنه عليه الجاهلون القادحون في حكمته.(١)

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وأما العقل: فلأن وجود هذه البشـرية لتحيا ثم تتمتع كما تتمتع الأنعام ثم تمـوت إلى غير بعث ولا حسـاب أمر لا يليـق بحكمة الله عَزَّوَجَلَّ بل هو عبث محض، ولا يمكن أن يخلق الله هذه الخليقة ويرسـل إليها الرسـل ويبيح لنا دماء المعارضين المخالفين للرسل عليهم الصلاة والسلام ثم تكون النتيجة لا شيء، هذا مستحيل على حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.(٢)

فـإذاً الخلـق مخلوقون لغايـة، ما هذه الغايـة؟ هي ما بينهـا في قوله جَلَّ وَعَلَا ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريـات:٥٦-٥٨]، الله جَلَّ وَعَلَا مـا خلـق الجـن والإنس إلا لغاية واحدة وهي الابتلاء؛ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢] الاختبار اختبار في أي شيء؟ في عبادته هل يعبد وحده لا شريك له أم يتخذ المخلوق هذا آلهةً أخرى مع الله جَلَّ وَعَلَا؟ وهذه مسألة ولا شك عظيمة.(٣)

الله خلـق الخلـق ليعبدوه فلـم يخلقهم همـلاً، ولا سـداً، ولا عبثًا، لكنه

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

خلقهم لأمر عظيم، ولحكمة عظيمة فيها سعادتهم، وفيها نجاتهم، وهي أن يعبدوا الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وهذه العبادة أمرهم الله بها في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وفي قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وفي قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، في آيات كثيرة أمرهم فيها بالعبادة، وهي توحيده جَلَّ وَعَلَا، وتخصيصه بالعبادة من دعاء وخوف ورجاء وتوكل ورغبة ورهبة وصلاة وصوم وغير ذلك. فهو المستحق للعبادة جَلَّ وَعَلَا دون كل ما سواه. ويدخل في ذلك فعل الأوامر، وترك النواهي؛ فأداء الأوامر التي أمرك الله بها ورسوله، وترك النواهي التي نهاك الله عنها ورسوله؛ كل هذا داخل في العبادة.(١)

بَل أَرسَلَ إِلَينَا رَسُولًا

الإنسان خُلق لهذه الغاية، لكن يحتاج إلى من يُبَصِّره بهذه الغاية، ويعلّمه القصد من خلقه، ويعلمه كيف يصل إلى عبادة ربه على الوجه الذي يرضى به اللهُ جَلَّ وَعَلَا عنه، فبعث الله جَلَّ وَعَلَا رسلا مبشرين ومنذرين يدلون الخلق إلى وعلى خالقهم، يعرفونهم بمن يستحق العبادة وحده، ويعرفونهم بالطريق التي أذن من خلقهم أن يعبدوه بها؛ قال جَلَّ وَعَلَا لنبينا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبإ:٢٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل:١٥]، وكل أمة قد خلا فيها نذير، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

---

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، نذير ينذرهم ويبشرهم؛ يبَشِّر من أطاع وينذر من النار، ويخوف من النار ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. [١]

لما كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس؛ أرسل الله إلينا رسلًا تبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يعبد الله بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية على ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فالحكمة من إرسال الرسل أن يبينوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ هذه مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولهذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢] فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمى مرفوض لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.[٣]

فثبت بهذه النصوص أن الله جَلَّوَعَلَا لم يترك الخلق وشأنهم بعد أن خلقهم، بل بعث لهم رسلا يعلمونهم ويهدونهم ويبصّرونهم الطريق التي يرضى الله جَلَّوَعَلَا بها أن يعبدوه بها دون ما سواها من الطرق الموصلة، وتلكم الطريق طريق واحدة، ليست بطرق متعددة كما قال جَلَّوَعَلَا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] فهو صراط واحد، وهناك صُرط أخرى، هي صُرط أهل الضلال والجهل والغِواية، والهوى أما الطريق الموصلة إلى الله جَلَّوَعَلَا فهو طريق المرسلين الذي جاءوا

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

بـه من عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ وهو دين الإسـلام العـام، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]؛ الاستسلام لله جَلَّ وَعَلَا بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، الرسل بينوا للناس هذه الغاية، ودلُّوهم على عبادة الله جَلَّ وَعَلَا وحـده دون ما سـواه، فقامت العداوةُ بين الرسـل وبيـن أقوامهم في هذا الأصـل؛ حيث إن الخلق يريدون أن يعبـدوا الله جَلَّ وَعَلَا بالطريقة التي يحبون لا بالطريقة التي يحبها الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال بعض أئمة السلف «ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشـأن أن تُحَب»؛ ليس الشـأن أن تحب الله، فإن محبة الله جَلَّ وَعَلَا يدعيها المشـركون، يدعيهـا الضالون، كل قوم بُعث فيهم الرسـل يدعون أنهم يريدون وجه الله، يريدون ما عند الله يحبونه، ربما يتصدقون ويُصَلُّون ويدعون ويَصِلُون ويتقربون، وما فِعل أهل الجاهلية؛ جاهلية العرب مِنَّا ببعيد، لكن ليس الشأن أن يُحب المحبُّ ربَّه، ولكن الشـأن أن يُحب العبدَ ربُّه؛ الشأن أن يحب الله جَلَّ وَعَلَا العبد متى يكون ذلك؟ لابد أن يبحث العبد عن سـبيل محبة الله جَلَّ وَعَلَا له، هذا السـبيلُ بيَّنه الله جَلَّ وَعَلَا في قوله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ زعمًا ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ طاعةً ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]. فإذاً سـبيل محبة الله للعبد هي طاعة الرسل، واتباع الرسل وخاتم المرسلين نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ببعثته وبرسالته نُسخت جميع الرِّسـالات ونسـخت جميع الكتب من قبله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فبقي للناس طريـق واحد يصلون به إلـى ربهم جَلَّ وَعَلَا؛ ألا وهو طريق محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إذ هـو الواسـطة العمليـة للاتبـاع؛ لاتباعه للوصـول إلـى الله جَلَّ وَعَلَا، فمن اتبع واهتـدى بغير هدي النبـي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هذا النبي الخاتم، فهـو من الضالين الذين تنكبوا سبيل الحق.[1]

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عصاه دخل النار:

فمن أطاع هذا الرسول واستقام على دينه؛ فله الجنة، ومن عصى هذا الرسول وحاد عن دينه فله النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾: يعني: بأعمالكم ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾، فهو مرسل «عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ» ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٦].(١)

فالمعنى فاحذروا أن تُكَذبوا رسولكم فيأخذكم كما أخذ فرعون.(٢)

هذا حق مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٢-١٣٣] ومن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء: ١٣] ومن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور: ٥٢] وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧١] والآيات في ذلك كثيرة ومن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» فقيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار» رواه البخاري.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ١٤] وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ

---

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

﴿ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: ٢٣] ومن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث السابق: «ومن عصاني دخل النار».

هذه المسألة الأولى ومعناها: الإقرار بتوحيد الربوبية، ومن ربوبيته تعالى إنعامه على عباده، وأعظم نعمه على عباده إرسال الرسل، وإنزال الكتب لتعريف العباد بربهم، وبحقه عليهم.(١)



الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّه لا يَرضَى أَن يُشرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: ١٨]

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرضَى أَن يُشرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرسَلٌ

مما يجب علينا علمه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد، بل هو وحده المستحق للعبادة.(٢)

وهذه المسألة هي مسألة توحيد العبادة، وهو: إخلاص الدين لله، وإفراد الله بالعبادة، وصرف جميع أنواع العبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز أن يُشرك معه في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وما دونهما من باب أولى.(٣)

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

هذه المسألة الثانية إنما هي تحقيق للمسألة الأولى: أن تعلم أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، كما أنه الخالق الرازق المحيي المميت، الذي خلقك وأعطاك النعم، فهو سبحانه لا يرضى أن يشرك معه أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا غيرهما؛ لأن العبادة حق الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وكما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]؛ لأن الشرك به هو أعظم الذنوب، وقد جاء في الآيات الكثيرة الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه فتجمع بين أمرين: فتؤمن بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وتؤمن بأنه سبحانه هو المستحق للعبادة من ذبح وصلاة وصوم وغير ذلك من العبادات، كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨].(١)

فمن عبد الله وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها، لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد فإذا خالطها شرك فسدت كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨]. فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد. ولهذا يجمع الله في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك. قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال عزوجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فقوله

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فيه أمران: فيه نفي الشرك، وفيه إثبات العبادة لله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قرن بين عبادة الله واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة الله لا تكون عبادة إلا مع اجتناب الطاغوت وهو الشرك، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]...

فالإيمان بالله لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون بالله لكنهم يشركون به، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]. بين سبحانه أن عندهم إيمان بالله ولكن يفسدونه بالشرك والعياذ بالله. هذا معنى قول الشيخ، أن من عبد الله وأطاع الرسول فإنه لا يشرك بالله شيئًا، لأن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».[1]،[2]

قوله: الملك المقرب هو أفضل الملائكة مثل: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحملة العرش ومن حوله، والملائكة المقربون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمع قرب المكان من الله عَزَّ وَجَلَّ وقرب العبادة والمكانة عند الله، لو أشركهم أحد مع الله في العبادة فإن الله لا يرضى بأن يشرك معه ملك مقرب ولا نبي مرسل كمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيسى ونوح وإبراهيم أولي العزم، لا يرضى أن يشرك معه أحد ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

(١) أخرجه المسلم (٢٩٨٥) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فهو لا يرضى أن يشرك معه أحد من الملائكة ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولى لا يرضى الله بإشراكهم معه في العبادة، وهذا رد على أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند الله ليقربوهم عند الله زلفى، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يَخلقون ولا يَرزقون ولا يَملكون موتًا ولا حياة ولا نشوراً؛ وإنما قصدهم التوسط عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.(١)

الله جَلَّوَعَلَا إنما يرضى التوحيد، يرضى أن يعبد وحده دون ما سواه، فمن أشرك مع الله جَلَّوَعَلَا إلهـاً آخر فقد نقض الغاية العملية التي كُلِّف بها من خلقه ومن إيجاده؛ قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ دعاء مسألة، ودعاء عبادة مع الله أحداً.

المساجد يفعل فيها شيئان:

- سؤال الله جَلَّوَعَلَا، دعاء الله جَلَّوَعَلَا دعاء المسألة، هذا نوع.

- والثاني عبادة الله جَلَّوَعَلَا بأنواع العبادات من الصلاة؛ الفرض والنفل، ومن التلاوة، ومن الذكر، ومن التعلم والتعليم، ونحو ذلك.

قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ أقيمت لله جَلَّوَعَلَا؛ لعبادته وحده دون ما سواه، فلا تدعو دعاء مسألة أحداً غير الله، ولا تدعو دعاء عبادة أحداً غير الله، وكما أن المصلي لا يصلي إلا لله، فكذلك في المسجد وفي غيره فلا يسأل ولا يدعو إلا الله جَلَّوَعَلَا.

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

دعاء المسألة: هو الذي يسميه العامّة أو يسمِّيه الناس الدعاء، وهو المقصود به، إذا قيل دعا فلان يعني سأل به الله جَلَّ وَعَلَا قال: اللهم اعطني، اللهم قني، اللهم اغفر لي، ونحو ذلك، هذا يسمى دعاء المسألة.

أمَّا دعاء العبادة: فهو العبادة نفسُها؛ لأن المتعبد لله جَلَّ وَعَلَا بصلاة أو بذكر هو سائل لله جَلَّ وَعَلَا، لأنه إنما عبد أو صلى، أو صام، أو زكى، أو ذكر، أو تلا، رغبةً في الأجر، كأنه سأل الله جَلَّ وَعَلَا الثواب، لهذا يُقال الدعاء قسمان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠]، قال في أول الآية ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾، وقال في آخرها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ فدل على أن الدعاء عبادة، أو هو العبادة، ولهذا فسر السلف قوله ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ الاستجابة هنا فُسِّرت بتفسيرين: ﴿أَسْتَجِبْ﴾ بمعنى أُعطكم ما سألتم، أو أُثِبكُم؛ أدعوني أثبكم، إذا كانت في هذا التقسيم (أدعوني أثبكم) بهذا المعنى فيكون الدعاء هنا الدعاء بمعنى العبادة، لأنها هي التي يتعلق بها الثواب. وإذا كانت الإجابة هنا بمعنى إعطاء السُّول يكون الدعاء هنا دعاء مسألة.

وهذه المسألة مقررة تقريراً واضحاً في كتب أهل العلم؛ ألا وهي أن قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، أنه يشمل نوعي الدعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدعاء هو العبادة».

الله جَلَّ وَعَلَا لا يرضى أن يشرك معه أحد، قد يُتَوهَّم أن المخلوق إذا بلغ إلى غاية عظيمة أنه يمكن أن يوصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا باتخاذه واسطة، باتخاذه وسيلة، وأعلى المخلوقات مقاماً عند الخلق الملائكة والرسل والأنبياء،

لهذا نفى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذين فقال: «**الله جَلَّ وَعَلَا لا يرضى أن يشرك معه أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل**»، (لا ملك مقرب) حتى ولو كان جبريل الذي هو سيد الملائكة وأشرفهم وأعظمهم. (ولا نبي مرسل) حتى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. دليل ذلك ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، وجه الاستدلال أن ﴿أَحَدًا﴾ نكرة جاءت في سياق النفي، وقد تقرر أن النكرات إذا أتت في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، فإنها تعُم. قال ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ يدخل في ﴿أَحَدًا﴾ الملائكة، ويدخل فيه الأنبياء.

هذا الأصل يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمه علمًا يقينيًا لا شك فيه ولا شبهة، بدليله وهو قوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، فلا يخطر على قلب المسلم أو المسلمة أنه يمكن أن يدعو غير الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو أن يتوجه إلى غير الله، بأي نوع من أنواع العبادات، حتى ولو كان المتوجه إليه ملك مقرب، أو نبي مرسل.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَو كَانَ أَقرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَو كَانَ أَقرَبَ قَرِيبٍ

الثالثة: أنَّ من أطاع الرسول كما في المسألة الأولى.[1]

ووحَّد الله كما في المسألة الثانية.[2]

لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب؛ والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

هذه مسألة الولاء والبراء وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد الولاء لأولياء الله والبراء من أعداء الله، والموالاة والولاء بمعنى واحد، والولاء يراد به المحبة بالقلب، ويراد به المناصرة والمعاونة.[3]

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وهـذه هـي المسـألة الثالثة وهي مـن أهم الواجبـات أن يعلم كل مسـلم ومسـلمة أنه لا يجـوز له أن يوالي المشـركين أو يحبهم، فـكل من أطاع الله ورسوله ووحد الله جَلَّوَعَلَا يلزمه أن يعادي الكفار ويبغضهم في الله، ولا يجوز لـه موالاتهم ومحبتهم لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾: أي لا تجد يا محمد قومًا أهل إيمان صادق يوادون من حاد الله ورسوله.(١)

والمحادة معناها: أن يكون الإنسـان في جانب، والله ورسـوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحاد في جانب الكفار هذه هي المحادة.(٢)

وقـال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾. وقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾. فلا بد من البغضاء والعداوة لأعداء الله، ومودة المؤمنين ومحبتهم.(٣)

لا تجـد قومـًا مؤمنيـن يوالـون الكافريـن؛ لأن الإيمان يمنع مـن ذلك، قـال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائـدة: ٨١]، ولكنهـم لا يؤمنـون بهـذه الثلاثة، فاتخذوهـم أولياء، وهـذا الـكلام يعـود إلى الذين قـال الله فيهـم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠﴾ [المائـدة: ٨٠]، فـإذا وجدنا من يواد ويوالي ويعظم

---

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

الكافرين المحادين لله ورسوله؛ علمنا أنه ليس بمؤمن؛ لأن المؤمنين لا يكونون كذلك، قال الله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣]، ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢].(١)

فأصل الدين الذي هو من معنى كلمة التوحيد الولاء والبراء؛ الولاء للمؤمنين وللإيمان، والبراءة من المشركين والشرك، ولهذا يُعِّرف علمائنا **الإسلام: بأنه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.**

وها هنا تنبيه أنها في بعض نسخ كتاب الشيخ أنه عرّف الإسلام بهذا وقال في آخره (**والخلوص من الشرك وأهله**)، والمعروف عنه في النسخ الصحيحة التي قُرِأت على العلماء (**البراءة من الشرك وأهله**)؛ لأن البراءة تشمَل الخلوص وزيادة، وهي الموافقة لقول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]. ٢؛ ولأن موالاة من حاد الله ومداراته تدل على أن ما في قلب الإنسان من الإيمان بالله ورسوله ضعيف؛ لأنه ليس من العقل أن يحب الإنسان شيئًا هو عدو لمحبوبه، وموالاة الكفار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضلال، وموادتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودتهم فتجده يوادهم أي يطلب ودهم بكل طريق، وهذا لا شك ينافي الإيمان كله أو كماله، فالواجب على المؤمن

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

معاداة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب إليه، وبغضه والبعد عنه ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحق.(١)

ومن كان وليًا لله ورسوله وجب عليك أن تحبه وتواليه، ولو كان بعيدًا من النسب عنك، لو كان أعجميًا أو أسود أو أبيض أو أحمر يجب عليك أن تواليه وأن تحبه سواء كان من بلدك أو من أقصى الشرق أو من أقصى الغرب، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١]، أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة هذا بين المؤمنين.(٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية الشافية:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًا له ما ذاك بإمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان



(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فصل: في الموالاة

(الموالاة) معناها أن تتخذه وليًا، وأصلها من الوَلاية، والوَلاية هي المحبة، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤]، يعني هنالك المحبة والمودة والنُّصرة لله الحق، فأصل الموالاة المحبة والمودة، ولهذا استدل بقوله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ [المجادلة:٢٢]، ففسَّر الموالاة بأنها الـمُوادّة، وهذا معناه أن أصل الموالاة في القلب، وهو محبة الشرك أو محبة أهل الشرك والكفر. فأصل الدين أن من دخل في (لا إله إلا الله) فإنه يحب هذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويحب أهلها، ويُبغض الشرك المناقض لهذه الكلمة، ويبغض أهله. فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالاة والمعاداة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا قيل الولاء والبراء في الله هو بمعنى الحب والبُغض في الله، وهو بمعنى الموالاة والمعاداة في الله؛ ثلاثة بمعنىً واحد، فأصله القلب؛ محبة القلب، إذا أحبَّ القلبُ الشرك صار مواليًا للشرك، إذا أحب القلبُ أهل الشرك صار مواليًا لأهل الشرك، كذلك إذا أحب القلبُ الإيمان صار مواليًا للإيمان، إذا أحب القلبُ اللهَ صار مواليًا لله، إذا أحب القلبُ الرسول صار وليًا ومواليًا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا أحب القلبُ المؤمنين صار مواليًا ووليًا للمؤمنين؛ قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٥-٥٦]، يعني من يحب وينصر اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

الموالاة؛ موالاة المشركين والكفار محرمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل

بصاحبها إلى الكفر والشـرك، ولهذا ضبطها العلماء بأن قالوا تنقسم الموالاة إلى قسمين:

الأول **التولِّي**؛ والثاني **الموالاة**. الموالاة باسـمها العام تنقسم: إلى التولي وإلى موالاة.

- أما التولِّـي فهو الذي جـاء في قوله تعالـى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائـدة:٥١]، تَـوَلَّاه تولِّيـًا؛ التولي معناه: محبة الشـرك وأهل الشـرك، محبة الكفـر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهـل الإيمان، قاصدا ظهور الكفر على الإسلام، بهذا الضابط يتضح معنى التولي.

والتولي كما ذكرتُ لكم تولِّي الكفار والمشركين كفر أكبر، وإذا كان من مسلم فهي ردة.

ما معنى التولِّي؟ معناه: محبة الشـرك وأهل الشـرك (لاحظ الواو)؛ يعني يحب الشرك وأهل الشرك جميعـًا مجتمعة، أو ألا يحب الشرك ولكن ينصرُ المشـركَ على المسلم، قاصداً ظهور الشرك على الإسلام، هذا الكفر الأكبر الذي إذا فعله مسلم صار رِدَّة في حقه والعياذ بالله.

- القسـم الثاني المـوالاة: والموالاة المحرّمة من جنس محبة المشـركين والكفـار، لأجـل دنياهـم، أو لأجـل قراباتهـم، أو لنحو ذلـك، وضابطه أن تكـون محبة أهل الشـرك لأجل الدنيـا، ولا يكون معها نصـرة؛ لأنه إذا كان معها نصرة على مسـلم بقصد ظهور الشـرك على الإسـلام صار تَوَلِّيـًا، وهو في القسم الـمُكَفِّر، فإن أحب المشرك والكافر لدنيا، وصار معه نوع موالاة، معـه لأجل الدنيا، فهذا محرم ومعصيـة، وليس كفراً؛ دليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]،

قال علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: أثبت الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية أنه حصل ممن ناداهم باسم الإيمان اتخاذ المشركين والكفار أولياء بإلقاء المودة لهم. وذلك كما جاء في الصحيحين، وفي التفسير في قصة حاطب المعروفة حيث إنه أرسل بخبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه عظيمة من العظائم للمشركين لكي يأخذوا حِذرهم من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما كُشِفَ الأمر، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: يا رسول الله دعني أضرب عنقَ هذا المنافق. قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعمر: «أتركه يا عمر، يا حاطب ما حملك على هذا؟» فدل على اعتبار القصد؛ لأنه إن كان قصد ظهور الشرك على الإسلام، وظهور المشركين على المسلمين، فهذا يكون نفاقاً وكفراً، وإن كان له مقصد آخر فله حكمه.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مستبيناً الأمر «ما حملك يا حاطب على هذا؟» قال: «يا رسول الله، والله ما حملني على هذا محبة الشرك وكراهة الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يد يحمي بها ماله في مكة، وليس لي يدٌ أحمي بها مالي في مكة، فأردتُ أن يكون لي بذلك يد أحمي بها مالي في مكة». فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «صدقكم». الله جَلَّ وَعَلَا قال في بيان ما فعل حاطب ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة:١]، يعني حاطباً، فِفعلُه ضلال. وما منع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من إرسال عمر أو ترك عمر إلا أن حاطباً لم يخرج من الإسلام بما فعل، ولهذا جاء في رواية أخرى قال: «إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم لقد غَفَرتُ لكم». قال العلماء: «لعلمه جَلَّ وَعَلَا بأنهم يموتون ويبقون على الإسلام».

دلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ

﴿أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، مع بيان سبب نزولها من قصة حاطب، أن إلقاء المودة للكافر لا يسلب اسم الإيمان؛ لأن الله ناداهم باسم الإيمان، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع إثباته جَلَّ وَعَلَا أنهم ألقَوا المودة.

ولهذا استفاد العلماء من هذه الآية، ومن آية سورة المائدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]، ومن آية المجادلة التي ساقها الشيخ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]، إلى أنَّ الموالاة تنقسم إلى تولٍّ وموالاة؛ الموالاة بالاسم العام منه تَوَلٍّ وهو الـمُكَفِّر بالضابط الذي ذكرتُه لك، ومنه موالاة وهو نوع مودة لأجل الدنيا ونحو ذلك.

والواجب أن يكون المؤمن محبـًا لله جَلَّ وَعَلَا ولرسوله وللمؤمنين، وألا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، إذا عَامَلَ المشركين أو عَامَلَ الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل القلب، ولا محبة القلب لـما؟

لأن المشرك حمل قلبـًا في مسبَّة الله جَلَّ وَعَلَا، لأن المشرك سابٌّ لله جَلَّ وَعَلَا بفعله، إذ اتخذ مع الله جَلَّ وَعَلَا إلهـًا آخر، والمؤمن متولٍّ لله جَلَّ وَعَلَا ولرسوله وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لـمشرك حمل الشرك والعياذ بالله.(١)

عقيدة الولاء والبراء

يعقد الإسلام آصرة الأُخوَّة الإيمانية بين أفراده الذين يؤمنون به ويلتقون عليه، فيجعل منهم أمة واحدة، تلتقي على العقيدة والإيمان، دون التفات إلى الجنس الذي ينحدرون منه، أو البلد الذي ينتسبون إليه، أو الزمن الذي يعيشون

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فيه، أو الـمصالح الـمادية التي قد يلتقي عليها بعض الناس، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء:٩٢].

وقرر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأصل الكبير في أول ميثاق لدولة الإسلام في المدينة بعد الهجرة، وجعله واقعاً عملياً بين «المؤمنين والمسلمين ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة دون الناس، وأن الـمؤمنين الـمتقين أيديهم على كل من بغى منهم، وأن ذمة الـمؤمنين واحدة يـجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس». [١]

وما ذاك إلا لأنهم جميعاً إخوة متحابون ينضوون تحت راية التوحيد «لا إله إلا الله» التي تظلّهم جميعاً فتجعلهم أمة واحدة، تتمسك بأوثق عُرى الإيمان، وهو الحب في الله والبغض في الله.

ومن مقتضيات هذا التوحيد والإخاء: عقد الولاء بين المؤمنين والبراء من الكفار والمشركين إذ لا يتم الولاء للمؤمنين إلا بالبراءة من المشركين، فهما متلازمان.

الولاء والبراء في النصوص الشرعية

لقد قرر الله تعالى مبدأ الولاية بين المؤمنين، وجعل بعضهم أولياء بعض، يتناصرون ويتعاضدون ويتحابون، فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وذلك لأن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، وتجمّع المسلمين

(١) مقتطفات من كتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار واليهود في المدينة بعد الهجرة. انظر نص هذا الكتاب بالتفصيل وتخريج فقراته في: «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» ص٥٧-٦٤.

شيء طبيعي في مواجهة التجمع الذي يقوم على أساس معارضة الإسلام، ومحاربة المسلمين.

ولذلك تنزلت النصوص القرآنية الكريمة، وتواردت أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحذر المسلمين أشد التحذير من موالاة أعداء الله الكافرين، وتوجب الموالاة للمؤمنين والبراءة من الكافرين، وقد أبدأ القرآن الكريم في ذلك وأعاد في مواضع كثيرة ومناسبات شتى، فأنت لا تجد موضوعًا نال من الاهتمام -بعد العناية بالتوحيد- كما تجد في هذه القاعدة الكبيرة، والأصل العظيم: «الولاء والبراء».

وسنجتزئ هنا ببعض هذه النصوص، وهي بوضوحها ونصاعتها تبين هذه الحقيقة الكبرى وتجعلها أوضح من الشمس في رابعة النهار؛ ولذلك ينبغي الوقوف عندها والنظر في مدلولاتها ومراميها:

فمن الآيات القرآنية الكريمة قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى

﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: ١-٢].

وما كانت صلة النسب والقرابة مهما كانت قريبة سببا للمودة بين المؤمنين والكفار، ولا سبيلاً للولاء لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ [التوبة: ٢٣].

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولذلك تبرأ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أبيه وقومه:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

ولهذا المعنى نفسه قطع الله تعالى الصلة بين نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبين ابنه الكافر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

وكذلك قطع الصلة بين نوح وزوجته، وبين لوط وزوجته... إلخ.



ومن الأحاديث النبوية:

وأما الأحاديث النبوية التي تقرر هذا المبدأ وما يقتضيه ويستلزمه، فمنها:

أوثق عرا الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله عَزَّوَجَلَّ.(١)

«من أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان».(٢)

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».(٣)

وغيرها من الأحاديث والآثار في هذا المعنى كثير، حسبنا منها تلك الجملة ففيها القناعة والكفاية.(٤)

مفهوم الولاء والبراء في اللغة والشرع

الولاء في اللغة:

الواو واللام والياء، أصل صحيح يدل على قُرب؛ وذلك أن الولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما،

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود الطيالسي، والحاكم، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط». انظر: «صحيح الجامع الصغير» برقم «٢٥٣٩»، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم «١٧٢٨».

(٢) أخرجه أبو داود: ٧/ ١٥، والإمام أحمد: ٣/ ٤٤٠، والبغوي في «شرح السنة»: ١٣/ ٥٤، وصححه الحاكم: ٢/ ٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٧٢، ومسلم: ١/ ٦٦ في كتاب الإيمان.

(٤) نظر هذه الأحاديث والآثار في «مجموعة التوحيد» ص:١١٨-١٢١)، و«الموالاة والمعاداة»:١\١١٠-١٢٢]، لنعرض بعدها مفهوم الولاء والبراء أخذا من هذه النصوص الشرعية، واستنادا إلى معانيها عند علماء اللغة.

ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة، ومن حيث الولاية.

والولاء: الملك، والقرب، والقرابة، والنصرة، والمحبة.

والوليّ: ضد العدوّ، وكل من يليك أو يقابلك فهو وليّ، وكل من وَلِيَ أمرَ آخر فهو وليّه.

ووالى فلاناً: أحبه، وتولّاه: اتخذه ولياً. فإذا عُدِّي بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع، منه: ولّيت وجهي كذا: أقبلت به عليه. وإذا عُدِّي بـ «عن» لفظاً أو تقديراً، اقتضى معنى الإعراض وترك قربه.[١]

مفهوم الولاء في الشرع

ومن تلك المعاني اللغوية للولاء وما يتصل بها، ومن مراجعة النصوص القرآنية والحديثية وأقوال علماء السلف؛ يمكن أن نخرج بمفهوم عامّ للولاء يقوم على النصرة والتحالف والحب والطاعة وإلقاء مقاليد الأمور لمن يكون له الولاء.

فإذا كان ذلك للمؤمنين: مودة لهم ونصرة لهم على أعدائهم... فهي الموالاة الشرعية التي أوجبها الله تعالى، وجعلها رابطة بين المؤمنين، حيث قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

(١) انظر في المعاني: «معجم مقاييس اللغة»: ٦/ ١٤١، «لسان العرب»: ١٥/ ٤٠٦٤١٤، «الكلّيّات» للكَفَوِيّ: ٤/ ٣٠٠، ٥/ ٤٣،٤، «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني «٥٣٣، ٥٣٤»، «النهاية في غريب الحديث والأثر»: ٥/ ٢٢٧٢٣٠، «الصحاح» للجوهري: ٦/ ٢٥٢٨٢٥٣١.

وإن كانت هذه الموالاة للكافرين والمشركين والطواغيت، فهي الخروج على الإسلام والمحادّة لله ولرسوله، ينهى الله تعالى عنها، ويحذِّر فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

ويرشدك إلى هذا المعنى: أن صدر سورة الممتحنة، الذي نزل في حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وفيه نهى الله تعالى عن موالاة أعدائه، إنما كان نهياً عن مناصرة الكفار بإلقاء شيء من أسرار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإفشائه، بحكم ما كان بين حاطب وبين القوم، فأراد أن يتخذ عندهم جيداً.

فقد كان حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلما عزم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على فتح مكة، لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتجهيز لغزوه، وقال: «اللهم عَمِّ عليهم خبرنا» فعمد حاطب، فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غزوهم؛ ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله، استجابة لدعائه. فبعث في أثر المرأة من أخذ الكتاب منها، وقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا حاطب، ما هذا»؟ قال: لا تعجل عليَّ! إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنه صَدَقكم»، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: دعني

أضرب عنق هذا المنافق! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].[1]

البراء في اللغة

الباء والراء والهمزة: أصلان إليهما ترجع فروع الباب؛ أحدهما: الخَلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم بَرءاً. والبارئ: الله جل ثناؤه.

والأصل الآخر: التباعد عن الشيء ومزايلته. من ذلك: البُرء، وهو السلامة من السُّقم، يقال: بَرِئت وبَرَأت، قال تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف:٢٦]، وفي غير موضع من القرآن الكريم: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾ والمصدر: البراء.[2]

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل البَرء والبَرَاء والتبرِّي: التفصِّي مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: بَرَأت من المرض[3]، وبرأت من فلان، وتبرّأت وأبرأته من كذا، وبَرَّأته، ورجل بريء، وقوم براء وبريئون ...».[4]

وقال ابن الأعرابي: البريء: المتفصي من القبائح، المتنحي عن الباطل والكذب، البعيد من التهم، النقي القلب من الشرك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن إلا ابن ماجة. وانظر روايات القصة وألفاظها، في تفسير ابن كثير: ٨\١٠٨-١١١، طبعة الشعب.

(٢) «معجم مقاييس اللغة»: ١/ ٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) في «المصباح المنير» للفيومي «١/ ٤٧»: «بَرَأ» من المرض «يَبْرَأ» من بابَيْ نفَع وتعِب.

(٤) «مفردات القرآن» للراغب ص٤٥.

وقال أيضـًا: يقال: برئ إذا تخلص، وبرئ: إذا تنزه وتباعد، وبرئ: إذا أعذر وأنذر. ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:١] أي: إعذار وإنذار.

مفهوم البراء في الشرع

وهـذه المعاني اللغوية كلها ملحوظة في المعنى الشـرعي للبراء، الذي هو البعد عـن الكفار ومودتهم، والتخلص من قبائحهم وباطلهم، والإنذار لهم، ومقاطعتهم وبغضهم قلبيـًا، وبغض ما هم عليه من الكفر والقبائح.

فمـن يتبرأ من الكفار والمشـركين إنما يتبرأ من القبيـح والباطل والمكروه ويبتعد عنه، وبذلك يبرأ من تهمة الكفر التي تحصل بإلقاء المودة لهم، وفي ذلك إنذار لهم وإعذار، فما كانت البراءة والعداوة إلا بعد هذا الإنذار والإعذار.

مقتضيات البراءة من الكفار

وهـذا البراء من الكفار، وما هم عليه يقتضي أن نتنبه إلى جملة أمور حتى تتم مجانبة دين الكفار والبراءة منهم(١):

١- ترك اتباع أهوائهم ومتابعتهم في أي أمر من أمورهم، فإن هذه المتابعة لهم إنما تكون بترك الشريعة أو بعضها، وإنه لكفر بالشريعة أن نتركها متابعة لهـوى المشـركين والكفار، بـأي حجة وتحت أي عنـوان، وهم لا يرضون مـن المؤمـن إلا أن يتبع ملتهم ودينهم وذلك ردة ينبغـي الحذر منها؛ ولهذا جاءت الآيات القرآنية تحذر أشـد التحذير من هذا الاتباع: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقـرة: ١٢٠]. ﴿وَلَا

---

(١) «بيـان النجـاة والفـكاك»، ص٢٦٨-٢٧٢ ضمن «مجموعـة التوحيد»، «تيسـير العزيز الحميد» ص٤٤٦-٤٨٣.

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

٢- النهي عن التلقي عن الكفار في الرأي والمشورة، وطاعتهم فيما قد يشيرون به أو يأمرون، فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠- ١٠١].

ومن ثم جاءت التحذيرات الحاسمة كهذه التحذيرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ١]

٣- ترك الركون إلى الكفرة والظالمين، فقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾. [هود:١١٣]

فإن الركون إلى الكفرة والظالمين والطواغيت، والاطمئنان إليهم والاستناد إليهم يعني إقرارهم على المنكر الأكبر الذي يزاولونه فيقهرون العباد ويعبدونهم لغير الله ... ويعني مشاركتهم في هذا المنكر الكبير. ولذلك استحق هذا الجزاء وهذا التخويف.

ولذلك كان من فضل الله تعالى على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين من بعد أن ثبته على الحق والدعوة، لئلا يركن إلى الظالمين ومحاولاتهم في الإغراء والمساومة والمداهنة:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾. [الإسراء: ٧٤-٧٥]

٤- ترك مودة أعداء الله ومحبتهم، ومفاصلتهم مفاصلة كاملة، حتى ولو كانوا من أقرب الناس نسبًا وقرابة؛ فلا يجتمع في قلب مؤمن: إيمان بالله ومودة لأعدائه:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. [المجادلة: ٢٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾. [الممتحنة: ١]

٥- ترك التشبه بالكفار في أفعالهم الظاهرة فيما هو من خصائصهم لأنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة حتى إن الرجلين إذا كانا في بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في بلدهما لم يكونا متعارفين؛ وذلك لأن الاشتراك في نوع وصف اختصاص به عن بلد الغربة.. فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة، فإن المشابهة في الأمور الدينية تفضي إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد.[1]

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب كامل خصصه لهذا الموضوع هو «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» وفيه دراسة موسعة للتشبه بالكفار وأثره على الأمة =

ولذلك جاء التحذير الشديد من التشبّه بالكفار؛ لئلا يكون ذلك سببًا للمودة القلبية لهم، ولئلا يسقط الحاجز النفسي بين المؤمن وبين الكفار، ولئلا تتميّع شخصية الأمة المسلمة المتميزة، فتصبح تابعة لغيرها مقلدة لها، والتقليد جسر للضعف والانحلال، وسبب للسقوط والهلاك، ومسخ لمكانة المقلد، فإنه لا يقلد إلا قرد أو ببغاء.[(١)]

وهذا التحذير من التشبه بالكفار ومتابعة سبيلهم وطريقهم تشير إليه أحاديث نبوية كثيرة، كقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«لتتبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».[(٢)]

وقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «من تشبَّه بقوم فهو منهم».[(٣)]

الفرق بين التسامح والبر، وبين المودة للكفار

وإن الإسلام، إن أعطى أهل الذمة في الدولة الإسلامية حقوقهم كاملة، ولم يُكرههم على اعتناق الإسلام، وأمر ببرهم من الناحية المادية والمعاملة

= وحكمه. وقد طبع أكثر من مرة، وطبع محققا رسالة علمية للدكتور/ ناصر عبد الكريم العقل، وهذه الفقرة الموجزة مقتبسة منه.

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن خلدون في «المقدمة» عن أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب: ١/ ٢٥٨، ٢٥٩، وتحليل الأستاذ محمد أسد للتقليد وأثره في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» ص٧٩-٨٦.

(٢) أخرجه البخاري: ٦/ ٤٩٥، ١٣/ ٣٠٠، ومسلم: ٤/ ٢٠٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود: ٦/ ٣٤، والإمام أحمد في «المسند»: ٢/ ٥٠، ٩٢، وعبد بن حميد في «المنتخب» ص٢٦٧، وابن أبي شيبة في «المصنف»: ٥/ ٣١٣، ٣٢٢، والطحاوي في «مشكل الآثار»: ١/ ٨٨، والطبراني في «الأوسط»: ٩/ ١٥١، والخطيب في «الفقيه والمتفقه»: ٢/ ٧٣.

والتسامح معهم، ووصلهم بقسط من أموالنا على وجه البر والصلة، حتى ولو كانوا مخالفين لنا في الدين من جميع أصناف الملل والأديان، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

إلا أن هناك فرقًا بين هذا التسامح والبر والإحسان، وبين إلقاء المودة إليهم الرئيسية تنزيل المكتبة مستودع الكتب شرح البرنامج راسلنا واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، ولا يجوز أن يلتبس أحدهما بالآخر.(١)

وسر الفرق في ذلك: «أن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك؛ فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله وذمة دين الإسلام.

وحكى ابن حزم في «مراتب الإجماع» أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم ونموت دون ذلك صونًا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة تعيّن علينا أن نبرهم بكل أمر لا يدل ظاهره على مودات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر، فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع وصار من قبيل ما نهي عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) في جواز هذه الصلة والبر لغير المقاتلين، راجع تفسير الآية الكريمة في: «تفسير الطبري»: ٢٨/ ٦٣، ٦٤، «تفسير البغوي»: ٨/ ٩٥، ٩٦، «أحكام القرآن» للجصاص ٥/ ٣٢٧، «أحكام القرآن» لابن العربي: ٤/ ١٧٨٥، ١٧٨٦.

ويتضح ذلك بالمَثَل: فتمكينهم من الولايات والتصرف في الأمور الموجبة لظهور العلم والغلبة منهم وسلطان المطالبة والرئاسة والسيادة وعلو المنزلة ... وذلك كله منهي عنه؛ لما فيه من تعظيم شعائر الكفر وتحقير شعائر الله ودينه وأهله.

وأما ما أمر به الإسلام من برهم من غير مودة باطنية: فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة بهم، لا على سبيل الخوف والذلة، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم.

فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل، لا على وجه العزة والتعظيم لهم. وينبغي أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا عَزَّوَجَلَّ.

وبالجملة: فإن برهم والإحسان إليهم مأمور به، وودهم وتوليهم منهيّ عنه، فهما قاعدتان: إحداهما محرمة، والأخرى مأمور بها»[(١)،(٢)].



(١) «الفروق» للقرافي: ٣/ ١٤١٦ باختصار. وانظر: «الإسلام في مواجهة التحديات» للمودودي ص٣٩٦٣، «منهج الإسلام في الحرب والسلام» عثمان جمعة ضميرية ص٥٩٨٢ وفيه إشارة إلى مراجع كثيرة.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية د. عثمان جمعة ضميرية

موقف الكفار من الإسلام والمسلمين

وهذا التسامح والبر من جانب الإسلام، يقابله من جانب اليهود والنصارى كل ما يمكن أن يتفتق عنه العقل البشري من المكائد والمؤامرات، وكل ما يمكن من الجحود والحرب التي لا تهدأ بكل أنواعها وألوانها[(١)]؛ ولذلك يجمل بنا هنا أن نعرض بإيجاز شديد لموقف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» من الإسلام والمسلمين ليتميز الموقفان، ولتظهر ولاية الكفار بعضهم لبعض، مهما اختلفت مللهم، وتباينت نِحَلهم، وتعددت راياتهم ... فهم يناصبون الإسلام العداء، ولن يهدأ لهم بال حتى يردّوا المسلمين عن دينهم إن استطاعوا.

ونستلهم ذلك من تقريرات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم أولاً، ثم من الواقع التاريخي ثانيًا.

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ويتفق موقف أهل الكتاب هذا مع موقف المشركين تجاه الإسلام والمسلمين، قال الله تعالى:

---

(١) يمكن الإشارة هنا إلى بعض الدراسات في ذلك مثل: «التبشير والاستعمار» للدكتور عمر فروخ ومصطفى الخالدي، «الغارة على العالم الإسلامي» ترجمة محب الدين الخطيب، «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام» للشيخ محمد محمود الصواف، «المؤامرة على الإسلام» للأستاذ أنور الجندي، وستأتي أيضا أسماء دراسات أخرى في مناسباتها.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة: ٨].

والواقع التاريخي شاهد صادق على أن تلك هي أهدافهم النهائية، ولنأخذ أمثلة سريعة موجزة تشير إلى ذلك:

فاليهود عليهم لعائن الله تترى إلى يوم القيامة استقبلوا الإسلام ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولاً يعرفون صدقه ودينا يعرفون أنه الحق، استقبلوه بالفتن والدسائس والأكاذيب والشبهات ... وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم.

وفي تاريخنا الحديث: يكفي أن نعلم أنهم هم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض، وأنهم وراء كل محاولة لسحق الحركات الإسلامية في كل مكان، بأشخاصهم وذواتهم، أو عن طريق عملائهم وصنائعهم... وهم أصحاب الدَّور الخبيث في تكوين الفرق الضالة المنحرفة عن الإسلام والدعوة لها... وهم هم أصحاب العدوان الأثيم على ديار المسلمين المقدسة التي بارك الله تعالى حولها... ولو رحنا نستقصي الأمثلة والشواهد على ذلك لاستغرق هذا مجلدات، وخرج بنا عما أردناه في هذا المدخل.(١)

ترى: هل يتنبَّه الغافلون والمخدوعون؟ وهل يسكت الأدعياء المأجورون؟

(١) انظر بالتفصيل: «خطر اليهودية العالمية» لعبد الله التل، وله أيضاً: «الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام»، «الخطر اليهودي»، ترجمة محمد خليفة التونسي، «الماسونية ذلك المجهول» لصابر طعيمة.

وهـل يرعوِي المضللون فيكفّون عن التزوير والتزييف في التاريخ، وعن الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين وللأمانة وللرسالة؟

ذلكم هو شأن اليهود، أما إخوانهم في الضلال والغي، وأولياؤهم في الكفر «النصـارى»، فإن موقفهم لا يقل إصـراراً على العدوان والحرب من موقف اليهـود؛ فما إن ظهر الإسـلام حتى تناسـى الرومان النصـارى عداواتهم مع الفرس وعادوا إلى أضاليلهم ليواجهوا المسلمين مواجهة عنيفة شديدة.

فالنصارى أصحاب العداوات والحروب للإسلام منذ عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منـذ غـزوة مؤتة، ومن ثـم كانت الحمـلات والهجمـات الصليبيـة على ديار المسـلمين؛ وكانت الخيانة والتجسس على بلاد المسلمين والتعاون مع التتار الوثنيين، ومكاتبة قوات الاحتلال الصليبي والتعاون معها، ويكفي أن نذكر ما حدث في بلاد المسـلمين على أيدي هؤلاء النصارى في زنجبار، وفي الحبشـة، وفي الفلبين، وفي قبرص، وفي لبنان، وفي أوغندا، وفي البوسنة والهرسك؛ أخيراً ... يكفـي أن نذكـر ذلـك؛ لنعلم مدى العداوة للإسـلام والمسـلمين، ومدى الكيد والتآمر والحقد.

واليـوم كذلك يتعاون أهل الكتاب مع الملحدين في المعسـكر الشـيوعي ليواجهوا الإسـلام والمسـلمين، وليضربوا كل حركة إسـلامية صادقة. فهم يتناسون كل خلاف يمكن أن يقوم بينهم إذا ما واجهوا الإسلام والمسلمين، فهـم دائما «بعضهـم أولياء بعض»، وهـم متعاونون ضدنا، متآمـرون علينا، فـلا يزال هذا هو موقفهـم في الماضي وفي الحاضر، ففـي الماضي: تعاونهم مـع التتـار الوثنيين، وفي الحاضـر تعاونهم مع الملحدين. فقد نشـرت مجلة «الشـئون الخارجيـة» «FOREING AFFAIRS» سـنة ١٩٨٥ مقالاً خطيرا كتبه

ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق، جاء فيه:

«russia and america should join hands to fight the rising tide of Islamic fundamentalism».

وترجمة هذه العبارة: «روسيا وأمريكا يجب أن تعقدا تعاونـًا حاسمًا لضرب الصحوة الإسلامية»[(١)] والأمثلة بعد ذلك كثيرة كثيرة، تعزّ على الحصر.[(٢)]

من مظاهر الولاء للكفار

ونجد هذا الذي أشرنا إليه في مجالات كثيرة، نجده في مجالات التربية والتعليم عند أولئك النفر الذين يريدون لهذه الأمة أن تخضع لمناهج الغرب الحديثة في التربية والثقافة.[(٣)]

وتجده في وسائل الإعلام المتنوعة مسموعة ومرئية ومقروءة التي تسبح بحمد الحضارة الغربية وتمجدها، وتمجد أهلها ودعاتها.[(٤)]

وتجده في النشاط المحموم لترجمة أفكار الغرب ونقلها إلينا بغثها

---

(١) عن كتاب: «الحروب الصليبية، بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن»، د. أحمد شلبي ص ٢٠، والكتاب بكامله عرض للهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامي

(٢) انظر: «منهج الإسلام في الحرب والسلام» ص ٥٠، ٥١، والمراجع المشار إليها هناك، واقرأ كتاب: «العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري» للأستاذ فتحي يكن، «والعالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه» للأستاذ محمود شاكر.

(٣) انظر: «نحو تربية إسلامية» للسيد أبي الحسن الندوي، ومقاله عن: «أهمية نظام التربية والتعليم» بمجلة حضارة الإسلام، دمشق.

(٤) اقرأ للأستاذ يوسف العظم: «الإعلام العربي ورحلة الضياع».

وسمينها، وفي نشر أفكار المستشرقين والاعتماد على كتبهم ومناهجهم، بل والتلقي عنهم واعتناق أفكارهم وترويج شبهاتهم.(١)

كما تجده في نشر المذاهب العلمانية اللادينية والأفكار الجاهلية، وفي تقليد الكفار والسير على منهجهم في توافه الأمور وساقطها، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه!.(٢)

أقسام الناس في الموالاة والمعاداة

القسم الأول: من عبدالله ووحده، ولكنه لم ينكر الشرك ولم يعاد أهله.

فهو وإن وحد الله فتوحيده فاسد، لعدم كفره بالطاغوت، فالإنسان لا يصير مؤمنًا إلا بالكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦].

القسم الثاني: من عادى المشركين ولم يكفرهم.

فهذا النوع لم يأت بما دلت عليه (لا إله إلا الله) من نفي الشرك وما تقتضيه من تكفير من فعله، وهذا الأمر هو مضمون سورة الإخلاص، وسورة الكافرون، وآيات من سورة الممتحنة، فمن لم يكفر من صرح القرآن الكريم بكفره، فقد خالف ما جاءت به الرسل من التوحيد، وما يوجبه في حق الناس من حب وعداوة وإيمان وكفر.(٣)

القسم الثالث: من لم يحب التوحيد ولم يبغضه:

وهذا الصنف للأسف الشديد هو الغالب وجوده بين المسلمين في هذا

(١) انظر بالتفصيل: «الولاء والبراء في الإسلام» ص: ٣٨١-٤٢٢

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية د. عثمان جمعة ضميرية

(٣) انظر الدرر السنية ج٢ ص٩٥-٩٧ وانظر مجموعة التوحيد ص٣٦.

العصر، ومثل هذا الصنف من الناس لم يكن موحدا لله تعالى حق التوحيد لأن التوحيد الحقيقي هو الرضا بالدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]. فلو رضي بما رضي الله به، وعمل به لأحبه، فلا إسلام إلا بمحبة التوحيد والعمل به، ومحبة أهله، فالإخلاص لله إنما يكون في محبة الله، وإرادة وجهه، فمن أحب الله أحب دينه، لأن المحبة يترتب عليها تنفيذ ما تقتضيه كلمة الإخلاص وشروط التوحيد التي منها المحبة لله وفي الله.(١)

فمن عرف الشرك وأبغضه، لابد أن يعرف ما يريد الله من خلقه من محبة وإجلال وتعظيم له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فذكر هذه الحال عن نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقوله تعالى ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾. [يونس:١٠٤]

فالذي يبغض الكافرين وأعمالهم، ولكنه لم يدخل في جماعة المسلمين ويعمل لصالح الإسلام معهم، فإن إيمانه ناقص، نظرا لعدم موالاته لله ورسوله والمؤمنين، فالمؤمن الحق هو الذي يكون مع المؤمنين كالعضو من الجسم كما وضح ذلك حديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه لا بد للمسلم من التصريح بأنه من هذه الطائفة المؤمنة، حتى يقويها ويتقوى بها ويفزع الطواغيت، الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح لهم أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم(٢). هـ.

القسم الرابع: من لم يبغض الشرك ولم يحبه:

فهذا لم ينف ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك والكفر بما يعبد من دون الله،

(١) انظر الدرر السنية ج٢ ص٩٥-٩٧ وانظر مجموعة التوحيد ص ٣٦.
(٢) انظر انظر مجموعة التوحيد ص ٣٠

والبراءة منه، فهذا ليس من الإسلام في شيء أصلا ولم يعصم ماله ودمه، لأنه لم يحقق معنى (لا إله إلا الله)[١]. ولأنه خالف ما ذكر الله عن أبينا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]. ولحديث: من «قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[٢].

القسم الخامس: من عمل بالتوحيد، ولم يبغض من تركه ولم يكفرهم.

فهذا لم يصحح توحيده بنفي الشرك والبراءة منه ومعاداة أهله، فهو لم يوحد الله توحيدًا كاملاً، لأن التوحيد الحقيقي يقتضي نفي الشرك والبراءة من المشركين، وتكفير أهله بعد قيام الحجة عليهم، وهذا النوع من الناس من أشد أنواع المخالفين خطرا على التوحيد، لأنه قد يغتر بحالهم، فيقلدهم غيرهم في مداهنة الكفار والمشركين والمرتدين وهم في الحقيقة لم يأتوا بالأمور التي دلت عليها كلمة الإخلاص نفيًا وإثباتًا[٣]. فهم يظنون أنهم إذا أصلحوا أنفسهم، فلهم مطلق الحرية في التعامل مع الآخرين، بلا تمييز بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، وهؤلاء يخشى أن يكونوا من الداخلين تحت قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾. [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره وأسه ورأسه، شهادة ألا إله إلا الله، واعرفوا

(١) المصدر السابق ص٣٧ وانظر الدرر السنية ج٢ ص٩٧-٩٨.

(٢) رواه مسلم. انظر صحيح مسلم ج١ ص٥٣.

(٣) انظر مجموعة التوحيد ص٣٧ وانظر الدرر السنية ج٢ ص٩٨.

معناها وأحبوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين منكم نسبًا واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم، وابغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال ما عليَّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى عليه إثمًا مبينًا، فقد كلف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا **آباءهم** أو أبناءهم أو إخوانهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا[١] .اهـ.

القسم السادس: من ترك الشرك، ولم يعاد أهله، ولم يكفرهم:

فهذا الصنف داخل تحت ما ذكر في الصنف الأول، إلا أنه يزيد عليه أن الصنف الأول يعمل بالتوحيد، وهذا الصنف جمع بين سيئتين، الأولى ترك الواجبات الشرعية، والثانية مداهنة الكفار، وعدم معاداتهم، فهو لم يؤمن بالله إيمانًا حقيقيًا ولم يعمل بأوامره التي أنزل على عباده، ولم يجتنب الطاغوت كما نهى الله عن ذلك فهو ليس من الإسلام في شيء.[٢]

القسم السابع: من لم يشرك بالله، ولكنه عرف التوحيد ولم يعمل به ولا أحب ولا أبغض فيه.

فهذا وأمثاله من الذين يستحقون عذاب الله، ولو لم يكن قد حصل الشرك منهم، لأن فائدة ترك الشرك تصحيح التوحيد لله، ومن أعظم ما ينبني على التوحيد التضرع عند الله، والالتجاء إليه وحده، ومحبة ما يحب وعداوة ما يعادي.[٣]

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص١١١.
(٢) انظر مجموعة التوحيد ص١٠.
(٣) انظر الدرر السنية ج١ ص٩٩.

ومن ادعى الإسلام ونطق بشهادة (أن لا إله إلا الله) وأحبها وانتسب إلى أهلها، ولكنه لم يفرق بين أوليائها وأعدائها، ولم يحب في الله، ولم يبغض في الله، فهذا عين الكفر وصريحه، لأن حق التوحيد ليس مجرد الإقرار به، ثم الإعراض عن أحكامه التي أهمها الحب في الله والبغض في الله، كما سبق بيان ذلك من الكتاب والسنة.(١)

القسم الثامن: من عرف التوحيد وأحبه واتبعه، وعرف الشرك وتركه، ولكنه مع ذلك يكره من دخل في التوحيد وانضم إلى جماعة المسلمين ويحب من بقي في مناصرة وتأييد الكفار.

فهذا النوع من الاعتقاد والتعامل كفر(٢)، يخرج به المسلم من مسمى الإسلام لأن الإنسان إذا أحب نصرة الكافرين وخذلان المسلمين فهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾. [محمد:٩]

فالذين يؤيدون أحزاب الكفر وأحزاب الشيطان، التي تتخذ مظاهر متعددة في البلاد الإسلامية، بحبهم لمن ينتمي إليها، وبغضهم لمن ينتمي إلى حزب الله الممثل في الجماعة المسلمة، هؤلاء داخلون تحت هذا الحكم، وهذا الحكم ينطبق تمامًا على دعاة الشيوعية والاشتراكية أو الدعاة إلى حزب البعث، أو الأحزاب الماسونية، أو دعاة العلمانية، فالذين يؤيدون من ينضم إلى تلك الأحزاب الكافرة، هم كفار وإن ادعوا الإسلام، حيث لا يدعو أحد من المسلمين إلى الخروج من حزب الله إلى أحزاب الكفار، ومن فعل ذلك فليس بمسلم، حيث لم يرض بالإسلام دينًا ولم يتخذ شريعته منهجًا في الحياة.

---

(١) انظر المبحث الأول والثاني من الباب الأول من هذه الرسالة من صفحة ٥٧ إلى ١٠٦.

(٢) انظر الدرر السنية ج١ ص٦٦.

القسم التاسع: من عرف التوحيد وأنه الحق، ولكنه لم يلتفت إليه، ولم يتعلمه ولا دخل فيه، ولا انضم إلى جماعة المسلمين، وبقي مع الشرك وأهله.

فهذا العمل، وهذا الموقف كفر، يقاتل عليه من فعله، لأن صاحبه عرف الحق فلم يتبعه، وعرف الشرك فلم يتركه، مع أنه قد لا يبغض دين الله، ولا رسوله، ولا المؤمنين، ولا يمدح الشرك أو يزينه للناس، ولكنه مقبل على الكافرين بفعله مدبر عن المؤمنين.

وقد يتخذ لذلك التصرف حجة وهي حبه لأهله ووطنه ومنافعه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده من الكفار، فيجاهد بنفسه وماله ورأيه، أهل الحق مع أهل الباطل، وهذا الموقف كفر مخرج عن الإسلام، لأن ذلك هو غاية التولي للكفار، وحتى لو ادعى الإكراه في ذلك، فإن الإكراه في ذلك، فإن الإكراه مهما يكن، لا يجوز معه أن يحمل المسلم سلاحه، ضد أهل الحق من المسلمين.[(١)]

ومن يقف مثل هذا الموقف من أهل الإسلام، يكون داخلا تحت قول الله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩١]

القسم العاشر: من تساوى لديه الإسلام والكفر في الحب والبغض، أو من يحبهما من وجه، ويبغضها من وجه آخر.

فهذا الذي يقف من الإسلام مثل هذا الموقف، لم يتحقق فيه معنى الإسلام وهو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، التي من أركانها موالاة

---

(١) نظر الدرر السنية ج١ ص٦٦.

أولياء الله ومعاداة أعدائه، فهو كأنه يعارض الله فيما فرض وشرع، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾. [النساء: ٦٥]

يقول الشيخ عبدالله بن حمد الحجازي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعلموا رحمكم الله أن أكبر الذنوب وأعظمها الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. [النساء:١١٦] وهذا الذنب القبيح له وسائل وذرائع توصل إليه، وأعظمها موالاة أعداء الله على اختلاف أنواعها، فيا عباد الله، انتبهوا من هذه البلية العظيمة، التي صيرت أهل الإسلام وأهل الردة والضلال عند كثير من الجهال جماعة واحدة إلا من عصم الله برحمته.[(٢)] ا.هـ.

فمن كمال الإيمان، وتمام العبودية لله محبة الله، ومحبة رسوله وأنبيائه وعباده المؤمنين، وإن كانت المحبة التامة لا يستحقها غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فغير الله يحب في الله، لا مع الله.

فإن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه فيما يأمر به وما ينهي عنه[(٣)].

والله تعالى يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين ويحب المتطهرين[(٤)]، ونحن ملزمون شرعًا بحب ما يحبه الله تعالى كما أننا ملزمون

(١) الشيخ عبد الله بن حمد الحجازي من تلاميذ الشيخ محمد بن إبراهيم بن محمود. انظر مشاهير علماء نجد/ عبد الرحمن بن عبداللطيف بن عبد الله ص١٩٠.
(٢) انظر الدرر السنية ج١١ ص١٨٣.
(٣) انظر شرح الطحاوية ص٣١٧-٣١٨.
(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي ص١٩٢.

بعدم حب ما لا يحبه الله تعالى، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يحب الخائنين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين[١].

ونحن أيضًا يجب ألا نحبهم، وأن نبغضهم، موافقة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حب ما يحب وبغض ما يبغض.

فالمحبة التامة لله، مستلزمة الموافقة للمحبوب في محبوبه ومكروهه، وولاية من يواليه، وعداوة من يعاديه، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة، فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه الله من الأقوال والأفعال فيحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذكر وتلاوة القرآن ونحو ذلك، ويحب الجهاد في سبيل الله وما دونه من أعمال الخير[٢]، لأن كل ذلك من الأمور المحبوبة عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف:٤].

فلا بد للمسلم أن يحب الله عَزَّوَجَلَّ أولا. ثم هذه المحبة لله تجعله يكون متواضعًا مع المؤمنين، ذا غلظة وعزة على الكافرين، فإذا أصبح بهذه الحال، أحبه الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الصفة التي اتصف بها. قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد سئل ابنا الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما حسين وعبدالله عن رجل دخل هذا الدين وأحبه وأحب أهله، ويبغض الشرك وأهله، ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة أهل الإسلام، ويقاتلون أهله، هو يعتذر بأن

---

(١) المصدر السابق المكان نفسه.

(٢) انظر شرح الطحاوية ص٣١٨.

مقاتلته لهؤلاء الكفار وترك وطنه من أجلهم يشق عليه ذلك، فهو لا يستطيع مفارقة الأهل والأموال والأولاد والعشيرة؛ فهل يكون كافراً أم مسلمًا؟

فأجابا بأن في ذلك تفصيل:

أولاً: أن ينظر إلى هذا الشخص المقيم مع الكفار، هل يقدر على إظهار دينه عندهم، ويتبرأ منهم ومما هم عليه من كفر وشرك؟ وهل يقدر على إظهار عداوته لهم، أو أن يظهر لهم أنهم كفار؟ وهل يأمن على ألا يفتنوه عن دينه، لأجل أهله وماله وولده؟ فن كانت الإجابات على هذه الأسئلة بنعم فهذا لا يحكم بكفره ولكنه إذا قدر على الهجرة ولم يهاجر، ومات بين أظهرهم فيخشى أن يكون داخلاً في أهل هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

ثانيًا: أما إذا أظهر الموافقة للكفار على دينهم، وأن بدعتهم وكفرهم أصوب من الإسلام، واتهم الإسلام بالباطل والقصور، وقاتل معهم أهل التوحيد، بنفسه وماله ورأيه فهذا كافر مرتد، ولو عرف الدين بقلبه وكره الكفر بقلبه، لأن الأمر الذي يمنعه من الهجرة محبة الدنيا على الآخرة، ويتكلم بكلام الكفر من غير إكراه ملجئ فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧][(١)] ا.هـ.

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص٢٨٤-٢٨٥ والدرر السنية ج٨ ص:١١١-١١٢.

وحتى المكره إكراهـًا ملجئًا لا يجوز له أن يحمل على أخيه السلاح فيقتله من أجل سـلامة نفسـه هو[١] فالإكراه يجوز معه التلفـظ بكلمة الكفر ترضية للكفـار أما من يحارب المسـلمين بقولـه وفعله ويناصـر الكافرين من أجل أنه يشـق عليه فراق أهله وأولاده وبلاده، فيقتل المسـلمين، ويرمل نساءهم، وييتم أطفالهم، ويخفض الإسلام وأهله، ويظهر الكفر ويجاري أهله، مقابل أن يسلم هو بنفسه، فهذا ظلم وإعانة على الظلم، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾. [الأنعام: ١٦٤]

قـال القرطبـي في معنى هذه الآية، أي لا تحمل حاملـة ثقل أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها[٢].

وفي مختصر تفسـير الطبري: أي لا تجترح نفـس إثما فيؤخذ به غيرها[٣]. وعلـى هذا إذا وجد حاكم ظالم يطارد أهل الحـق ويبطش بهم، وينصر أهل الباطـل ويدعم باطلهم، فلا يجوز لمن يلتزم بالإسـلام قولا وفعلا، أن يعين هذا الظالم على ظلمه، لأنه حينئذ يخالف قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «انصر أخاك ظالـمًا أو مظلومًا». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيـت إن كان ظالمـا، كيف أنصره؟ قال: «تحجـزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره».[٤]

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٢) انظر تفسير القرطبي ج٧ ص١٥٧.
(٣) انظـر مختصر تفسـير الطبري/ ابن صمادح الأندلسي/ على هامش المصحف المفسر ص: ١٦٥.
(٤) رواه البخاري. انظر فتح الباري ج٥ ص٩٨ (باب المظالم).

والـذي يعين الظالم على المظلوم إنمـا يعمل ضد مفهوم الحديث تمامًا، وهذا إثم عظيم وذنب كبير، وتلك هي الموالاة الظالمة حيث ينصر من يجب عليه خذلانه، وبخذل من تجب عليه نصرته.

ونود أن نذكِّر في هذا المقام الذين يوالون الكفار ويطلبون رضاهم، بأن رضا الكفار لن يتم بما هو دون الكفر، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]. فالكفار إذا أحسوا أن لدى المسلم إمكانية المتابعة لهم والموالاة لهم على كفرهم، فإنهم يتدرجون به رويدا رويدا حتى يخرجوه من الإسـلام. فـإذا أرادوا إقـرار منكر ما فـأول خطوة في ذلك هي أن يشـتروا بعض العلماء الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا، ثم يسـتصدرون الفتاوى التي هم أول من يعلم ببطلانها، ثم يطلبون التأييد على هذا المنكر الذي فعلوه بحجة أنه لا يعارض الشـرع، ثم يطلبون ممن يوافقهم مطاردة من ينكر عليهم تصرفهم هذا، وأن يحمل السلاح ويدفع المال لقتال المعارضين لهم، وإن كان المعارض هو صاحـب الحق والذي مع الحق، وهكذا يفعل الكفار في مدعي الإسـلام ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات تدريجيًا حتى ينسلخ المسلم من دينه ويخرج من مسمى الإسلام وهو لا يشعر[(١)]. ومما تقدم يتضح أنـه يجب على المسـلم أن يقف موقفًا صلبًا من أعداء الإسـلام والمسـلمين وألا يتنازل عن شـيء من واجبات الإسـلام مهما كانت الدوافع والأسـباب، وأن يقاطع أهل الشـرك ويتبرأ منهم ومن شركهم ويجاهدهم ويكفرهم، ويقر بإباحة دمائهم وأموالهم ما داموا على الكفر. فلا يكون المؤمن موحداً إلا بهذا وهو مقتضى كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) انظر الدرر السنية ج١ ص٦٦.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١] فهذا شأن كل مؤمن مع المؤمنين، ويقول الله تعالى عن الكفار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: ٧٣]

فلا يصح للمؤمن دين إلا بموالاة أهل التوحيد، ومعاداة أهل الضلال وبغضهم والبراءة منهم، كما تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار، وكما تبرأ نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وصحبه من كفار قريش ومن حذا حذوهم، وهذه هي الموالاة للمؤمنين، المعاداة للمشركين التي هي أصل عرى الإيمان وأوثقها.(١)

فمعاداة الكفار واجبة وإن كان فيهم أخلاق طيبة، وصفات حميدة. فمن لم يعاد الكفار ويتبرأ منهم لم يدخل في الإسلام، وإن كان يتعامل مع المسلمين معاملة حسنة ويقدم لهم دعمًا سخيًا.

فإن في قصة أبي طالب درسًا وغيره وعظة، أنه لا موالاة إلا بمعاداة فهذا الرجل قد بذل عُمُره وماله وأولاده وعشيرته في نصرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى أن مات على ذلك، وصبر على المشقة العظيمة، العداوة البالغة له من قومه، وكان يحب من أسلم وينتقص أعمال المشركين، وكان يرى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على حق وصواب كما يظهر ذلك من قوله في النونية:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا(٢)

ويقول في قصيدة أخرى:

ولقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل

---

(١) انظر الدرر السنية ج٢ ص٩٥.
(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٤٢.

حدبتُ[١] بنفس دونه وحميتُه ودافعتُ عنه بالذرى[٢] والكلاكل[٣]،[٤]

ولكنه لما لم يتبرأ من دين أبيه عبدالمطلب ويعلن عداوته لذلك، ولم يعلن موالاته لله ثم لرسوله والمؤمنين في الله، ما نفعه ذلك شيئا، وقد استغفر له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظرًا لنصرته له ودفاعه عنه، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١٣]. لو كان هناك رجل من أهل الشرق أو أهل الغرب، يحب الدين الإسلامي، وينصر المسلمين باليد والمال والسلاح، ولكنه لم يعلن دخوله في الإسلام وانضمامه إلى جماعة المسلمين، وبراءته وانفصاله وعداوته للمشركين، لم يكن مسلمًا ولم تصح موالاته من قبل المسلمين، وإنما يعامل على أساس البر والصلة بالمعروف، دون محبة القلب كمحبة أحد المسلمين، فهو وإن كان يُحَبُّ لما فيه من صفات طيبة وأخلاق كريمة، كالكرم، والأمانة، والصدق والوفاء، فإن تلك الصفات لا تطغى ولا تنسينا صفة الكفر التي هي أسوأ صفة وأقبحها في الوجود، فمثل الكفار وصفاتهم الطيبة كمثل امرأة جميلة كريمة متواضعة ولكنها مع تلك الصفات عاهر بغي، فإن تلك الصفة

(١) أي تعطفت وأشفقت عليه. انظر لسان العرب لابن منظور ج١ ص٥٨١.

(٢) الذُّرى بالضم أعلى كل شيء: وذروة السنام والرأس أشرفهما. المصدر السابق ج١ ص١٠٦٦.

(٣) الكلاكل جمع كلكة: وهو الصدر من كل شيء، وقيل هو ما بين الترقوتين: وقيل هو باطن الزور وقيل القصير الغليظ الشديد. المصدر السابق ج٣ ص٢٩٠ وانظر المعجم الوسيط ج٢ ص٨٠١.

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص:٤٢.

القبيحة تطغى على جميع صفاتها الحسنة وتذهب أثرها عند ذوي العقول السليمة والفطرة المستقيمة وتجعلهم يمقتونها ويعادونها وينظرون إليها نظرة احتقار وازدراء.[١]

إن موقف المسلم من الكفار، ليس مجرد العداء لهم، بل المطلوب منه جهادهم، والحرص على مراغمتهم، وإدخال الحزن عليهم[٢]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]. فمن جهاد الكفار السعي إلى كسر شوكتهم ومراغمتهم، وإدخال الهزيمة عليهم بكل الوسائل والأسباب المباحة، والتضييق عليهم، والوقوف في وجه مكائدهم، بكل ثبات وإصرار، وكشف أباطيلهم، وعورات نظمهم، وتعرية مفاسدهم لكل ذي عينين، حتى يحصل الإقبال على الإسلام والإدبار عن الكفر، نتيجة للفهم والوعي الصحيح. فإن لم يحصل من المسلم جهاد ومراغمة للكفار، فلا أقل من مقاطعتهم وعداوتهم، وترك تبادل الأقوال والأفعال التي لا يقصد بها تقريبهم إلى الإسلام، وإنما يقصد بها التقرب إلى دنيا الكفار وما هم فيه من كفر.

ومما تقدم نخلص إلى القول بأنه لا صحة لإسلام المسلم إلا بموالاة أهل الإسلام ومعاداة أهل الكفر، فلو والى المسلم المسلمين ولم يعاد الكافرين لم يصح إسلامه، ولو عادى الكافرين ولم يوال المسلمين لم يصح إسلامه إلا بالجمع بين موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، وحول هذا المعنى يقول الشيخ سليمان بن سحمان شعراً:

(١) انظر الدرر السنية ج١٠ ص١٠١.

(٢) انظر مدارج السالكين/ ابن القيم الجوزية ج١ ص٢٢٦.

ومـن كان ذا حـب لمـولاه إنمـا يتـم بحـب الديـن ديـن محمـد
فعـاد الـذي عـاد لديـن محمـد ووال والاه مـن كـل مهتـد
وأحبب رسـول الله أكمـل من دعا إلـى الله والتقـوى وأكمل مرشـد
وما الدين إلا الحب والبغض والولاء كذاك البـرا من كل غـاو ومعتد(١)

ويقول أيضًا:

نعم لـو صدقـت الله فيمـا زعمته لعاديـت مـن بـالله ويحـك يكفر
وواليـت أهـل الحق سـرًّا وجهرة ولمـا تهاجيهـم وللكفـر تنصـر
فمـا كل من قـد قال ما قلت مسـ لـم ولكن بأشـراط هنالـك تذكر
مباينـة الكفـار في كل موطـن بـذا جاءنا النـص الصحيح المقرر
وتكفيرهـم جهـراً وتسـفيه رأيهم وتضليلهـم فيمـا أتـوه وأظهـروا
وتصـدع بالتوحيد بيـن ظهورهم وتدعوهمـوا سـراً لـذاك وتجهر
فهذا هـو الدين الحنيفـي والهدى وملة إبراهيم لو كنت تشـعر(٢)،(٣)

التعامل مع الكفار

فهذه المسـألة تتعلق بعـداوة الكفار وعدم موالاتهـم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية، بل يستثنى من ذلك أمور:

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، يجـب أن ندعوهـم إلـى الله ولا نتركهم ونقول هـؤلاء أعـداء الله وأعداؤنا، يجـب علينا أن ندعوهـم إلى الله لعـل الله أن يهديهم، فإن لم يسـتجيبوا فإنا

(١) انظر الدرر السنية ج١ ص٢٩٤.
(٢) انظر ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان/ للشيخ سليمان بن سحمان. ص٧٩.
(٣) كتاب: القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (جمع و ترتيب إسلام محمود دربالة)

نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارى أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويتركون على ما هم عليه، لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام، أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم لكون المسلمين لا يقدرون على قتالهم ويخشى على المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلى أن يقوى المسلمون على قتالهم أو إذا طلبوا هم المهادنة ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١] فيهادنون، لكن ليس هدنة دائمة، إنما هدنة مؤقتة مؤجلة إلى أجل حسب رأي إمام المسلمين، لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم على الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أنهم يكافئون على إحسانهم قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة: ٨].

رابعًا: الوالد الكافر يجب على ولده المسلم أن يبر به، لكنه لا يطيعه في الكفر لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٤ – ١٥] الوالد له حق وإن كان كافرًا، لكن لا تحبه المحبة القلبية، بل تكافئه على تربيته لك، وأنه والد وله حق تكافئه على ذلك.

خامسًا: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن لا بأس بذلك، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعامل مع الكفار وكذلك عامل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر وهم يهود على أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح. يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة، وليس منهيًا عنها.

كذلك الاستدانة منهم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده ومات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله»، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل على المحبة والمودة في القلوب، فلا بد أن نفرق بين هذا وهذا، لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًا، وأن تكون مقاطعة نهائية. لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم، مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سادسًا: أباح الله التزوج من نساء أهل الكتاب بشرط أن يكن عفيفات في أعراضهن، وأباح الله لنا أكل ذبائحهم.

سابعًا: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثامنًا: الإحسان إلى الجيران من الكفار؛ لأن لهم حق الجوار.

تاسعًا: لا يجوز ظلمهم قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].[١]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

هذه الثلاث مسائل من المهمَّات العظيمات:

الأولى: أن يعلم المرء الغاية من خلقه، وإذا علم الغاية، أن يعلم الطريق الموصلة لإنفاذ هذه الغاية.

الثانية: ليعلم أن الطريق واحدة، وأن الله جَلَّوَعَلَا لا يرضى الشرك به، حتى بالمقربين عنده، والذين لهم المقامات العالية عنده جَلَّوَعَلَا، لا يرضى أن يشرك معه أحد.

الثالثة: ألا يكون في قلب الموحِّد؛ الذي وحَّد الله، وأطاع الرسول، وخلص من الشرك، ألا يكون في قلبه محبة للمشركين.

هذه الثلاث هي أصول الإسلام بأَحد الاعتبارات، أسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يجعلني وإياكم ممن تحققوا بها قولاً وعملاً واعتقاداً وانقياداً.[(١)]



اِعلَم أَرشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ، أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبراهِيمَ: أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ، مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُم لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وَمَعنَى يَعبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ.

اعلم أرشدك الله لطاعته

هذا كأنه بداية رسالة ثالثة لأنه مضى رسالتان: الرسالة الأولى: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر، والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

سبقت، والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة وهي ثلاثة الأصول.[(١)]

قوله اعلم أرشدك الله: هذا فيه تلطّف ثالث منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ؛ حيث دعا للمتعلم بقوله (اعلم أرشدك الله)، وهذا الذي ينبغي على المعلمين أن يكونوا متلطفين بالمتعلمين؛ لأن التلطف والتعامل معهم بأحسن ما يجد المعلم هذا يجعل قلبَ المتعلم قابلا للعلم، مُنفتحا له، مُقبلا عليه.[(٢)]

أن الحنيفية ملة إبراهيم: أن تعبد الله وحده، مخلصًا له الدِّين، وبذلك أمر الله جميع النَّاسِ، وخلقهم لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]

الذي يجب أن تعلمه وأن تعرفه أن الحنيفية ملة إبراهيم، والحنف في اللغة: الميل.[(٣)]

الحنيفية: هي الملة المائلة عن الشرك، المبينة على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

الملة: أي طريقه الديني الذي يسير عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الإخلاص: هو التنقية والمراد به أن يقصد المرء بعبادته وجه الله عَزَّوَجَلَّ والوصول إلى دار كرامته بحيث لا يعبد معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً.[(٤)]

فمعنى الحنيفية هي الملة المائلة عن الشرك إلى التوحيد، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا: أي مائلاً عن الشرك ومعرضًا عنه

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

إلـى التوحيـد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالـى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠] فالحنيـف مـن أوصاف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بمعنـى أنـه معرض عـن الشـرك ومائل عنـه بالكلية إلـى التوحيد، متوجـه بكل وجهته إلـى التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ قـال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧].

هـذه أوصـاف إبراهيـم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ العظيمة، منها أنـه كان حنيفـا، وأن ملته الحنيفيـة هـي الملـة الخالصـة لله عَزَّوَجَلَّ التي ليس فيها شـرك، وقـد أمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يتبع هذه الملة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣] وأمرنـا نحـن كذلـك أن نتبع ملـة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال تعالـى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وهـي ديـن جميع الرسـل. ولكن لكـون إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل الأنبيـاء بعد نبينا محمـد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لاقى في سـبيل الدعـوة إلى التوحيد مـن التعذيب ومن الامتحـان ما لم يلقـه غيره، فصبر على ذلك، ولكونه أبـا الأنبياء فإن الأنبياء الذيـن جـاءوا من بعده كلهم مـن ذريته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فالحنيفيـة ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، هذه ملة جميع الرسل، لكـن لمـا كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نسـبت إليه ولمن جاء بعـده، والأنبيـاء كلهم من بعـده كانوا على ملـة إبراهيم، وهي ملـة التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

ما هي هذه الملة التي أمر نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعها وأمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها، لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب الله عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألا يخل به، لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام وهو لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدا من أجل أن تسير عليها على بصيرة، وألا تخل بشيء منها.

هذه ملة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصاً له الدين. تجمع بين الأمرين: العبادة والإخلاص، فمن عبد الله ولم يخلص له الدين لم تكن عبادته شيئًا، فمن عبد الله، فصام وحج وصلى واعتمر وتصدق وزكى وفعل كثيراً من الطاعات؛ لكنه لم يخلص لله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك، إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سمعة، أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك كالدعاء لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، فإن هذا لم يكن مخلصاً في عبادته، بل هو مشرك، وليس على ملة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر، من دعاء غير الله وعبادة القبور والأضرحة والذبح لها والنذر لها والطواف بها والتبرك بها، والاستغاثة بالأموات، وغير ذلك، وهم يقولون إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التي عليها نبيهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها على بصيرة والعياذ بالله، وهذا أشد.

فملة إبراهيم لا تقبل الشرك بأي وجه من الوجوه، ومن خلط عمله بشرك فليس على ملة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن

تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد الله مخلصاً له الدين، لا يكون في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحنيفية التي أعرضت عن الشرك بالكلية، وأقبلت على التوحيد بكليتها، أن تعبد الله مخلصا له الدين.(١)

ملة إبراهيم هي التوحيد؛ لأنه هو الذي تركه فيمن بعده؛ حيث قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، هذه الكلمة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ اشتملت على نفي في الشق الأول، وعلى إثبات في الشق الثاني، ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ البراءة نفيٌ، ثم أثبت فقال ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فتبرأ من المعبودات المختلفة، وأثبت أنه عابد للذي فطره وحده، وهذا هو معنى كلمة التوحيد، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا بعدها ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٨]، يعني لعلهم يرجعون إليها، وعقب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم العرب، أليس كذلك؟ ومنهم أتباع الأنبياء، فهو أبو الأنبياء، ومعنى ذلك، أنه أبٌ لأقوام الأنبياء، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إليها، وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله؛ لأن التوحيد هو ملة إبراهيم، لا إله إلا الله معناها ما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، فـ(لا إله) مشتملة على البراءة من كل إله عُبد، و(إلا الله) إثبات للعبادة؛ إثبات لعبادة الله وحده دونما سواه، ولهذا يقول العلماء (لا إله إلا الله) معناها لا معبود حقٌّ أو بحق إلا الله. معنى ذلك أن كل المعبودات إنما عُبدت بغير الحق، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٦٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ولكونه جَلَّ وَعَلَا هو الحق كانت عبادته وحده دون ما سواه هي الحق، قال (لا إله)، لا إله بحق، لا معبود بحق، لكن ثَم معبودات بغير الحق، ثَمَّ معبودات بالباطل، ثمَّ معبودات بالبغي، بالظلم والعدوان، لكن المعبود بحق يُنفى عن جميع الآلهة إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه هو وحده المعبود بحق. هذه الكلمة هي التي ألقاها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عقبه، وهذا مراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بما ذكر.[1]

وبذلك أمر الله جميع النَّاسِ، وخلقهم لها

أمر الله جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كل الناس من عهد آدم إلى آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم الله بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة ٢١-٢٢] أنه لا ند له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهي عن الشرك الأكبر وعن الشرك الأصغر، أمر الله بذلك جميع الناس من أولهم إلى آخرهم.

قوله: وخلقهم لها: أي لعبادته وحده لا شريك له سبحانه، خلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وأمروا بذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] هذا معنى قول الشيخ: خلقهم لها وأمرهم بها، جمع الأمرين في قوله: وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾. فقولـه تعالـى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ الله هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلفهم بعبادتـه وحده لا شـريك له، خصهم بالأمـر بعبادتـه؛ لأن الله أعطاهم عقولاً، وأعطاهم ما يميزون به بين الضار والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلها لمصالحهم ومنافعهم، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣] كل مسخر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به على ما خلقوا من أجله، وهو عبادة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾.

والجـن عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفـون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخلقة.

أمـا من ناحيـة الأوامر والنواهـي فهم مثل بنـي آدم مأمـورون ومنهيون، والجـن عالـم من عالم الغيـب لا نراهم لكنهم موجـودون، والإنس هم بنو آدم، سـموا بالإنـس لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعـون ويتآلفون، والجن سـموا جنا من الاجتنان وهو الاختفاء، ومنـه الجنين في البطن، لأنه مختف، وجنه الليل إذا سـتره، والمجن الذي يتخذ دون السـهام، فالاجتنان والجنان هو الشيء الخفي المستتر، فالجن مستترون عنا لا نراهم.

وهم عالم موجود من أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ورسوله ولإجماع المسـلمين، فقد بين الله عَزَّوَجَلَّ أنه لم يخلق الجن والإنس لشـيء إلا لعبادته، فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلة، أو يتكثر بهم مـن قلة، لأنه غني عن العالمين، ومـا خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه أو يكتسبوا له الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٧].

فالله ليس بحاجة إلى الخلق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلى عبادتهم، وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما الله جَلَّ وَعَلَا لا تضره طاعة المطيع ولا معصية العاصي، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨] الله لا تضره معصية العاصي ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلى الخلق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.(١)

أمر الله جميع الناس وخلقهم لها؛ فأمرهم بالتوحيد والإخلاص، وخلقهم ليعبدوه، وأمرهم بأن يعبدوه وحده في صلاتهم، وصومهم، ودعائهم، وخوفهم، ورجائهم، وذبحهم، ونذرهم، وغير ذلك من أنواع العبادة، كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]. هذه العبادة هي التي خلق لها الناس، خلق لها الثقلان وهي توحيد الله، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]: يعني يوحدوني في العبادة، ويخصوني بها، بفعل الأوامر، وترك النواهي إلى غير ذلك من الآيات.(٢)

ومعنى «يَعْبُدُوا»: يوحدون

أي يعبدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، والعبادة لا تسمى عبادة إلا مع

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

التوحيد، فإذا دخلها الشرك أفسدها، ولم تكن عبادة، فمن عبد مع الله غيره، فإنه لا يُعد عابداً لله.(١)

يوحدون: أي يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنى واحد. التوحيد يفسر بالعبادة، والعبادة تفسر بالتوحيد، ومعناهما واحد.(٢)



وَأَعظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوحِيدُ، وَهُوَ: إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ. وَأَعظَمُ مَا نَهَى عَنه الشِّركُ، وَهُوَ: دَعوَةُ غيرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٥٣].

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو: إفراد الله بالعبادة

أعظم دعوة الأنبياء والمرسلين من إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بل من نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، أعظم ما يُدعا إليه بالأمر هو الأمر بتوحيد الله جَلَّ وَعَلَا، وأعظم ما ينهى عنه ويؤمر الناس بتركه هو الشرك، فأعظم ما أمر به التوحيد، وأعظم ما نهي عنه الشرك، لما؟ لأن التوحيد هو حق الله جَلَّ وَعَلَا، ومن أجله بُعثت الرسل، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، فالغاية من بعث الرسل أن تُبيِّن للناس، وأن تقول للناس أعبدوا الله وحده دون ما سواه، هذا الأمر، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ يعني أتركوا الشرك ومظاهر الشرك.

إذاً أعظم مأمور به هو التوحيد، أعظم ما دعا إليه الرسل والأنبياء من

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نبينا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أعظم ما دُعي إليه من المأمورات التوحيد، وأعظم ما نُهي عنه من المنهيات هو الشرك، لما؟ لأن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وحده، فصار الأمر بالتوحيد هو الأمر لهذا المخلوق بأن يَعلم وأن يُنفِذَ غاية الله جَلَّ وَعَلَا من خلق هذا المخلوق. والنهي عن الشرك معناه النهي عن أن يأخذ هذا المخلوق بطريق أو بفعل يخالف الغاية بفعله، وهذا ولا شك كما ترى يقود إلى فهم التوحيد، وإلى فهم حق الله جَلَّ وَعَلَا، وفهم دعوة الحق بأعظم ما يكون الفهم؛ لأنك تنظر إلى أن إنفاذ المرء ما خُلق من أجله هو أعظم ما يُدعا إليه، ونَهيُ المرء عما يصده عما خُلق من أجله هذا أعظم ما يُنهى عنه، ولهذا كانت دعوة المصلحين، ودعوات المجددين على مر العصور بهذه الأمة هي في الدعوة إلى التوحيد ولوازمه والنهي عن الشرك وذرائعه.(١)

ما الدليل على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٣٦].

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمى آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق حق الله سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هذا هو الحق الثالث، وذوو القربى هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعمات، هؤلاء هم ذوو القربى، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل من مات أبوه وهو صغير ولم

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يبلغ وصار بحاجة إلى من يسد مسد أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا والقيام بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أب يحميه وينفق عليه ويدافع عنه، فهو بحاجة إلى من يساعده، لأنه فقد أباه وعائله، وله حق في الإسلام.

المهم أن الله بدأها بحقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لم يقتصر على قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمى عبادة إلا إذا كانت خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، إن كان معها شرك فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك، إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبداً.

هذا دليل على قول الشيخ: أعظم ما أمر الله به التوحيد، حيث إن الله بدأ به في آيات كثيرة منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد، وهذا يدل على أنه أعظم ما أمر الله به.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذا دليل على ما يأتي أن أعظم ما نهى الله عنه الشرك، إذا كان أعظم ما أمر الله به التوحيد فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلم والتعليم، وأن يداوم على تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي أعظم ما أمر الله به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء، أو لا يؤبه بها، لأن الآن هناك دعاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، فهناك أناس ابتلوا بهذا، ولأن الإخلال بها إخلال بالدين كله فيجب العناية بها. وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا؛ التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، لأن الله

قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال أهل التفسير: يعبدون أي يوحدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذًا فالتوحيد هو إفراد الله بالعبادة وليس، هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، لأن هذا موجود في الفطر، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدا خلق السماوات والأرض غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يوجد أحد في العالم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدا خلق بشرا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرا يخلق بشرا إنسانا يمشي على الأرض ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]. توحيد الربوبية موجود في الفطر والعقول لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة.

ولهذا قال الشيخ: «التوحيد هو إفراد الله بالعبادة»، وليس هو إفراد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.(١)

التوحيد لغة مصدر وحد يوحد، أي جعل الشيء واحداً وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، نفي الحكم عما سوى الموحد وإثباته له فمثلاً نقول: إنه لا يتم للإنسان التوحيد حتى يشهد ألا إله إلا الله فينفي الألوهية عما سوى الله تعالى ويثبتها لله وحده.

وفي الاصطلاح عرفه المؤلف بقوله: «التوحيد هو إفراد الله بالعبادة» أي

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئًا، لا تشرك به نبيًا مرسلاً، ولا ملكًا مقربًا ولا رئيسًا ولا ملكًا ولا أحداً من الخلق، بل تفرده وحده بالعبادة محبة وتعظيمًا، ورغبة ورهبة، ومراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التوحيد الذي بعثت الرسل لتحقيقه لأنه هو الذي حصل به الإخلال من أقوامهم.

وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو: «إفراد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بما يختص به».

وأكثر ما يعالج الرسل أقوامهم على هذا النوع من التوحيد. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٢٩]. فالعبادة لا تصح إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أخل بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فلو فرض أن رجلاً يقر أ إقراراً كاملاً بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ولكنه يذهب إلى القبر فيعبد صاحبه أو ينذر له قربانًا يتقرب به إليه فإنه مشرك كافر خالد في النار قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢] وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله لأنه الأصل الذي ينبني عليه الدين كله، ولهذا بدأ به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الدعوة إلى الله، وأمر من أرسله للدعوة أن يبدأ به.(١)

وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو: دعوة غيره معه، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياء هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهى الله عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنا هو أعظم المحرمات؛ ولذلك يركزون على النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

فساد الأخلاق، ولكن لا يهتمون بأمر الشرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، فهذا من الجهل العظيم بشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأعظم ما نهى الله عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى آخر الآيات، وهذه الآيات تسمى بالوصايا العشر، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

هذه المحرمات بدأها الله بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فدل على أن الشرك هو أعظم ما نهى الله عنه.

وفي سورة الإسراء قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]. بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩]. فدل على أنه أعظم ما نهى الله عنه، هذا يدل على قول الشيخ: وأعظم ما نهى الله عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أي الذنب أعظم قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قيل ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك».(١)

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦) مِن حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأنزل الله تصديق ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨﴾ [الفرقان: ٦٨]. فبدأ بالشرك في قوله: أن تجعل لله ندا أي شريكًا وهو خلقك، وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات! قيل وما هن يا رسول الله؟! قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق» إلى آخر الحديث.(١)

بدأها بالشرك، فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب.(٢)

وفي الحديث الآخر يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. قلنا: بلى يا رسول الله! قال: الإشراك بالله». الحديث متفق عليه.(٣)

ولذلك المشرك لا يدخل الجنة أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

المشرك لا يغفر الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. فدل ذلك على تحريم الجنة على المشرك، وأيضًا أن الله لا يغفر له، ودل هذا على أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الذنوب ما عدا الشرك قابلة للمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فالزنا والسرقة وشرب الخمر والربا كله داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي وإن كان عنده كبائر دون الشرك فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلى الجنة، إما أن يغفر الله له من أول وهلة ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه ويدخل الجنة، المؤمن مهما كان منه من الفسق والمعاصي التي دون الشرك فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله والعياذ بالله، فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦] كل هذا يدل على أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب فإنه يجب على العلماء والمتعلمين النهي عنه والتحذير منه، وألا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة كما جاهدهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] فيجب التحذير من الشرك وبيانه للناس حتى يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير الله، وهم يدعون الإسلام، ولا أحد ينهي ولا أحد يحذر، الأمر خطير جداً، هناك ناس يتجهون إلى النهي عن الربا والزنا وفساد الأخلاق، هذه أمور نعم محرمة وفساد، لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدعون الإسلام؟

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون، بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟

الواجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.(١)

والشرك: هو دعوة غير الله مع الله. تدعوه أو تخافه أو ترجوه أو تذبح له أو تنذر أو غير ذلك من أنواع العبادة. هذا الشرك الأكبر سواء كان المدعو نبيًا أو جنيًا، أو شجراً أو حجراً أو غير ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فـ﴿شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق النهي، فتعم كل شيء.(٢) فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهذا هو أعظم ما نهى الله عنه، هذا هو الشرك.(٣)



> **فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنسَانِ مَعرِفَتُهَا؟**
>
> **فَقُل: مَعرِفَةُ العَبدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ محمداً** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها

هذه هي الأصول التي سميت بها هذه الرسالة (الأصول الثلاثة)، وهي أصول العلم الشرعي، أو أصول المعرفة الصحيحة.(٤)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

هـذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهي التي يسأل عنها العبد في قبره.(١)

الأصـول: جمع أصل، والأصل ما يبنى عليه غيـره، والفرع ما يبنى على غيره، فهذه سـميت بالأصول، لأنها يبنى عليها غيرها من أمر الدين؛ فلذلك سـميت أصـولا لأنهـا يبنى عليهـا أمـر الديـن. وكل الدين يـدور على هذه الأصول الثلاثة.(٢)

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟ لأنها هي الأساسـات لدين الإسـلام، ولأنهـا هـي المسـائل التـي يسـأل عنها العبـد حيـن يوضع في قـبره، لأن «العبد إذا وضع في قبره وسـوي عليه التراب وانصرف عنه الناس راجعين إلـى أهلهـم جـاءه ملـكان في القبر، فتعـاد روحه في جسـده، ويحيـا حياة برزخية، ليسـت حياة مثل حياة الدنيا، حياة الله أعلم بها، فيجلسـانه في قبره فيقـولان لـه: من ربك، وما دينـك، ومن نبيك؟ فالمؤمن يقـول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب الله فدريت وعرفت، فينادي مناد: أن صدق عبدي، فأفرشـوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة، ويوسع له في قبره مد البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلى مسكنه في الجنة، فيقول: يا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

وأما المرتاب الذي عاش على الريبة والشك وعدم اليقين، وإن كان يدعي الإسلام، «إذا كان عنده شكوك وعنده ريب في دين الله كالمنافق فإنه يتلجلج،

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فإذا قالوا له: من ربك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل: من نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته».

يعني أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان، هذا المنافق والعياذ بالله، هذا المنافق الذي أظهر الإسلام وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي الله، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر والعياذ بالله!! يقول: ديني الإسلام وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!! يقول: نبيي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه، إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيقال له: لا دريت ولا تليت، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح بها صيحة لو سمعه الثقلان لصعقوا، يسمعها كل شيء إلا الإنسان، لو سمعه لصعق، أي لمات من الهول، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، ويفتح له باب إلى النار، فيأتيه من سمومها وحرها، فيقول: يا رب لا تقم الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر، والعياذ بالله، لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي مناد: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابا من النار، والعياذ بالله. فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلمها وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلم فقط، بل نتعلمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا على قيد الحياة، لعل الله أن يثبتنا عند السؤال في القبر، يقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة، ولهذا ركز عليها الشيخ في هذه

الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعن فيها ونعتقدها ونعمل بها، لعل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.[(١)]

الأصل الأول: معرفة العبد ربه.[(٢)]؛ يعني معرفة العبد معبوده؛ لأن الربوبية في هذا المقام يُراد بها العبودية، لما؟ لأن الابتلاء للأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الربوبية، ألم ترَ أن الله جَلَّ وَعَلَا قال؟ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هذه مقتضيات الربوبية ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

المشركون في كل زمان لم يكونوا ينازعون في تَوَحُّدِ الله جَلَّ وَعَلَا في ربوبيته، ولهذا فسر العلماء سؤال القبر من ربك؟ بمن معبودك؟ لما؟ لأن الابتلاء لم يقع في الربوبية، وقد سئل الشيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن الفرق بين الربوبية والألوهية في بعض النصوص في أحد الأسئلة التي وجهت إليه فكان من جوابه أن قال: هذه مسألة عظيمة، وذلك أن الربوبية إذا أطلقت، أو إذا أفردت فإنه يدخل فيها الألوهية؛ لأن الربوبية تستلزم الألوهية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، والألوهية تتضمن الربوبية. لأن الموحد لله جَلَّ وَعَلَا في ألوهيته هو ضمنا مقر بأن الله جَلَّ وَعَلَا هو واحد في ربوبيته، ومن أيقن أن الله جَلَّ وَعَلَا واحد في ربوبيته استلزم ذلك أن يكون مقرا بأن الله جَلَّ وَعَلَا واحد في استحقاق العبادة، ولهذا تجد في القرآن أكثر الآيات فيها إلزام المشركين بما أقروا به ألا وهو توحيد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلهية، من مثل قول الله جَلَّ وَعَلَا في سورة الزمر ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

ٱللَّهُۚ﴾[١] هـذا توحيد الربوبية قال بعدها ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر:٣٨]، قـال ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم﴾ والفاء هنا رتبت ما بعدها على ما قبلها؛ وما قبلها هو توحيد الربوبية وما بعدها هو توحيد الإلهية، ولهذا في القرآن يكثر أن يحتج على المشـركين بإقرارهـم بتوحيـد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيـد الإلهية، لهذا قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمـران:٨٠]، الـمعنى بـ(أَربَابًـا) أي معبودين وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، يعني معبوديـن لأن عدي ابن حاتم لما قال للنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنا لـم نعبدهم. ففهـم معنى الربوبيـة في الآية معنى العبادة، وهذا هـو الذي يفهمه من يعرف اللسـان العربي، قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما هو معـروف: «ألم يحلوا لكم الحـرام فأحللتموه، ألم يحرموا عليكم الحلال فحرمتموه» قال: بلى. فقال: «فتلك عبادتهم».

إذاً الربوبيـة تطلـق ويراد منها العبودية في بعض المواضع، تارة بالاسـتلزام، وتارة بالقصد. وبعض علمائنا قال إن لفظ الألوهية والربوبية يمكن أن يُدخل في الألفاظ التي يقال إنها إذا اجتمعت تفرقت وإذا تفرقت اجتمعت، وهذا وجيه.[٢]

الأصل الثاني: معرفة دين الإسـلام الذي بعث الله به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بما يشتمل عليه من عقائد وأحكام.

(١) وهي أيضا موجودة في سورة: لقمان: ٢٥.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الأصل الثالث: معرفة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه رسول من عند الله إلى الناس كافة جاء بالهدي ودين الحق.[١]

وتحصل بدراسة حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما كان عليه من العبادة، والأخلاق، والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والجهاد في سبيله وغير ذلك من جوانب حياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا ينبغي لكل إنسان يريد أن يزداد معرفة بنبيه وإيمانًا به أن يطالع من سيرته ما تيسر في حربه وسلمه، وشدته ورخائه وجميع أحواله نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلنا من المتبعين لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باطنًا وظاهراً، وأن يتوفانا على ذلك انه وليه والقادر عليه.[٢]

هذه الأصول الثلاثة هي التي يُسأل عنها الإنسان في قبره، وهي فتنة القبر.[٣]

فهذا ابتداء من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، لبيان المقصود من تأليف هذه الرسالة، وما قبله من المهمات التي هي موطئات لهذا المقصود؛ من بيان الواجبات الأربع، ثم الواجبات الثلاث، ثم ما يتصل بذلك.

هذه الرسالة صنفت لبيان الأصول الثلاثة؛ ألا وهي مسائل القبر؛ من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ والجواب عليها في هذه الرسالة، بل إن هذه الرسالة من هذا الموضع إلى آخرها جواب على هذه الأسئلة الثلاث، فمن كان عالما بما في هذه الرسالة من بيان تلك الأصول العظام، كان حَرِيًّا أن يُثبت عند السؤال، ذلك لأنها قُرنت بأدلتها، وقد جاء في الحديث الذي في الصحيح أن من المسؤولين في القبر من يقول: ها، ها لا أدري، سمعت

---

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

الناس يقولون شيئًا فقلته. استدل العلماء بقول هذا المفتون في قبره «سمعت الناس يقولون شـيئًا» فقلته على أن التقليد لا يصلح في جواب هذه المسائل الثلاث؛ «جواب من ربك؟» يعني من معبودك؟ جواب «ما دينك؟»، جواب «من نبيك؟» ولهذا يذكر الشـيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بعد كل مسـألة مما سيأتي، يذكـر الدليل مـن القرآن، وقد بينا في أول هذا الشـرح؛ أن المؤمن يخرج من التقليد، ويكون مستدلاً بما يعلمه، ويعتقده من هذه المسائل بالحق، إذا علم الدليـل عليهـا مرة في عمـره، ثم اعتقد مـا دل عليه الدليل، فإن اسـتقام على ذلـك حتى موتـه، فإنه يكون مؤمنـا؛ يعني مات على الإيمان؛ لأن اسـتمرار اسـتحضار الدليل والاسـتدلال لا يُشـترط، لكن الذي هـو واجب أن يكون العبـد في معرفتـه للحق في جواب هذه المسـائل الثـلاث، أن يكون عن دليل واسـتدلال ولو لِمـرّة في عمره، ولهـذا يعلم الصغار والأطفال عندنا رسـالة الأصول الثلاثة الأخرى التي فيها جواب أيضـًا مع بعض الاسـتدلال بأقصر مما هنا، يُعلَّمون جواب هذه المسائل الثلاث، حتى إذا بلغ الغلام أو الجارية، إذا هو قد عرف عن دليل واستدلال.(١)

ويمكن أن يقال عن هذه الأصول الثلاثة: معرفة الرسول والمُرسِل والرسالة، فالله هو الـمُرسِل، ومحمد رسوله، ودين الإسلام هو الرسالة التي جاء بها.

وقد ذكر الشـيخ هذه الأصول مجملة، وسـيتكلم عنهـا بالتفصيل واحداً واحداً بطريقة السـؤال والجواب، وطريقة السـؤال والجواب طريقة تعليمية جيدة ومفيدة.(٢)

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

الأَصلُ الأَوَّلُ

مَعرِفَةُ الرَّبِّ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَن رَبُّكَ؟ فَقُل: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِين بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعبُودِي لَيسَ لِي مَعبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]. **وَكُلُّ مَن سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَمِ.**

الأصل الأول: فإذا قيل لك: من ربك؟

لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يبينها مفصلة واحداً واحداً بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات الله في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنى العقائد على أدلة الكتاب والسنة، وعلى النظر في آيات الله الكونية من أجل أن ترسخ وتثبت في القلب، وتزول جميع الشبه.

وأما العقائد المبنية على الشبهات وعلى الشكوك وعلى أقوال الناس والتقليد الأعمى فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عرضة للنقض، وعرضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المسلمة. ولهذا أكثر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سياق الأدلة على هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

فإذا قيل لك: من ربك؟: هذا سؤال وارد ستسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلا بد أن تعرف ربك عَزَّوَجَلَّ وأن تجيب بجواب صحيح مبني على

اليقين والبرهان، **فقل: ربي الله** هذا هو الجواب **الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه**: هذا استدلال عقلي.(١)

التربية هي عبارة عن الرعاية التي يكون بها تقويم المربى، ويشعر كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الرب مأخوذ من التربية لأنه قال: «الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه» فكل العالمين قد رباهم الله بنعمه وأعدهم لما خلقوا له، وأمدهم برزقه قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في محاورة موسى وفرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٤٩-٥٠]. فكل أحد من العالمين قد رباه الله عَزَّوَجَلَّ بنعمه. ونعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده كثيرة لا يمكن حصرها قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] فالله هو الذي خلقك وأعدك، وأمدك ورزقك فهو وحده المستحق للعبادة.(٢)

فالرب جَلَّ وَعَلَا هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورا في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتى في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم الجنين في بطن أمه ويكبر، لأنه يصل إليه الرزق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويصل إليه الغذاء.

ثم تنفخ فيه الروح فيتحرك ويحيا بإذن الله، هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج فإن الله سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدر عليه لبن أمه، فيتغذى إلى أن يأكل الطعام ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئا فشيئا، عقله وسمعه

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وبصره، ينمو شيئا فشيئا حتى يبلغ الحلم، ثم ينمو وينمو حتى يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة. فمن الذي يغذيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلى أن يموت، من الذي يغذيه، ثم من الذي يسوغ هذا الطعام وهذا الشراب في جسمه، فيصل إلى كل خلية وعضلة، وإلى كل مكان في جسمه، من الذي يشهي إليه الطعام والشراب، من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره، من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان، أليس هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ هذا هو الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يربي، الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمته.

كل ما على وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر والبحر، من أكبر مخلوق إلى أصغر مخلوق، في البر والبحر، كلها تتغذى بنعمه ورزقه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت:٦٠]. هذا هو الرب سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] أما غير الله جَلَّ وَعَلَا فلا يملك من ذلك شيئًا، لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا، وإنما هو مرزوق، مخلوق مثلك.(١)

لفظ الربوبية فيه معنى التربية، رباه تربية ومعنى التربية تدريج المربى في مصاعد الكمال، كل كمال بحسبه، وأعظم أنواع التربية التي ربى بها الله جَلَّ وَعَلَا الناس أن بعث لهم الرسل يعلمونهم، ويرشدونهم ما يقربهم إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وهذه هي أعظم نعمة، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨]، فأعظم النعم المسداة إرسال الرسل، ولهذا كان

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

من أنواع التربية التي ربى بها الله جَلَّ وَعَلَا العالمين، ربى بها الله جَلَّ وَعَلَا الناس، أن بعث لهم رسلا يبشرون وينذرون، وهناك أنواع كثيرة من التربية؛ تربية الأجسام، تربية الغرائز، تربية الفكر، تربية العقل، كل هذا قد مَنَّ الله جَلَّ وَعَلَا على ابن آدم به، وكذلك إذا نظرت إلى أوسع من ذلك من خلق الله جَلَّ وَعَلَا الواسع، والعالمون الذين هم كل ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا، فتجد أن معاني الربوبية والتربية بالنعم والتربية في تدريجها في مدارج الكمال بما يناسبها، والله جَلَّ وَعَلَا أعلم بما يَصلح ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وجدت أن معاني الربوبية في هذا المعنى الذي هو التربية ظاهر جدا، أيضًا الربوبية لها معنى آخر، وهو الذي سلف من معنى توحيد الربوبية؛ يعني اعتقاد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الخالق لهذا الخلق وحده، وهو الرزّاق وحده، وهو الذي يدبر الأمر، وهو القاهر، وهو ذو الملك، إلى آخر معاني الربوبية.[١]

قوله: **وهو معبودي**: الرب الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم أيضًا نبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول ربي الله الذي رباني بنعمه.

هذا لا يكفي، لا بد أن تعترف له بالعبودية، وأن تخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك، فالموحد يقر بربوبية الله عَزَّوَجَلَّ وبعبوديته وحده لا شريك له، والمشرك يقر بربوبية الله، ولكنه مشرك في عبادته، يشرك معه غيره في عبادته، يشرك معه من لا يخلق ولا يرزق ولا يملك شيئًا، هذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك؛ الموحد يقول: ربي الله، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه، أما المشرك يقول: ربي الله؛ لكن العبادة عنده ليست

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

خاصة بالله، فيعبد مع الله الأشجار والأحجار والأولياء والصالحين والقبور، فلذلك صار مشركًا، ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

وهو معبودي: أي الإله الذي أعبده.

وقوله: **ليس لي معبود سواه:** لا من الملائكة ولا من الرسل ولا من الصالحين ولا من الأشجار والأحجار ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].(١)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ استدل الشيخ بهذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ معنى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كل حمدٍ، لأن الألف واللام هنا للاستغراق؛ استغراق أنواع الحمد، وكل حمدٍ موجود، أو وجد، أو يوجد، والحمد معناه الثناء بصفات الكمال، فهذا الحمد وهو الثناء بصفات الكمال لله، واللام هنا للاستحقاق يعني مستحَقًّا لله جَلَّ وَعَلَا، الحمد لله كل أنواع الحمد وجميع أنواع المحامد مستحقة لله، لأن اللام هنا لام الاستحقاق.

اللام تارة تكون: للملك وهذا إذا كان ما قبلها من الأعيان.

وتارة تكون للاستحقاق، وهي إذا كان ما قبلها من المعاني.

إذا قلت الدار لفلان، الدار عين، فتكون اللام لفلان يعني ملك. إذا كان ما قبل اللام معنى صارت اللام للاستحقاق، تقول الفخر لفلان يعني الفخر يستحقه فلان. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الحمد معنى لهذا صارت اللام بعده

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

للاستحقاق، فكل حمد مستحق لله، الإله الذي لا يُعبد بحق إلا هو هذا الإله نعته أنه رب العالمين.(١)

والله: معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وهذا الاسم لا يسمى به غيره سبحانه، لا أحد تسمى بالله، حتى فرعون ما قال أنا الله، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاص بالله، لا أحد يتسمى به أبدا، ولا أحد يجرؤ أن يقول أنا الله.(٢)

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ جمع عالم، والعالم اسم لأجناس ما يُعلم، وهو كل ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: **(وكل من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم)** عالم الإنسان، عالم الطير، عالم النبات، عالم الملائكة، عالم الجن، عالم السماوات، عالم الأراضين، عالم الماء، إلى آخره، **(كل ما سوى الله** جَلَّ وَعَلَا **عالم وأنا واحد من ذلك العالم)** والعالمون جمع عالم، والعالم كل ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا من الأجناس المختلفة.(٣)

ثم بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه الاستدلال بهذه الآية.

فقوله: وكل ما سوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم: فيكون الله ربي؛ لأن الله رب العالمين، وأنا واحد من العالمين، فيكون الله ربي، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي رب غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل على ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ وما دام أنه رب

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

العالمين فهو المستحق للعبادة، وهذا يبطل عبادة غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]. وهذا يفيد الحصر، لأن تقديم المعمول إياك وتأخير العامل نعبد يدل على الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك، لأن نعبد هذا إثبات فقط، لكن إياك نعبد يتضمن النفي والإثبات، أي لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصح إلا مع النفي والإثبات، وهو معنى لا إله إلا الله، فيها نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوى الله، وإثباتها لله عَزَّوَجَلَّ.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفتَ رَبَّكَ؟

فَقُل: بِآيَاتِهِ وَمَخلُوقَاتِهِ، وَمِن آيَاتِهِ: اللَّيلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمسُ، وَالقَمَرُ، وَمِن مَخلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَمَا بَينَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧]. **وَقَولُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

أنت قلت: الله ربي، أو ربي الله الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل على أن الله ربك الذي رباك بنعمه؟ جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، **فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟** لأن من ادعى شيئا فلا بد أن يقيم الدليل على دعواه:

والدعوى إذا لم يقيموا عليها بينات أهلها أدعياء

لا بد لكل مدع أن يقيم الدليل على دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي الله الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟ فقل: الدليل **آياته ومخلوقاته**.

الآيات: جمع آية، والآية لغة: العلامة على الشيء، والدلالة على الشيء، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث»(١) أي: علامته.

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: بآياته: أي العلامات والدلالات الدالة عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.[١]

وآيات الله تعالى نوعان: كونية وشرعية، فالكونية هي المخلوقات، والشرعية هي الوحي الذي أنزله الله على رسله، وعلى هذا يكون قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «بآياته ومخلوقاته» من باب العطف الخاص على العام إذا فسرنا الآيات بأنها الآيات الكونية والشرعية. وعلى كل فالله عَزَّوَجَلَّ يعرف بآياته الكونية وهي المخلوقات العظيمة وما فيها من عجائب الصنعة وبالغ الحكمة، وكذلك يعرف بآياته الشرعية وما فيها من العدل، والاشتمال على المصالح، ودفع المفاسد.

وفي كل شيء له آية … تدل على أنه واحد[٢]

معرفة الله تكون بأسباب

منها النظر والتفكر في مخلوقاته عَزَّوَجَلَّ فإن ذلك يؤدي إلى معرفته ومعرفة عظيم سلطانه وتمام قدرته، وحكمته، ورحمته قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يونس: ٦]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾. [البقرة: ١٦٤].(١)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾

يعني مما يدل عليه دلالة واضحة ظاهرة بينة جلية الليل والنهار والشمس والقمر، فإن المتأمل إذا تأمل الليل والنهار، وجد هذا يدخل في هذا، وذاك يدخل في ذاك، وهذا يطول وذاك يقصر، علم أن الليل من حيث كونه ليلا، والنهار من حيث كونه نهارا، أنها أشياء لا يمكن أن تأتي بنفسها، بل هي مفعول بها، ظاهر الليل ما هو؟ ذهاب الضوء. والنهار ما هو؟ مجيء الضوء. الشمس أتت بضيائها فصار نهارا، لما ذهبت الشمس أتى القمر فصار ليل، هذا لا شك يدلّ على أن هذه الأشياء مفعول بها، وإذا كانت مفعولاً بها، فمن الذي فعلها؟ هذا السؤال، الجواب عليه سهل ميسور لأكثر الناظرين، بل لكل ناظر، ألا أن هذه تدل على أنها محدثة، ولابد لها من محدث، وأن محدثها هو الذي خلقها وسيرها على هذا النحو الدقيق العجيب، وهو رب العالمين، لهذا قال في الآية الأخرى آية الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]، يغشي الليل يجعل الليل غشاء للنهار، يطلبه؛ هذا يذهب وهذا يطلب الآخر، يجيء مرة يأخذ الليل من النهار، ويجذبه جذبا ويطلبه طلبا حاثا، ومرة النهار يأخذ ويطلب من الليل طلبا حاثا، قال يُغشي من المُغشِي والمُغشِّي؟ هو الله جَلَّوَعَلَا؛ ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

ﭐلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]، فذكر الربوبية في العالمين بعد ذكر هذه الأصناف من الآيات والمخلوقات.(١)

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾. هذا دليل على ربوبيته وإلهيته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الشمس والقمر: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما قال الله تعالى، والقمر نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس، ومن مصالحهما أيضًا إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفى القمر كذلك، القمر أيضًا فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه أيضًا من معرفة الحساب، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ففي الأهلة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال، آجال الديون وآجال العدد للنساء، ومواقيت العبادات والصيام والحج، كلها تعرف بالحساب المبني على هذين النيرين الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته السماوات السبع وَالأَرَضُونَ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَمَا بَينَهُمَا

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ [الملك: ٣]. بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلى السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

والأرضين سبع كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السماوات السبع والأرضين لها سكان وعمار، ما في السماوات من الكواكب والأفلاك الشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدواب باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار، هذه من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآيات الكونية التي ترى وتشاهد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ﴾: يعني من علاماته الدالة على الربوبية وقدرته واستحقاقه للعبادة دون سواه. الليل الذي يظلم والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آن واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آن واحد؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لو اجتمع الخلق على أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءا محدوداً من الأرض.

أما الشمس والقمر فهم يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان والشمس والقمر كذلك.

قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر، ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم من يعبد القمر والكواكب، مثل قوم إبراهيم، يبنون لها هياكل على صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه وضع الجبهة على الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».[1]

فأعظم أنواع العبادة السجود على الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعز شيء عندك وضعته لله على الأرض تعبدا لله وتذللا بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا لله.

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحق، فلا يجوز السجود للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مدبرة متصرف فيها، وهل تسجد لمخلوق مثلك عاجز مثلك، هذا لا يجوز، أين ذهبت العقول؟!.

السجود إنما يستحقه الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حق لله عَزَّوَجَلَّ وليس حقًا للمخلوق مهما كان، هذا المخلوق من العظم والكبر فإنه مخلوق ضعيف مدبر متصرف فيه ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

فالواجب ألا نعبد إلا الله، فإذا سجدتم له وسجدتم لغيره فإنكم لا تكونون عابدين لله العبادة الصحيحة، بل تعبدونه مع الشرك والشرك يفسد العبادة.[2]

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَقولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

هـذا هو البرهان على ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ أنه خلق السماوات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ذلك، بل هو المنفرد بخلقه ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هـذا وقال: ما خلق الله السماوات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الـذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تتلى ليلاً ونهاراً؟ ولا أحد عارض فيها، ولا يستطيع أن يعارض أبداً.(١)

فجميع هذه الكائنات التي ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن الله أوجدها وخلقها بقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومنها خلق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعى هذا ولا يستطيع أن يدعي.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

هذه الأشياء ما أوجدت نفسها، أو أوجدها غيرها من المخلوقات، أبداً ما أحد خلق شجرة، ما أحد خلق بعوضة أو ذباباً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فهذا الخلق يدل على الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا لما قيل لأعرابي على البديهة بم عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير.

إذا رأيت أثر قدم على الأرض أما يدلك هذا على أن أحدا مشى على هذه الأرض، إذا رأيت بعر بعير، ألا يدلك هذا على أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير، البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.(١)

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغشي الليل بالنهار، ويغطي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئا يغطيه الليل فيصبح مظلما، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار، وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من كمال قدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يفتر هذا عن هذا، والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكل منهما يجري ويدور على الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قراراً، أي قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها، لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدعون المعرفة يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن ... ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨]. وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان الله!

﴿وَٱلنُّجُومَ﴾: هي الكواكب، ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾: مسخرات في الجريان والدوران دائما لا يفترن، وهذا رد على الذين يعبدون الشمس والقمر

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

والكواكب بأنها مسخرة بأمر الله مأمورة، الله الذي يجريها، والله الذي يوقفها إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي مسخرة مدبرة ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان.

قال ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

ألا: أداة تنبيه وتقرير. له: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لغيره.

الخلق: وهو الإيجاد، فهو القادر على الخلق إذا أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق ما شاء.

والأمر: أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه وتستجيب له مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]. أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السماوات والأرض فتكونت ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢] هذا أمر كوني.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببر الوالدين، هذا أمره الشرعي يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، هذا من أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا كان له الخلق والأمر فماذا بقي لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال: من له شيء فليطلبه، ودلت الآية على الفرق بين الخلق والأمر.[1]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

يعرف الله بآياته الكونية وآياته القرآنية. إذا قرأ القرآن، عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه هو الذي سخر ما في السماوات والأرض، وأنه هو الذي يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم. فالقرآن يعرف بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه هو الذي خلق هذا الخلق، وسخر هذا الكون وأجراه بحكمته وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو العلم بالله عَزَّوَجَلَّ.[1]

ومن أسباب معرفة العبد ربه النظر في آياته الشرعية وهي الوحي الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام فينظر في هذه الآيات وما فيها من المصالح العظيمة التي لا تقوم حياة الخلق في الدنيا ولا في الآخرة إلا بها، فإذا نظر فيها وتأملها وما اشتملت عليه من العلم والحكمة ووجد انتظامها موافقتها لمصالح العباد عرف بذلك ربه عَزَّوَجَلَّ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ومنها ما يلقى الله عَزَّوَجَلَّ في قلب المؤمن من معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى كأنه يرى ربه رأي العين قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين سأله جبريل ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[2]،[3]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أركان الإيمان والإسلام.

(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الآيـات القرآنية التـي تتلى من الوحي المنزل على الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه كلها أدلة على وجود الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلى كماله وصفاته وأسـمائه، وعلى أنه مسـتحق للعبادة وحده لا شـريك له، كلها تدل على ذلك، الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيـات الكونية تدل علـى خالقها وموجدها ومدبرهـا، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة الله، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به على توحيد الألوهيـة، والأمر بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كل القرآن يـدور على هذا المعنى، وأنزل من أجل هذا المعنى.(١)



وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشيَاءِ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ».

والرب هو المعبود

أي هـو الذي يسـتحق العبـادة، وأما غيره فلا يسـتحق العبـادة، لأنه ليس ربـًا، هذا وجه كلام الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولـه: الرب هو المعبـود أي: هو الذي يسـتحق العبادة، ثم أيضـًا لا يكفي أن الإنسـان يقر بالربوبية، بل لا بد أن يقر بالعبوديـة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويفعلهـا مخلصـًا لـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمـا دام أقر أنه

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الرب فإنه يلزمه أن يقر أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة، والدليل على أن العبادة خاصة بالرب قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ ...

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].(١)

وهذه الآية بها أمر وهو أول أمر في القرآن، أول أمر في القرآن الأمر بعبادة الله؛ قال ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.(٢)

﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: فعل أمر، أي أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربكم، والعبادة لا تصلح إلا للرب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.(٣)

قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ هذه صفة كاشفة تعلل ما سبق أي أعبدوه لأنه ربكم الذي خلقكم فمن أجل كونه الرب الخالق كان لزامًا عليكم أن تعبدوه، ولهذا نقول يلزم كل من أقر بربوبية الله أن يعبده وحده وإلا كان متناقضًا.(٤)

لهذا جاء ما بعدها ما بعد الأمر بالعبادة كقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وهو قوله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ جاء تعليلاً لما سبق، لما كان مستحقًا للعبادة؟ قال

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، كأن سائلاً سأل: لما كان مستحقاً للعبادة؟ لما أمرنا أن نعبده؟ قال ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ إلى آخره فهذه أشياء من معاني ربوبيته، وقد ذكرنا من قبل أن الربوبية تستلزم الألوهية، وبهذا صارت الربوبية هنا في قوله ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هي العبودية، والرب هو المعبود، والفاعل لتلك الأشياء هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، لأنه هو وحده الذي خلق، وهو وحده الذي رزق، وهو وحده الذي جعل الأرض فراشاً، وهو وحده الذي جعل السماء بناء، وهو وحده الذي أنزل من السماء ماء، والخلق جميعاً لم يعملوا شيئاً من ذلك، فالمستحق للعبادة هو الذي فعل وخلق وصنع وبرأ وصور وأبدع تلك الأشياء.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: من الأمم كلهم، خلق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الملائكة والجن والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوى إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في عبادته، لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار، لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

ثم واصل الاستدلال على ربوبيته وعبوديته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: بساطاً ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾ [نوح: ١٩]. أي مبسوطة، وفراشاً، أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون على

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨] لأجل مصالحكم.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.[1]

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي لا تجعلوا لهذا الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، وجعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم لا تجعلوا له أنداداً تعبدونها كما تعبدون الله، أو تحبونها كما تحبون الله فإن ذلك غير لائق بكم لا عقلاً ولا شرعًا.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أي تعلمون أنه لا ند له وأنه بيده الخلق والرزق والتدبير فلا تجعلوا له شريكًا في العبادة.[2]

لما بين الشيخ أن الرب هو المعبود واستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ استشهد بكلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية.[3]



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَأَنوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثلُ: الإِسلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ، وَمِنهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغبَةُ، وَالرَّهبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاستِعَانَةُ، وَالاستعاذة، وَالاستِغَاثَةُ، وَالذَّبحُ، وَالنَّذرُ، وَغَيرُ ذَلَكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: ١٨].

وَأَنوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ كُلُّهَا للهِ تَعَالَى

لما تقرر أن الرب هو المعبود، كان من المناسب أن تذكر أنواع العبادة التي يعبد الله جَلَّ وَعَلَا بها، والتي يجب إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بها.(١)

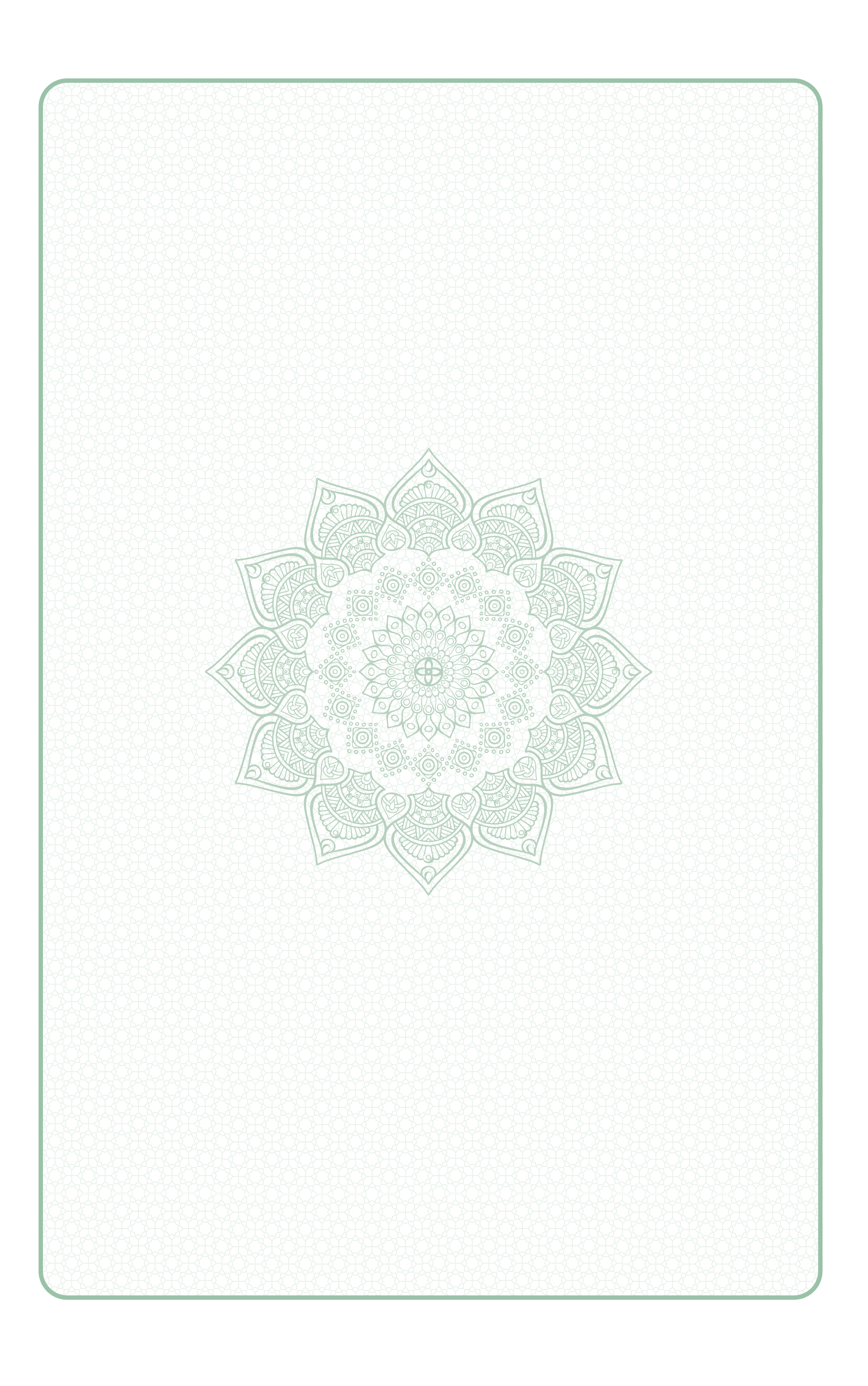
العبادة بمفهومها العام هي «التذلل لله محبة وتعظيماً بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه».

أما المفهوم الخاص للعبادة يعني تفصيلها فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة أسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة كالخوف، والخشية، والتوكل والصلاة والزكاة، والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام».(٢)



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.



فصل: تعريف العبادة

غاية وجود الإنسان

عندما ينظر المرء حوله يجد كل شيء في هذا الكون قد خلقه الله تعالى لحكمة كبرى وغاية يسعى إليها، وإلا كان وجوده عبثًا، وقد تنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن العبث والباطل، فقال في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧]. والمؤمن يناجي ربه تعالى قائلاً، عندما يتفكر في خلق السماوات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

والإنسان ليس بدعًا بين هذه المخلوقات، فلا بُد أن يحدد الغاية التي أُوجد من أجلها، وهو يسعى لها؛ كي تستقيم حياته من خلالها ويعرف سر وجوده: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك:٢]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وغدت العبادة غاية الوجود الإنساني كله، بل إن الجن كذلك غايتهم هي عبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وبهذا النفي في أول الآية الكريمة والاستثناء في آخرها يحصر الله تعالى مهمة الإنس والجن ويقصرها على وظيفة واحدة، ومسئولية واحدة هي عبادة الله تعالى وحده، فليس لهم وراء ذلك وظيفة أو غاية، وما ينبغي أن يكون!

فكيف يستطيع الإنسان أن يكون دائما في عبادة الله تعالى، فلا تنقضي

لحظة من لحظات حياته بعد التكليف إلا وهو في عبادة؟ وكيف يستطيع أن يقوم بهذا التكليف الرباني؟[١]

معنى العبادة

العبادة في اللغة

فالعبادة: الطاعة مع الخضوع - قال الراغب: العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل[٢].

وقال الزجاج «ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع».[٣] وقال الجوهري «أصل العبودية «الخضوع والتذلل».[٤] [٥]

قال طرفة في وصف ناقة:

تباري عتاقًا ناجيات وأتبعت ... وظيفًا وظيفًا فوق مور مُعَبَّد

والمور: الطريق، والمعبد: هو الذي ذلل من كثرة وطء الأقدام عليه.

وقال أيضًا في معلقته:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المُعَبَّد

يعني: الذي صار ذليلاً؛ لأنه أصيب بالمرض، فجعل بعيداً عن باقي الأبعرة، فصار ذليلاً، لعدم المخالطة.[٦]

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية د. عثمان جمعة ضميرية.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن « ص: (٥٤٢)

(٣) لسان العرب (٣ / ٢٧٣) مادة: «عبد».

(٤) لسان العرب (٣ / ٢٧١)، مادة: «عبد»

(٥) القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (جمع وترتيب إسلام محمود دربالة)

(٦) التمهيد في شرح كتاب التوحيد للشيخ صال آل الشيخ

العبادة في الشرع

ومن التعريف اللغوي السابق يمكن أن يقال عن العبادة الشرعية إنها: الانقياد والخضوع لله تعالى على وجه التقرب إليه بما شرع مع المحبة.[١]

وحقيقة العبادة: الخضوع والذل، فإذا انضاف إليها المحبة والانقياد صارت عبادة شرعية.[٢]

وقال القرطبي: «أصل العبادة التذلل والخضوع وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى».

وقال ابن كثير: «العبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وغير معبد أي مذلل وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف» وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.[٣]

وسمي الدين عبادة؛ لأن العبد يؤديه بخضوع لله، وذل بين يديه، ولهذا قيل للإسلام عبادة.[٤]

والعبادة شرعًا: هي امتثال الأمر والنهي على جهة المحبة والرجاء والخوف. وقال بعض العلماء: إن العبادة هي ما أُمر به من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي. وهذا تعريف الأصوليين.

---

(١) القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (جمع وترتيب إسلام محمود دربالة)

(٢) التمهيد في شرح كتاب التوحيد للشيخ صال آل الشيخ

(٣) تيسير العزيز الحميد

(٤) بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا وبعث به خاتمهم محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأليف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال شيخ الإسلام في بيان معناها في أول رسالة «العبودية»: العبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة.[١]

«العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك كله من العبادة».

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه، والرضى بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، هي من العبادة لله.

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له، التي خلق لها الخلق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].[٢]

مفهوم صحيح شامل للعبادة من خلال النصوص

هنا نجد أنفسنا أمام فهم صحيح للعبادة كما أرادها الله تعالى، لا تقتصر على ركعات خاشعة يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، ولا على أيام من العام يصومها المسلم طاعة لله سبحانه، ولا على جزء من المال يدفعه زكاة يطهر بها نفسه وماله، ولا على حج البيت الحرام عند الاستطاعة. فإن هذه العبادات كلها لا تستغرق من حياة الإنسان إلا جزءً يسيراً، فهل يترك

(١) التمهيد في شرح كتاب التوحيد للشيخ صال آل الشيخ.
(٢) انظر: «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٨، ٣٩.

سائر أيام حياته وساعاتها دون عبادة، فيخالف عندئذ أمر الله تعالى، وهو سبحانه لم يخلقه إلا للعبادة؟

إن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها في الساعات الأربعة والعشرين في اليوم والليلة عبادة لله تعالى وحده، إذ أن الإسلام قد أسبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد بهذه الأعمال وجه الله ومرضاته، وقام بها على الوجه المشروع الموافق للسنة، وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة.

فالزارع والصانع والتاجر، والطبيب والمهندس والعامل، والموظف، والمعلم والتلميذ وغيرهم من أصحاب الأعمال تعتبر أعمالهم عبادة إذا قصد بها كل منهم نفع عباد الله، والاستغناء عن الحاجة إلى الناس، وإعالة العيال؛ تحقيقاً لأمر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وخضوعاً له، والتزاماً وتحقيقاً لمقاصد الشريعة التي أنزلها الله تعالى لمصالح الناس، وليقوموا جميعاً بالحق والقسط.

والقرآن الكريم، كتاب الله الخالد، لم يقصر وصف الصلاح عندما أمرنا بالعمل الصالح على العبادات المخصوصة، وهي أركان الإسلام وشعائره ومبانيه الأساسية، بل جعله شاملاً لأعمال أخرى، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١] والآيات في ذلك كثيرة تعز على الحصر.

وفي الحديث الشريف يعدِّد النبي أنواعـًا من الطاعات، ويبين أجرها فيقول: «يصبح على كل سُلَامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقـة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».(١)

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا تحقرنّ من المعروف شـيئـًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».(٢) وقال أيضـًا: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس؛ تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصـلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقـة».(٣) وقال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».(٤)

وكل هـذه الأعمـال أبـواب مـن الخير ينـال المؤمـن عليها الأجـر، فهي صدقـات، والصدقة عبادة يتقرب بها المرء إلى الله تعالى. وأكثر من هذا وأدل قولـه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وفي بُضع أحدكم صدقة» أي: في جماعه لزوجته قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».(٥)،(٦)

---

(١) أخرجه مسلم برقم «٧٢٠»: ١/ ٤٩٩.

(٢) أخرجه مسلم برقم «٢٦٢٦»: «٤/ ٢٠٢٦».

(٣) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٦ طبعة بولاق، ومسلم برقم «١٠٠٩»: «٢/ ٦٩٩» واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري: «١/ ٤٨، ٤٩»، ومسلم برقم «٣٥»: «١/ ٦٣».

(٥) قطعة من حديث رواه الإمام مسلم برقم «١٠٠٦»: «٢/ ٦٩٧، ٦٩٨

(٦) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية د. عثمان جمعة ضميرية

وأراد أن يبين أنواع العبادة، وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبد: يعني مذلل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة في الشـرع اختلف العلمـاء في تعريفها، يعني اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنى واحد، فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم في النونية:

وعبـادة الرحمـن غايـة حبـه　　　مـع ذل عابـده همـا قطبـان

فعرفها بأنها غاية الحب مع غاية الذل.

ومنهـم مـن يقول: العبادة هـي: ما أمر به شـرعا من غير اطـراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.

لأن العبادة توقيفية لا تثبت بالعقل ولا بالعرف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح. ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».(١)

وهذا التعريف مناسب؛ لأنه أيسر في الفهم أولاً، والثاني أنه قريب المأخذ من النصوص، فقال: إن العبادة اسـم جامع؛ يجمع أشـياء كثيرة، جامع لأي شـيء؟ لـكل ما يحبـه الله ويرضاه، كيف نصـل إلى أن هذا العمـل أو القول يحبه الله ويرضاه؟ لابد أن يكون مأموراً به، أو مخبَراً عنه بأن الله جَلَّ وَعَلَا يحبه ويرضاه ... قال: الظاهرة والباطنة؛ قد يكون القول ظاهراً، وقد يكون باطنًا، وقد يكون العمل ظاهراً، وقد يكون باطنًا.

فتحصل أن أنواع العبادات هي الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

والقول: قد يكون باللسان، وقد يكون بالجنان.

قول اللسان أعمال كثيرة مما أمر الله جَلَّ وَعَلَا به مثل الذكر والتلاوة، كلمة المعروف ونحو ذلك، هذه كلها من أنواع العبادات اللسانية.

قول القلب هو نيته، قصده، التبست النية على قوم فكانوا يتلفظون بها، نعم النية قول، لكنها قول القلب، إذا قصد القلب وتوجه إلى شيء كان قائلا به، ليس متكلما، لأن الكلام من صفات اللسان؛ كلام ظاهر، أما القول قد يكون ظاهراً وقد يكون باطناً.

العمل: عمل القلب وعمل الجوارح.

وهذه الأنواع التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ممثلاً بعضها من الأقوال والأعمال، بعضها ظاهر، وبعضها باطن، بعضها لساني، وبعضها قلبي، وبعضها عملي قلبي، وبعضها من عمل الجوارح.

فمثلاً الإخلاص هذا عمل القلب، التوكل عمل القلب، لا يصلح الإخلاص إلا لله جَلَّ وَعَلَا.(١)

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر الله به، ففعل ما أمر الله به طاعة لله، وترك ما نهى الله عنه طاعة لله، هذه هي العبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ترك لما نهى الله عنه طاعة لله هو عبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ما نهى الله عنه فتركه، سواء كان ذلك ظاهراً على الجوارح أو كان باطنا في القلوب، لأن العبادة تكون على اللسان وتكون على القلب وتكون على الجوارح.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

تكون على اللسان مثل التسبيح والذكر والتهليل والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللسان المشروعة من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنها عبادة.

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه عبادة كالخوف والرجاء والخشية والرغبة والرهبة والتوكل والإنابة والاستعانة، كل هذه أعمال قلب، اللجوء إلى الله بالقلب وخشية الله وخوفه ورغبته والرغبة إليه ومحبته سبحانه والإخلاص له والنية الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ، كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة؛ وكذلك تكون العبادة على الجوارح مثل الركوع والسجود والجهاد في سبيل الله والجهاد بالنفس والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر على الجوارح.

فإذاً العبادة تكون على اللسان، وعلى القلب، وتكون على الجوارح.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد أمثلة للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر، لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة، لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام رسالة مستقلة اسمها العبودية تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **مثل الإسلام والإيمان والإحسان:**

هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام والإيمان والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأصل الثاني، وذكرها هنا لأنها من أنواع العبادة، فالإسلام بأركانه الخمسة: الشهادتان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان

بـالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشـره، هذه عبادة قلبية.(١)

كذلك الإحسان، وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا أعلى أنواع العبادة، لأن الإحسان هو أعلى أنواع العبادة.

وهـذه تسـمى مراتب الديـن، لأن مجموعها هو الديـن، «لأن جبريل لما سـأل النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضـرة أصحابـه وأجابه النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسـلام والإيمان والإحسـان قال: هـذا جبريل أتاكـم يعلمكم أمر دينكم»(٢)، فسـمي هذه الثلاثة الدين.(٣)

العبادة أنواع: فمنها الإسلام بأركانه، فلك ما أمر الله به من أعمال الإسلام عبادة: من صلاة وصوم وغير ذلك، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة، كالإيمان بـالله وملائكتـه وكتبه ورسـله واليـوم الآخر والإيمـان بالقدر خيره وشـره، وكذلـك الخـوف والمحبة والرجاء إلـى غير ذلك. فكل مـا يتعلق بالقلوب داخل في العبادة بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها.(٤)

قوله: **وَمِنهُ: الدُّعَاءُ**

أعظم أنواع العبادة هو الدعاء

ومن أنواع العبادة الدعاء، بدأ به لأنه أعظم أنواع العبادة.(٥)

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨) و(٩) و(١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٤) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٥) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وأعلم أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة.

- فدعاء المسألة: هو دعاء الطلب أي طلب الحاجات وهو عبادة إذا كان من العبد لربه، لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى واللجوء إليه، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة. ويجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر على الإجابة كما سبق في قوله القائل يا فلان اطعمني.(١)

- وأما دعاء العبادة: فهو العبادة نفسُها؛ لأن المتعبد لله جَلَّ وَعَلَا بصلاة أو بذكر هو سائل لله جَلَّ وَعَلَا، لأنه إنما عبد أو صلى، أو صام، أو زكى، أو ذكر، أو تلا، رغبةً في الأجر، كأنه سأل الله جَلَّ وَعَلَا الثواب٢ فالصلاة دعاء، والصيام دعاء، والحج دعاء، والذكر كله دعاء؛ أي: دعاء عبادة، وسميت العبادة دعاء؛ لأن العبد طالب الثواب.(٢)

واستدل الشيخ بالآية والحديث على أن الدعاء من العبادة؛ لأنه تعالى قال في نفس الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، والحديث الثابت لفظه عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «الدعاء هو العبادة». (٣)

الأدلة على أن الدعاء عبادة

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨]، ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ يعني كما ذكرت لكم من قبل: لا دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة. ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ يعني لا تعبدوا مع الله أحدا، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

﴿أَحَدًا﴾، هـذا نهي أن يدعـوَا الناسُ أحدا مع الله جَلَّ وَعَلَا، يعنـي أن يعبدوا أحدا مـع الله جَلَّ وَعَلَا، وإذا كان الدعـاء هنا بمعنى دعاء المسـألة فيكون معنى الآية وأن المسـاجد لله فلا تسألوا سـؤال عبادة مع الله أحدا، لا تطلبوا طلب عبادة مع الله أحدا. ولفظ ﴿تَدْعُواْ﴾ يشـمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهذه الآية دليل على وجوب إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة.

فـإن قـال قائل لك حين الاسـتدلال بها: إن الدعاء هنا هو دعاء المسـألة، وغيـره مـن أنـواع العبادة التـي تزعمون مـن الذبـح والنذر ومن الاسـتغاثة والاستعاذة ونحو ذلك أنها لا تدخل في النهي في هذه الآية.

فيكـون جوابُـك: أن الدعاء في القرآن جاء بمعنيين، جـاء ويراد به العبادة، وجاء ويراد به المسـألة. فمثـلاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافـر:٦٠]، ظاهـر أن الدعـاء المراد بـه العبـادة؛ لأنـه قـال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافـر:٦٠]، وكذلـك في قولـه تعالـى مخبـرا عـن قـول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ [مريم:٤٨]، قال جَلَّ وَعَلَا بعد ذلك ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريـم:٤٩]، وفي الآية الأولى أخبر عن إبراهيم أنه قال (وَأَعتَزِلُكُم وَمَا تَدعُونَ) ثـم قـال جَلَّ وَعَلَا ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدل علـى أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قـال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ أي وما تعبدون؛ لأن الله جل في وعلا قال بعدها ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾، وهـذا مـن الأدلة الظاهرة من أن الآية هذه تشـمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقـد أُورد علـى أئمتنـا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حين قـرروا التوحيـد في مقالهم وفي

كتبهم أن هذه الآية إنما هي دليل للمسألة، وأما غيرها مما تَدَّعون أنه عبادة وأن هذه الآية فيها نهي عنه؛ كالذبح والنذر ونحو ذلك أنه لا يدخل في الآية.

فكان الجواب: أن الدعاء نوعان؛ دعاء عبادة ودعاء مسألة، هذا يأتي في القرآن وذاك يأتي في القرآن، والآية تشمل النوعين؛ لأن الدعاء إذا كان في القرآن يأتي تارات لهذا وتارات لهذا، فتحديده في هذه الآية بأحد النوعين ونفي النوع الآخر، هذا نوع تحكم وهو ممتنع.[١]

واستدل كذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ فدلت الآية الكريمة على أن الدعاء من العبادة ولولا ذلك ما صح أن يقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾.[٢]

في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدعاء مخ العبادة» وفي رواية: «الدعاء هو العبادة»[٣] فهذا يدل على عظيم الدعاء وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مخ العبادة» وفي رواية: «الدعاء هو العبادة» والرواية الثانية أصح من رواية: «الدعاء مخ العبادة» والمعنى واحد.

فالحديث بروايتيه يبين عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحج عرفة»[٤] بمعنى أن الوقوف بعرفة في

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) أخرجه أبو داوود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) مِن حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه أبو داوود (٣٠١٥)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) مِن حديث عبد الرحمن بن يَعَرَ الديلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه أن الحج كله هو عرفة، ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء؛ ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها، ولهذا قال: «هو العبادة» من باب تعظيم الدعاء وبيان مكانته.[(١)]

فمن دعا غير الله عَزَّوَجَلَّ بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حيًا أو ميتًا. ومن دعا حيًا بما يقدر عليه مثل أن يقول يا فلان أطعمني، يا فلان اسقني فلا شيء فيه، ومن دعا ميتًا أو غائبًا بمثل هذا فإنه مشرك لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفًا في الكون فيكون بذلك مشركًا.[(٢)]

الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله سواء كان طلبًا للشفاعة أو غيرها من المطالب قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٣-١٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾ [يونس:١٠٦] وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤] الآية.[(٣)]

لكن دعاء الحي الحاضر القادر، والاستعانة به في الشيء المقدور عليه، لا

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) تيسير العزيز الحميد.

بأس به ولا يعتبر داخلا في الشرك؛ فلو قلت لأخيك الحاضر: يا عبد الله! أعنّي على قطع هذه الشجرة أو على حفر هذه البئر؛ فلا بأس بذلك كما قال سبحانه في قصة موسى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] الآية. استغاثة الاسرائيلي على القبطي؛ لأن موسى قادر على إغاثته، يتكلم ويسمع.

أما إذا اعتمد على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله حاضراً أو غائبًا أو ميتًا، واعتقد أنه ينفع من دعاه أو يضر لا بالأسباب الحسية من الشرك بالله.(١)

وَالخَوفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغبَةُ، وَالرَّهبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشيَةُ، وَالإِنَابَةُ

التوكل كذلك من أعمال القلب التي ليست إلا لله، الخوف من أعمال القلب التي ليست إلا لله، يعني خوف العبادة، خوف السر سيأتي إيضاحه إن شاء الله في موضعه، الرغبة، الرهبة، الإنابة، الخضوع، الذل؛ ذل العبادة، خضوع العبادة، إلى آخره وسيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى.

هذه كلها من أعمال القلب هي داخلة في أنواع العبادة.

وَالاستِعَانَةُ، وَالاستعاذة، وَالاستِغَاثَةُ، وَالذَّبحُ، وَالنَّذرُ

الأعمال الظاهرة مثل الاستغاثة؛ الاستغاثة طلب الغوث، طلب الغوث طلب ظاهر، مثل الاستعانة؛ طلب العون، هذه من الأعمال الظاهرة، الذبح واضح أنها عمل الجوارح، النذر واضح أنه قول اللسان وعمل الجوارح، ونحو ذلك، فإذاً هذه العبادات التي مَثَّل بها، أراد أن يشمل تمثيله أقسام العبادات القولية، والعملية؛ الظاهرة والباطنة، يجمعها جميعاً أنها عبادات.

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

وَغيرُ ذَلَكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

والعبادة لا تصلح إلا لله جَلَّوَعَلَا، العبادة الظاهرة أو الباطنة، القلبية أو اللسانية، أو التي موردها الجوارح، فهي لا تصلح إلا لله؛ فمن صرف شيئًا منها لغير الله فقد توجّه بالعبادة لغير الله منافيًا لما قال الله جَلَّوَعَلَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، ومنافيًا لإقراره بأن معبوده هو الله جَلَّوَعَلَا، إذا أقر العبد بأن قوله من ربك؟ يعني من معبودك؟ وأن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يعني وحده دون ما سواه، فإنه إذا توجه بشيء من هذه الأنواع لغير الله جَلَّوَعَلَا كان متوجهًا بالعبادة لغير الله، وذلك هو الشرك.(١)



فَمَن صَرَفَ مِنهَا شَيئًا لِغَيرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مخ العِبَادَةِ». وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

وبعد أن ذكر أنواع العبادات التي موردها اللسان والقلب والجوارح قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر»

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يعني من توجه بشـيء من أنواع تلك العبادات لغير الله فهو مشـرك كافر، يريـد الشـرك الأكـبر الـذي يخرج مـن الملـة، والشـرك حقيقته اتخـاذ الند مع الله جَلَّوَعَلَا، وهو المذكور في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢]، والتنديد يعني أن يُجعل لله مِثل للاستحقاق؛ استحقاق التوجه، استحقاق العبـادة، إذا جُعل لله نـد إما بالقول أو بالعمل فذلكم هو الشـرك، وكل نوع من هذه الأنواع، وغيرُها من الأنواع التي تدخل في مسـمى العبادة، صرفها لغير الله جَلَّوَعَلَا شـرك أكبر يخرج من الملة، وصاحبه مشرك كافر؛ إما الكفـر الظاهـر، وإما الكفر الظاهـر والباطن معًا؛ وهذا الـذي ذكره برهن له بقولـه تعالـى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ والدليل على أن دعوة غير الله جَلَّوَعَلَا كفر؛ قوله جَلَّوَعَلَا في الآية نفسها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فـدل علـى أن دعاء غير الله كما أنه شـرك إذ دُعي إله آخـر مع الله جَلَّوَعَلَا فهو كفر؛ لأنه قال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾. [(١)]

والشرك أقسام والعلماء يَقسِمون الشرك باعتبارات مختلفة.

- فتارة يُقسم الشرك إلى شرك ظاهر وشرك خفي.
- وتارة يُقسم الشرك إلى شرك أكبر وشرك أصغر.
- وتارة يُقسم إلى شرك أكبر وأصغر وخفي.

وهذه تقسـيمات معروفة عند العلماء، وكل تقسيم باعتبار، وهي تلتقي في نتيجة كل قسم والتعريف؛ لكنه اختلاف في التقسيم باعتبارات مختلفة.

فمثلاً من يقسمون الشرك إلى ظاهر وخفي؛ إلى جلي وخفي:

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

- فيكـون الجلي منه ما هـو أصغر ومنه ما هو أكبر، الجلـي الظاهر الذي يُحَس مثـل الذبـح لغير الله، النـذر لغير الله هـذا جلي، هذا من نوع الشـرك الأكبر، هو جلي أكبر، كذلك مثل الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كذلك هذه من نوع الشـرك الجلي الأكبر، الحلف بغير الله تعالى شرك جلي ولكنه أصغر، هذا قسم شرك جلي.

- قَسِيمُه الشرك الخفي منه ما هو أكبر كشرك المنافقين، فإن شركهم خفي لم يظهروه وإنما أظهروا الإسلام، فما قام في قلوبهم من التنديد والشرك صار خفيًا لأنهم لم يُظهروه، فهو شرك خفي ولكنه أكبر، وهناك شرك خفي أصغر مثل يسير الرياء، فإن كان الرياء كاملاً كان ذلك شركًا أكبر كشرك المنافقين، وإن كان يسيراً كتصنُّع المرء للعبادة لمخلوق مثله لغير الله فهذا إذا كان يسيراً فإنه شرك أصغر خفي.

هذا نوع من أنواع التقاسيم.

بعض العلماء يقول الشرك قسمان أكبر وأصغر:

- فإذا كان أكبر: قَسم الأكبر إلى جلي وخفي.

- وقسم الأصغر إلى جلي وخفي.

والأوضح أن يقسم إلى ثلاثة إلى أكبر وأصغر وخفي:

- ويكون الخفي مثل يسير الرياء.

- والأصغر مثل الحلف بغير الله، تعليق التمائم ونحو ذلك.

- والأكبر مثل الذبح والنذر والاستغاثة ودعاء ودعوة غير الله جَلَّ وَعَلَا.

هذه تقسيمات للشـرك قد تجد هذا أو ذاك في كلام طائفة من أهل العلم،

لكن كلّها محصلها واحد، وإنما التقسيم باعتبارات، وهي ملتقية في التعريف وفي النتيجة.

مُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ها هنا بقوله **(فَمَن صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مُشرِكٌ كافرٌ)** يريد الشرك الأكبر الذي يُخرج من الملة، فكل شيء صح عليه قيد العبادة فإن صرفه لغير الله يعني التوجه به، التعبد به لغير الله هذا كفر؛ مثل نداء الموتى، أو نداء الغائبين، أو خوف السر، أو الذبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو الاستغاثة بالأموات، أو أنواع الطلب المختلفة من الاستعانة ونحوها، أو بعض أعمال القلوب مثل الاستعاذة ونحو ذلك.

هذه كلها أنواع للعبادات بعضها في القلب وبعضها للجوارح، جميعًا من توجه بشيء منها لغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة.

البرهان قوله ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقد قدمت لك أن ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ والدعاء في القرآن قد يكون دعاء مسألة وقد يكون دعاء عبادة، فإذا لم يكن في الدليل، في النص قرينة تحدد أحد المعنيين، حُمل على المعنيين جميعًا؛ لأن حمل النص على أحد المعنيين دون دليل وبرهان تحكُّم في النص وذلك لا يجوز.[1]



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وَدَلِيلُ الخوفِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]. **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الخشيَةِ: قَولُهُ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ **الآية** [البقرة: ١٥٠].

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَولُهُ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ **الآية** [الزمر: ٥٤].

بعد ذلك شرع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وأجزل له المثوبة في بيان أدلة كون تلك التي ذكر من العبادات، وذكر الخوف، وذكر الرجاء، وذكر الرغبة، وذكر الرهبة، وذكر الخشوع، وذكر التوكل، وذكر أشياء، والذبح والنذر، إلى آخره.

فكأنَّ قائلاً قال: ما الدليل على أن هذه من العبادات التي من صرَفها لغير الله جَلَّ وَعَلَا كفر؟ هو يسوق الأدلة، والأدلة على هذه المسألة على نوعين:

الأول: أن يُستدل بدليل يُثبت كون تلك المسألة من العبادة، يثبت كون الخوف من العبادة، يثبت كون الرجاء من العبادة، فإذا ثبت كونه من العبادة، أُستدل بالأدلة السابقة كقوله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن:١٨]، وقوله «الدعاء هو العبادة»، «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَة»، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

﴿عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، ونحوها من الأدلة العامة؛ بأن من توجه بالعبادة لغير الله فهو مشرك.

إذاً النوع الأول متركب من شيئين، الأول أن يقام الدليل على أن هذه المسألة من العبادة؛ على أن الخوف من العبادة، على أن الرجاء من العبادة، فإذا استقام الدليل والاستدلال على أن هذه المسألة من العبادة، استدللتَ بالأدلة العامة على أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك، هذا نوع.

النوع الثاني: خاص؛ وهو أن كل نوع من تلك الأنواع له دليل خاص، يُثبت أن صرفه لغير الله جَلَّ وَعَلَا شرك، وأنه يجب إفراد المولى جَلَّ وَعَلَا بذلك النوع من أنواع العبادة.

وهذا مما ينبغي أن يتنبه له طالب العلم في مقامات الاستدلال، لأن تنويع الاستدلال عند الاحتجاج على الخرافيين والقبوريين وأشباههم مما يقوي الحجة. تُنوِّع الاستدلال مرة بأدلة مجملة، مرة بأدلة مفصلة، مرة بأدلة عامة، مرة بأدلة خاصة حتى لا يُتوهَّم أنه ليس ثم إلا دليل واحد يمكن أن ينازع المستدل به الفهم، فإذا نوعتها صارت الحجة أقوى والبرهان أجلى.

بدأ في ذكر هذه الأدلة، بعضها من النوع الأول وبعضها من النوع الثاني.[1]

ودليل الخوفِ؛ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الخوف نوع من أنواع العبادة وهو عبادة قلبية، وكذلك الخوف والخشية والرغبة والرهبة والرجاء والتوكل كل هذه عبادات قلبية.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

والخوف: هو توقع المكروه.(١)

هو الذعر وهو انفعال يحصل بتوقع ما فيه هلاك أو ضرراً أو أذى.(٢)

الخوف عبادة قلبية موردها القلب، قد يظهر أثره على الجوارح.(٣)

وخوف الله من أجل أحوال القلوب وأفضلها؛ لأنه يمنع صاحبه من الإقدام على معصية الله.(٤)

دليل كون الخوف عبادة (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران:١٨٥]) هذا الدليل فيه أن الخوف من غير الله منهي عنه، وأن الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا مأمور به، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ نهي عن الخوف من غير الله، ثم قال ﴿وَخَافُونِ﴾ وهذا أمر بالخوف من الله جَلَّ وَعَلَا، وما دام أن الله جَلَّ وَعَلَا أمر بالخوف منه فإنه يصدق على الخوف إذاً تعريف العبادة؛ لأنه إذ أمر بالخوف منه فمعنى ذلك أن الخوف منه محبوب له مرضي عنده، فيصدق عليه تعريف شيخ الإسلام للعبادة أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهذا ما دام أنه أمر به فمعناه أن الله جَلَّ وَعَلَا يحبه، لأنه إنما يأمر شرعًا بما يحبه ويرضاه، وفي هذه الآية دليل من النوع الثاني.(٥)

وفي معنى الخوف: الخشية والرهبة، فمعانيها متقاربة، وكلها جاء ذكرها في القرآن.(٦)

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٤) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٥) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٦) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

والخوف ثلاثة أنواع:

- خوف جائز وهو الخوف الطبيعي: أن يخاف من الأسباب العادية التي جعل الله فيها ما يخاف ابن آدم منه، أن يخاف من النار أن تحرقه، يخاف من السبع أن يعدو عليه، من العقرب أن تلدغه، يخاف من ذي سلطان غشوم أن يعتدي عليه ونحو ذلك، هذا النوع خوف طبيعي من الأشياء، لا يُنقص الإيمان؛ لأنه مما جبل الله جَلَّ وَعَلَا الخلق عليه.[1]

هو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر على ما تخافه منه، كأن تخاف من الحية أو العقرب أو من العدو، هذه أمور ظاهرة ومعروفة، فالخوف منها لا يسمى شركًا هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل الحية والعقرب وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها فهذا لا يسمى شركًا بل يسمى خوفًا طبيعيًا.

ولهذا قال الله في موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أي من البلد ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى مَديَنَ، وكان يترقب ويخشى أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي، لكن تعلم الإنسان أن يعتصم بالله عَزَّوَجَلَّ ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد على الله عَزَّوَجَلَّ ويتوكل على الله، قال تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] هذه الآية في سورة آل عمران في قصة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المشركين يوم أحد لما توعدهم المشركون، وقالوا: نرجع إليهم ونستأصلهم فالله جَلَّ وَعَلَا يقول:

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان، أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف من انقاد له من الناس وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.(١)

خوف العبادة، هذا صرفه لغير الله شرك، وذلك **بأن يخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده، كما يفعل كثير من الجهال، يخافون على حمل زوجاتهم وعلى أولادهم من الجن، يخافون من السحرة، أو من الموتى، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله** عَزَّوَجَلَّ، **وكذلك إنزال البركة أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من الله** عَزَّوَجَلَّ فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، كالذين يخافون من القبور ومن الأضرحة ومن الجن ومن الشياطين أن تمسهم بسوء أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلى هذه الأشياء لدفع ضررها أو خوفًا منها، هذا شرك أكبر، يقول: أخاف إن لم أذبح له أن يصيبني أو يصيب أولادي أو مالي أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يهددونه بآلهتهم ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤-٥٦] هذا هو التوحيد تحداهم كلهم هم وآلهتهم. ﴿فَكِيدُونِى

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ لا تمهلوني بل من الآن ولم يقدروا عليه بشيء بل نصره الله عليهم.

فالذي يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمى خوف العبادة وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القربات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك من النقود يلقونها على أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرهم أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.(١)

وهو أن يخاف غير الله جَلَّ وَعَلَا بما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وهو المسمى عند العلماء: خوف السر؛ وهو أن يخاف أن يصيبه هذا المخوف منه، أن يصيبه ذلك الشيء بشيء في نفسه يعني في نفس ذلك الخائف كما يصيبه الله جَلَّ وَعَلَا بأنواع المصائب من غير أسباب ظاهرة ولا شيء يمكن الاحتراز منه، فإن الله جَلَّ وَعَلَا له الملكوت كله، وله الملك وهو على كل شيء قدير، بيده تصريف الأمر، يرسل ما يشاء من الخير، و يمسك ما يشاء من الخير، يرسل المصائب، وكل ذلك دون أسباب يعلمها العبد، وقد يكون لبعضها أسباب، لكن هو في الجملة من دون أسباب يمكن للعبد أن يعلمها، يموت هذا، ينقضي عمر ذاك، هذا يموت صغيراً، ذاك يموت كبيراً، هذا يأتيه مرض، وذاك يصيبه بلاء في ماله ونحو ذلك، الذي يفعل هذه الأشياء هو الله جَلَّ وَعَلَا، فيُخاف من الله جَلَّ وَعَلَا خوف السر أن يصيب العبد بشيء من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، المشركون يخافون آلهتهم خوف السر؛ أن يصيبهم ذلك الإله، ذلك

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

السيد، ذلك الولي، أن يصيبهم بشيء كما يصيبهم الله جَلَّ وَعَلَا بالأشياء، فيقع في قلوبهم الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله جَلَّ وَعَلَا، يوضح ذلك أن عُبَّاد القبور وعباد الأضرحة وعباد الأولياء يخافون أشد الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء إذا تُنُقِّص الولي، أو إذا لم يُقَم بحقه.

وقد حُكِيَ لي في ذلك حكاية من أحد طلبة العلم، أنه كان مجتازاً مرة مع سائق سيارة أجرة ببلدة (قنطة) المعروفة في مصر التي فيها قبر البدوي؛ والبدوي عندهم معظم، وله من الأوصاف ما لله جَلَّ وَعَلَا؛ يعني يعطونه من الأوصاف بعض ما لله جَلَّ وَعَلَا، هم اجتازوا بالبلدة فأتى صغير متوسط في السن يسأل هذا؛ يسأله صَدقة، فأعطاه شيئًا، فحلف له بالبدوي أن يعطيه أكثر، وكان من العادة عندهم أنه من حلف له مثل ذلك فلا يمكن أن يرد، فلا بد أن يعطي؛ لأنه يخاف ألا يقيم لذلك الولي حقه، فقال هذا وهو من طلبة العلم والمتحققين بالتوحيد فقال: هات ما أعطيتك. فظن ذلك أنه يريد أن يعطيه زيادة، فأخذ ما أعطاه وقال: لأنك أقسمت بالبدوي فلن أعطيك شيئًا، لأن القسم بغير الله شرك.

هذا مثال للتوضيح ليس من باب القصص لكنه يُوضِح المراد من خوف السر وضوحًا تامًا.

سائق الأجرة علاهُ الخوف في وجهه، ومضى سائقًا وهو يقول: أُستُر أُستُر، أُستُر أُستُر. فسأله ذاك قال: تخاطب من؟ قال: أنت أهنت البدوي، وأنا أخاطبه أي أدعوه بأن يستر، فإن لم...، فإننا نستحق مصيبة، وسيرسل علينا البدوي مصيبة؛ لأننا أهناه. وكان في قلبه خوف بحيث أنه مشوا أكثر من مئة كيلو ولم يتكلم إلا بأُستر، أستر. يقول فلما وصلنا سالمين معافين توجهت له

فقلت: يا فلان، أين ما زعمت؟ وأين ما ذكرت من أن هذا الإله الذي تألهونه أنه سيفعل ويفعل؟ فتنفس الصعداء وقال: أصل السيد البدوي حليم!!!

هـذه الحالة هي حالة تعلـق القلب بغير الله، الذي يكـون عند الخرافيين، خوف من غير الله خوف السـر، البدوي ميت في قبره، يخشـى أن يرسـل إليه أحـد يقسـمه، أو مصيبة في سـيارته أو في نفسـه، هذا هو خوف السـر، وهذا هـو الـذي جاء في مثـل قـول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١]، قـال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ لأنهـم يخافون آلهتهم هذا النوع من الخوف، لهذا تجد قلوبهم معلقة بآلهتهم لأنهم يخافونهم خوف السر، وقال جَلَّ وَعَلَا مخبراً عن قول قوم هود حيث قالوا لهود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هـود:٥٤]، فهـم خافوا الآلهة، عندهم أن الآلهـة تصيب بسـوء، وكان الواجب على حد زعمهـم أن يخاف هذا من الآلهة أن تصيبه بسوء، فقالوا له ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ يعني بمصيبة في نفسك اختل عقلك، أو اختلت جوارحك أو نحو ذلك، هذا النوع من الخوف هو الذي إذا صرف لغير الله جَلَّ وَعَلَا فهو شرك أكبر.[1]

فالواجب خشية الله وخوفه؛ لأنه مصرف القلوب ومقلبها والقادر على كل شـيء، وهو الذي ينفع ويضر، ويعطي ويمنع، فالواجب تخصيصه بالخوف وألا يخاف إلا الله في كل الأمور. ولكن خوف السـر يختص به سـبحانه وهو كـون الإنسـان يخاف مـن أجل قدرة خاصة سـرية ليسـت حسـب الحس. ولذلـك يعتقد عباد القبور أن بعض الناس له القدرة على التصرف في الكون

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

مـع الله جَلَّ وَعَلَا، ويعتقدون ذلك أيضـًا في الأصنام والجـن وغيرها، وهذا هو الشـرك الأكبر، ويعتقد فيهم أيضـًا أن لهم القـدرة على العطاء والمنع، وزيغ القلوب، وموت النفوس دون أسباب حسية.(١)

- خوف محرم: وهو أن يخاف من الخلق في أداء واجب من واجبات الله، يخـاف مـن الخلق في أداء الصـلاة، يخاف إن قام للصلاة مـن مجلس يقطنه كثيـرون أن يعـاب، فإذا خاف هذا الخوف، فإن هـذا الخوف يكون محرمـًا، وفي مثله نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، وفي قولـه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]، لأن الواجـب أن يُجَاهَـدوا، فـإذا خافوهم عـن أداء ذلك الواجب، خـوف ليس بمأذون به في الشـرع وإنما هو من تَسـوِيل الشـيطان كما قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، هـذا النـوع مـن الخـوف محرم، لا يجـوز؛ لأن فيه تفويـت فريضة من فرائـض الله لأجل الخوف، خاف من غيـر الله لكنه ليس خوف السر، وإنما هو خوف ظاهر، وهذا محرم من المحرمات.(٢)

لأن ما كان سببـًا لترك واجب أو فعل محرم فهو حرام.(٣)

هذه أقسـام ثلاثة مشهورة، وبها تجمع مسائل أقسام الخوف، والشرك منه وما ليس بشـركي منه، وهذه المسـألة مما يكثر فيها اضطراب طلاب العلم؛ لأنـه ليس عندهم ضبط، للخوف الذي يحصل بـه إن صُرف لغير الله جَلَّ وَعَلَا

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الشـرك، الـذي يوصف بـه من قام به أنه مشـرك، أيُّ خوف هـذا؟ هو خوف السِّر، ووصفه وضبط حاله هو ما ذكرته لك من قبل، فكن منه على ذكر وبينة في فهمك لهذه المسألة العظيمة.(١)

ودليـل الرجـاء؛ قوله تعالـى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

الرجـاء أيضـًا عبادة قلبيـة، حقيقتها الطمع بالحصول على شــيء مرجو، الرغبة بالحصول على شيء، يرجو أن يحصل على هذا الشيء.

الرجاء الطبيعي

فـإن كان الرجـاء لشــيء ممن يملك ذلك الشــيء فإن هذا رجـاءٌ طبيعي؛ أرجو أن تحضر لأنه يمكنك أن تحضر، أرجوك أن تفعل، يمكنك أن تفعل، هذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة.

رجاء العبادة

النـوع الثـاني هـو رجـاء العبـادة، وهـو أن يطمـع في شــيء لا يملكـه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، أن يطمـع في شـفائه من مـرض، يرجو أن يشـفى، يرجو أن يدخـل الجنـة وينجو من النار، يرجو ألا يصــاب بمصيبة ونحو ذلك، هذه أنـواع مـن الرجاء، لا يمكـن أن تُرجى وتُطلب وتُؤمـل إلا من الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو معنى رجاء العبادة.

فالرجاء منه ما هو رجاء عبادة ومنه ما هو رجاء ليس من العبادة، والمقصود ها هنا هو رجاء العبادة.(٢)

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ وصرفه لغير الله تعالى شرك إما أصغر، وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي.[١]

الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيًا حصول مطلوبة من جهتهم فهذا شرك أكبر.[٢]

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ هذا النوع من الرجاء امتدح الله جَلَّوَعَلَا من قام به، قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ فدل على أن هذا الرجاء ممدوحٌ مَن رجاهُ، وإذا كان ممدوحًا قد مدحه الله جَلَّوَعَلَا فهو مرضي عند الله جَلَّوَعَلَا، فيصدق عليه حد العبادة من أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهذا من نص هذه الآية داخل فيما يرضاه الله جَلَّوَعَلَا، لأنه أثنى على من قام به ذلك الرجاء.[٣]

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ يعني: يطمع في ثواب الله عَزَّوَجَلَّ ورؤيته عيانًا يوم القيامة، من كان يطمع في أن يرى الله عيانًا يوم القيامة فليعمل عملًا صالحًا، يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة والنجاة من النار، والنظر إلى وجه الله؛ لأن هذا متلازم، لأن من دخل الجنة فإنه يرى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ هذا يدل على أن الرجاء وحده لا يكفي، لا بد من العمل، أما أنك ترجو الله ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المحمـود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالـح، والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: المتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشـرطان: أن يكون خالصًا لوجه الله ليس فيه شرك، وأن يكون صوابًا على سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشـرطان فهو صالح، وإن اختل فيه شـرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شرك يرد على صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يرد علـى صاحبـه، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من عمـل عملًا ليس عليـه أمرنا فهو رد» فهـذه الآية فيها الرجـاء وأنه عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.[1]

ودليـل التـوكل؛ قوله تعالـى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة:٢٣]، **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

التـوكل: هـو التفويض والاعتماد علـى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتفويض الأمور إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة.[2]

ودليـل التـوكل قولـه تعالـى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة:٢٣])

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ففـي هذه الآية الأمر بالتوكل، وما دام أنه أمر به فهو عبادة؛ لأن العبادة ما أُمـر به من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي[١]، وما دام أنه أمر به فهو راض لـه أن يُتوكل عليه، وهذا معناه كونـه عبادة، ثم أيضًا في هذا الدليل أنه جعل التوكل شـرطَ الإيمـان، فقـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ فمعنـى ذلك أنـه لا يحصل الإيمـان إلا بالتوكل على الله وحـده. أيضًا هنا قـدم الجارّ والمجـرور فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ وتقديـم ما حقه التأخير في علـم المعاني يفيد الحصر والقصـر، أو يفيد الاختصاص، وهنا يفيدهما؛ يفيـد الاختصـاص، ويفيد القصـر والحصر، فمعنى هذه الآيـة بقوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ يعنـي أحصروا توكلكم في الله، اقصـروا توكلكم على الله إن كنتم مؤمنين، خُصُّـوا الله بتوكلكم إن كنتم مؤمنين، وهذه الآية، هذا الدليل مركـب من نوعي الدليل الذَين ذكرتهما لك من قبل، النوع الأول: إثبات أن هذا الأمر عبادة، الثاني: إثبات أن هذه العبادة لا يجب صرفها لغير الله جَلَّوَعَلَا بدليـل خاص، فهو المسـتفاد من قولـه: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ وكذلـك في قولـه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣] هذا فيها الثناء على من يتوكل على الله، ففيها الدليل على أن التوكل على الله عمل يحبه الله ويرضاه، ومعنى ذلك أنه من أنواع العبادات، هذا هو توكل العبادة.[٢]

ومـن صفـات المؤمنيـن مـا ذكـره الله تعالـى بقولـه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال:٢] هذه من صفات المؤمنيـن، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه هو القادر على كل شـيء، وهو المالك لكل شـيء،

(١) هذا تعريف الأصوليين كما سبق.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وهـو الـذي يقدر أن يحقـق لك مطلوبك، أمـا المخلوق فإنه قـد لا يقدر أن يحقـق لـك مطلوبك، فإنـك توكله في قضاء شـيء من الأمـور، لكن تتوكل على الله في حصول ذلك الشيء.(١)

التوكل أيضـًا من العبادات القلبية، حقيقته أنه يجمع شيئين:

الأول: تفويض الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

الثاني: عدم رؤية السبب بعد عمله.

والتفويـض وعـدم رؤية السـبب شـيئان قلبيـان، فالعبد المؤمـن إذا فعل السـبب، وهو جزء بما تحصل به حقيقة التوكل، فإنه لا يلتفت لهذا السـبب، لأنه يعلم أن هذا السـبب لا يُحَصِّل المقصـود، ولا يحصل المراد به وحده، وإنمـا قد يحصـل المراد بـه وقد لا يحصـل؛ لأن حصول المـرادات يكون بأشياء، منها: السبب، صلاحية المحل، خلو الأمر من المضاد.

فثَم ثلاثة أشياء تحصل بها المرادات:

أول سـبب: نعلـم بِمَـا خلـق الله جَلَّ وَعَلَا خلقـه عليـه أن هذا السـبب يُنتج المسبَّب؛ النتيجة.

الثاني: صلاحية المحل لقيام الأمر به؛ الأمر المراد.

الثالث: خلو الأمر أو المحل من المضاد له.

مثاله الدواء، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالدواء فقال «تداووا عباد الله» فالمسلم الموحد يتناول الدواء باعتباره سببا للشفاء، لكنه ليس سببا أو ليس علة وحيدة، بـل لا يحصل الشـفاء بهـذا وحده، وإنما لابد من أشـياء أخـر، منها أن يكون

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

المحل الذي هو داخل الإنسان باطن متناول الدواء يكون صالحًا لقبول ذلك الدواء، وهذا معنى قولي: أن يكون المحل صالحًا. أيضًا من العلل التي يكمل بها المراد أن يكون السبب هذا الذي عمل خاليا من المعارض له، قد يكون يتناول شيء وفي البدن ما يفسد ذلك الشيء، فلا يصل إلى المقصود.

ومنها وهو الأعظم أن يأذن الله جَلَّ وَعَلَا بأن يكون السبب مؤثراً منتجًا للمسبّب، وهذا يعطيك أن فعل السبب ليس كافيًا في حصول المراد.(١)

فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرتَ بعملها، ولكن لا تعتمد على الأسباب، وإنما تعتمد على الله، أنت تزرع الزرعَ في الأرض، هذا سبب ولكن لا تعتمد على زرعك وفعلك، بل اعتمد على الله في نمو هذا الزرع وتثميره وحمايته وإصلاحه، ولهذا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٦٣- ٦٤]، فالزارع الحقيقي هو الله أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.(٢)

من الأمثلة التي نُمَثِّلُ بها كثيرا في هذا الباب غير مثال الدواء، رجل رام سفراً على سيارة، فأعد العدة، وفعل أسباب السلامة جميعًا؛ من رعاية مثلاً للكابحات (الفرامل)، ومن رعاية للإطارات ونحو ذلك، فعل أسباب السلامة جميعًا، وسار على مهل، هذا كل ما يمكنه أن يفعله، لكن هل هذا وحده يحصل السلامة؟ لا يحصل السلامة هذا وحده، فهناك من قد يكون معتديا عليه، تأتيه سيارة كبيرة، هو قد بذل أسباب السلامة، وتأتيه

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

في طريقـه، ويصـاب بالمصيبة من جرّاء ذلك، فهو فعل مـا يمكنه أن يفعله، لكن هناك أشـياء بيد الله جَلَّ وَعَلَا تتم السـلامة باجتماعها، وليس بهذا السبب الوحيـد الذي عملـه العبد، لا يجـوز للعبد أن يتخلى عن بذل السـبب لأن بذل السـبب من تمام التوكل ولكن لا يُلتفت إلى السبب ولهذا قال علماؤنا علماء التوحيد من أئمة السلف فمن بعدهم: الالتفات إلى الأسباب قدح في التوكل. الالتفات إلى الأسـباب قدح في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسـباباً قدح في العقل، إذا التفت القلب إلى السـبب وأنه ينتج المسبب هذا قدح في التوحيد.

لهذا نقول التوكل هو ما يجمع شـيئين أولاً: تفويض الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا، لأن الله هو الذي بيده الملك.

الثاني: عدم رؤية السبب الذي فُعل.

إذاً لا بـد مـن فعل السـبب، ويقـوم بالقلـب عدم رؤيـة لهذا السـبب أنه ينتـج المقصـود وحده، وإنمـا يعلم أنـه جزء مما ينتـج المقصـود، والباقي علـى الله جَلَّ وَعَلَا ثم يفـوض الأمر لله جَلَّ وَعَلَا، هـذا ينتج لك أن التـوكل عبادة قلبية محضة، ولهذا صار صرفه لغير الله جَلَّ وَعَلَا شرك، بمعنى أن يفوض الأمر لغير الله جَلَّ وَعَلَا، كما يقول بعض مشايخ الصوفية لبعض مريديهم: إذا أُصبت بمصيبـة فاذكرني فإني أخلِّصك منها. أذكرني يقم بالقلب ذلك المتذكَّر، ذلك المذكور، وإذا قام به أنه يخلصه من ذلك الشيء، فمعناه أنه فوض الأمر إليه، وصـار متوكلاً على غيـر الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو حقيقة ما يفعله المشـركون في الجاهلية ومن شابهم ممن بعدهم.(١)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وأعلم أن التوكل أنواع:

الأول: التوكل على الله تعالى وهو من تمام الإيمان وعلامات صدقه وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به وسبق دليله.

الثاني: توكل السر بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة، أو دفع مضرة فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفاً سرياً في الكون، ولا فرق بين أن يكون نبياً، أو ولياً، أو طاغوتاً عدواً لله تعالى.

الثالث: التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل عنه مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش ونحوه فهذا نوع من الشرك الأصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه. أما لو أعتمد عليه على أنه سبب وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده فإن ذلك لا بأس به.(١)



(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

التوكيل

إذا كان للمتوكل بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة فهذا لا بأس به بدلالة الكتاب، والسنة، والإجماع فقد قال يعقوب لبنيه ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ووكل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على الصدقة عمالاً وحفاظًا، ووكل في إثبات الحدود وإقامتها، ووكل علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في هديه في حجة الوداع أن يتصدق بجلودها وجلالها، وأن ينحر ما بقي من المئة بعد أن نحر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بيده ثلاثًا وستين. وأما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة.[١]

ولا يجوز أن يقول: توكلت على فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

أما إذا أسندت إلى أحد من الخلق تصرفًا، فهذا لا يسمى توكلًا إنما يسمى توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكل عبادة لا يكون إلا لله، ولا يجوز أن تقول: توكلت على فلان[٢]، وإنما تقول وكلت فلانًا.

ومع هذا أنت توكله ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل على الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.[٣]

على كل حال، لهذه الجمل مزيد تفصيل لكن المقام يضيق عن تفصيلات

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) مثل قول: أتَّكِلُ عليك

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ما يتعلق بهذه الأنواع من العبادات، وتفصيلها في كتاب التوحيد؛ لأن كل واحدة منها عُقد لها باب في كتاب التوحيد.(١)

هذا سؤال بالمناسبة قال: هل يصح أن يُقال توكلت على الله ثم عليك؟

والجواب: أن هذا لا يصلح؛ لأن الإمام أحمد وغيره من الأئمة صرحوا بأن التوكل عمل القلب.

ما معنى التوكل؟ هو تفويض الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا بعد بذل السبب؛ إذا بُذل السبب فوض العبد أمره إلى الله، فصار مجموع بذله للسبب وتفويضه أمره لله مجموعها التوكل، ومعلوم أن هذا عمل القلب كما قال الإمام أحمد.

ولهذا سئل الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية السابق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن هذه العبارة فقال: لا تصح لأن التوكل عمل القلب، لا يَقبل أن يقال فيه (ثُمَّ)؛ توكلت على الله ثم عليك. إنما الذي يقال فيه (ثُمَّ) ما يسوغ أن يُنسب للبشر.

بعض أهل العلم في وقتنا قالوا: إن هذه العبارة لا بأس بها؛ توكلت على الله ثم عليك، ولا يُنظر فيها إلى أصل معناها وما يكون من التوكل في القلب، إنما ينظر فيها إلى أن العامة حينما تستعملها ما تريد التوكل الذي يعلمه العلماء، وإنما تريد ممثل معنى اعتمدت عليك، ومثل وكَّلتُك ونحو ذلك، فسهلوا فيها باعتبار ما يجول في خاطر العامة من معناها وأنهم لا يعنون التوكل الذي هو لله؛ لا يصلح إلا لله، لكن مع ذلك فالأولى المنع لأن هذا الباب ينبغي أن يُسد، ولو فتح باب أنه يستسهل في الألفاظ لأجل مراد العامة، فإنه يأتي من يقول مثلاً ألفاظ شركية ويقول أنا لا أقصد بها كذا، مثل الذين يظهر ويكثر

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

على لسانهم الحلف بغير الله بالنبي أو ببعض الأولياء أو نحو ذلك يقولون لا نقصد حقيقة الحلف، ينبغي وصف ما يتعلق بالتوحيد، وربما ما يكون قد يخدشه أو يضعفه، ينبغي وَصدُ الباب أمامه حتى تخلص القلوب والألسنة لله وحده لا شريك له.[(١)]

متى يكون التوكل شركًا أكبر ومتى يكون شركًا أصغر؟

التوكل عبادة مطلوبة؛ التوكل على الله عبادة مطلوبة واجبة، يسأل هو عن التوكل على غير الله، يكون شركًا أكبر إذا فوض أمره لغير الله؛ فوض هذا الأمر؛ المصيبة التي وقع فيها، أو ما يريد إنجاحه تجارة، أو عبادة أو درس أو نحو ذلك، فوّض إنجاح هذا الأمر لغير الله، وقام بقلبه هذا التعلق، يكون شركا أكبر، ولا يكون التوكل على غير الله شركًا أصغر، إنما هو شرك أكبر.[(٢)]

هل يُقدَّم السبب على التوكل على الله، وما معنى قوله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «اعقلها وتوكّل»؟

السبب يكون قبل، تريد أمراً من الأمور تفعل السبب الذي يحصل المسبب عادة به؛ شفاء من مرض، السبب أن تذهب إلى الطبيب فهذا السبب، إذا فعلت السبب يقوم بالقلب شيئان:

الأول: تفويض أمر الشفاء لله جَلَّ وَعَلَا.

الثاني: ألا يرى القلب هذا السبب محصلاً للمقصود وحده، لا يرى القلب هذا السبب الذي هو الذهاب للطبيب محصلاً للشفاء وحده، ولكن يعلم أنه ثم أسباب أخرى كلها جميعًا بيد الله جَلَّ وَعَلَا.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فهـذا السـبب يتلوه شـيئان هما التوكل، وفعل السـبب من تمـام التوكل، ولهـذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الـذي رواه الترمذي وغيره فيما سـاقه السـائل «اعقلها وتوكّل» توكَّلَ على الله جَلَّ وَعَلَا في حفظ ناقته بدون أن يعقلها، فسـرحت وذهبـت وبعُدت عنه، فقـال: اعقلها وتـوكل. يعني ابذل السـبب ثم بعد ذلك فوض الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا أن ينفع بهذا السـبب، إذ بيده ملكوت كل شـيء، وليكن بقبك عدم رؤية أن هذا السـبب وهو العقل كافيًا في حصول المراد وهو حفظ تلك الناقة.[١]

ودليل الرغبة، والرهبة، والخشوع، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠].

الرغبة: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠] وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنى واحد.[٢]

الرغبة رجاء خاص، والرهبة خوف خاص وَجَلٌ خاص.[٣]

الخشوع: نوع من التذلل لله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع والذل بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو من أعظم مقامات العبادة.[٤]

قولـه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٤) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

هذه الآية فيها المسارعة للخيرات، الدعاء رغباً ورهباً ووصفُهم بأن حالهم أنهم كانوا خاشعين لله، ففيها أنواع من العبادات، خصّ الشيخ منها بالاستدلال الرغبة والرهبة والخشوع، ووجه الاستدلال من الآية أن الله جَلَّوَعَلَا أثنى على الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم في سورة الأنبياء، التي هذه الآية في أواخرها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني ويدعوننا راغبين، ويدعوننا ذوي رغبة وذوي رهبة وذوي خشوع، وهذا في مقام الثناء عليه؛ الثناء على الأنبياء والمرسلين، وما دام أنه أثنى عليهم فإن هذه العبادات من العبادات المرضية له فتدخل في حد العبادة.(١)

فإذاً وجه الاستدلال: أن الله جَلَّوَعَلَا أثنى على أولئك الأنبياء، وعلى أولئك المرسلين؛ لأنهم ذووا رغب، وذووا رهب، وذووا خشوع لله جَلَّوَعَلَا، وبالأخص هذا الدليل العام، وبالدليل الخاص في الخشوع وحده، قال هنا ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ وكما قدمت أن الجارّ والمجرور هنا قدم على ما يتعلق به وهو اسم الفاعل (خاشع)؛ لأن الجارّ والمجرور كما أسلفت لك يتعلق بالفعل أو ما فيه معنى الفعل فهو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو ما أشبهه من مصدر ونحو ذلك، وهنا قال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ أصل سَبقِ الكلام: كانوا خاشعين لنا. فلما قدم ما حقه التأخير كان ذلك مفيدا **للاختصاص وللحصر وللقصر** كما هو معلوم في علم المعاني.(٢)

هذا الخشوع الذي هو نوع من أنواع العبادة، وتلك الرغبة وتلك الرهبة هذه من العبادات القلبية، التي يظهر أثرها على الجوارح.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

لو تأملت أو رأيت حال المشـركين عند آلهتهم، حال عباد القبور مثلاً عند أوثانهم، عند المشاهد، لوجدت أنهم في خشوع، ليسوا عليه في مساجد الله ليس فيها قبر ولا قبة، وهذا مشاهد، فإنه يكون عنده وَجَلٌ خاص، رهبة، ومزيد رجاء هو الرغبة، وخشوع وتطامن وعدم حركة وسكون في الجوارح والأنفاس وحتى في الألحاظ في الرؤية، وهذا كله مما لا يسوغ أن يكون إلا لله، لأن المسلم في صلاته إذا صلى فإنه يكون يقوم به الرغبة، يقوم به الرهبة المستفادة من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٣-٤]، (الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ) تفتح له باب الرغبات وباب الرجاء، و ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يفتح عليه باب الرغبة، باب الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا، فتأتي عبادته حال كونه راغبًا راهبًا، والخشوع سكونه وخضوعه وعدم حراكه في صوته وفي عمله، هذا لله جَلَّ وَعَلَا في عبادة الصلاة، والخشوع يكون بالصوت، ويكون بالأعمال كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه:١٠٨]، فالهمس لا ينافي الخشوع في الصوت، وهذه حال المصلي حين يناجي ربه جَلَّ وَعَلَا، فهو في حال رغبة ورجاء، وفي حال رغبة ورهبة، وفي حال خشوع لربه جَلَّ وَعَلَا، يزيد هذا في القلب، وربما غلب عليه حتى نال المقامات العالية في تلك العبادة، وربما قلَّ وَضَعُف حتى لم يُكتب من صلاته إلا عشرها أو إلا تسعها، هذا لأنه من أنواع العبادات التي يحبها الله جَلَّ وَعَلَا ويرضاها.[(١)]

وفي الآية رد على الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون الله رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخلق.[(٢)]

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ودليل الخشية؛ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة:١٥٠].

الخشية نوع من الخوف، وهي أخص من الخوف، وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم.(١)

فالرهبة والخوف والخشية، كلها بمعنى واحد وإن كان بعضها أخص من بعض، إلا أنها يجمعها الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.(٢)

ودليل الإنابة؛ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الآية [الزمر:٤٥].

الإنابة: الرجوع وهي بمعنى التوبة، والتوبة والإنابة بمعنى واحد. ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخص من التوبة أي: آكد لأنها توبة مع إقبال إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه، ولكن قد يكون في الإقبال على الله إقبال ضعيف، أما الإنابة فهي إقبال على الله عَزَّوَجَلَّ.(٣)

وحقيقة الإنابة الرجوع؛ رجوع القلب عما سوى الله جَلَّوَعَلَا إلى الله جَلَّوَعَلَا وحده، والإنابة إذ كان معناها الرجوع، فإن القلب إذا توجه إلى غير الله جَلَّوَعَلَا قد يتعلق به تعلقًا، بحيث يكون ذلك القلب في تعلقه تاركًا غير ذلك الشيء، وراجعًا ومنيبًا إلى ذلك الشيء، كما يحصل عند الذين يتعلقون بغير الله؛ تتعلق قلوبهم بالأموات والأولياء أو بالأنبياء والرسل أو بالجن ونحو ذلك، فتجد أن

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

قلوبهم قد فُرِّغت إما على وجه التمام، أو على وجه كبير، أن فُرِّغت من التعلق إلا من ذلك الشيء، هذا الذي يسمى الإنابة، أَنَابَ رجع، ترك غيره ورجع إليه، وهذا الرجوع ليس رجوعاً مجرداً، ولكنه رجوع للقلب مع تعلقه ورجائه، فحقيقة الإنابة أنها لا تقوم وحدها، القلب المنيب إلى الله جَلَّ وَعَلَا إذا أناب إليه فإنه يرجع، وقد قام به أنواع من العبودية منها الرجاء والخوف والمحبة ونحو ذلك، فالمنيب إلى الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي رجع إلى الله جَلَّ وَعَلَا عما سوى الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يكون رجوعه هذا إلا بعد أن يقوم بقلبه أنواع من العبوديات أعظمها المحبة والخوف والرجاء؛ محبة الله، الخوف من الله، الرجاء في الله.[1]

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ ووجه الاستدلال أن الله جَلَّ وَعَلَا قال ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فأمر بالإنابة، وإذ أمر بها فمعنى ذلك أنه يحبها ويرضاها ممن أتى بها، فهي إذاً داخلة في تعريف العبادة سواء عند الأصوليين أو عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهذا الدليل العام على كونها من العبادة، ما الدليل على كون هذه العبادة يجب إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بها؟ فإن في هذا: الأمر بالإنابة إلى الله جَلَّ وَعَلَا. ما دليل كون هذه العبادة وهي الإنابة لا يجوز ولا يسوغ أن يتوجه بها إلى غير الله جَلَّ وَعَلَا؟ هناك دليل عام ألا وهو أنه إذ ثبت أنه عبادة، فالأدلة العامة كقوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨]، وقوله ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون:١١٧]، وغير ذلك، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «الدعاء هو العبادة»، «الدعاء مخ العبادة» ونحو هذه الأدلة، تدل على أن أي نوع من العبادة لا يجوز أن يتوجه به إلى غير الله، ومن توجه به إلى غير الله جَلَّ وَعَلَا فقد كفر، فهذا الاستدلال العام،

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وهنـاك دليل خاص في الإنابة أنه يجب إفـراد الله جَلَّ وَعَلَا بالإنابة، وذلك في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود:٨٨] (١) في سورة هود ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ قالها شـعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا بها عن شعيب، في معرض الثناء عليه، قـال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ عليـه وحده لا غيره توكلـت، فوَّضت أمري وأخليت قلبي من الاعتماد على غيره، ومجيء الجارّ والمجرور متقدم على ما يتعلق به وهو الفعل، دل على وجوب حصرها وقصرها واختصاصها بالله جَلَّ وَعَلَا، ثم قال وإليه أنيب، فقال إليه وحده لا إلى سواه أنيبُ؛ أرجعُ محبًّا راجيًا خائفًا عن كل ما سـوى الله جَلَّ وَعَلَا إلى الله وحده، فلما قدم الجارّ والمجرور على ما يتعلق به وهو الفعل، دل على أن هذه العبادة وهي الإنابة مختصة بالله جَلَّ وَعَلَا، وهذا أتى في معرض الثناء على شعيب، وهناك أدلة أخرى.

فـإذاً هذه المسـألة مع غيرها، أحيانـًا يورد الشـيخ دليـلاً عامـًا على كونها مـن العبادة، وأحيانـًا يورد دليلاً عامـًا على كونها عبادة وخاصـًا في أنه يجب إفـراد الله جَلَّ وَعَلَا بهـا، والحمد لله ما من مسـألة من مسـائل العبـادة القلبية أو العمليـة، عمل الجـوارح أو عمل القلب أو عمل اللسـان، ما من مسـألة إلا وثَـم دليـل عـام على أنها مـن العبادة، وثم دليـل خاص علـى أن من صرفها لغيـر الله جَلَّ وَعَلَا فقـد أشـرك، وهذا والحمـد لله بيِّن ظاهر، وهـذا التوحيد في بيانـه ووضوحه وظهور براهينه وأدلته وآياته مما هو بمكان واضح ظاهر، لا يكون معه بعد ذلك حجة للمخالفين، الذين تنكبوا هذا الطريق، ولم يسلموا وجوههم لله جَلَّ وَعَلَا، ويخلصوا دينهم لله جَلَّ وَعَلَا وحده.(٢)

---

(١) وهي أيضا في سورة الشورى الآية:١٠.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وأيضـًا لأنها شيء متعلق بالقلب، ولأنها لا تقوم بالقلب إلا مع أنواع أخر من العبوديات.(١)



وَدَلِيلُ الاستِعَانَةِ: قَولُهُ تَعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وَفِي الحَدِيثِ: «... وإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بِاللهِ».

وَدَلِيلُ الاستعاذة: قَولُه تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]. **و**﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١].

وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ **الآية** [الأنفال: ٩].

ودليل الاستعانة؛ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، **وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله».**

الاستعانة: طلب العون.(٢)

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥])

هذا دليل عام في العبادات جميعـًا حيث قال ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ و﴿إِيَّاكَ﴾، كما هو معلوم ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم، أصل الكلام (نَعبُدُ إِيَّاكَ) ومن المعلوم أن المفعول به يتأخر عن فعله، فإذا قُدّم كان ثم فائدة في علم المعاني من علوم البلاغة ألا وهي أنه يُفيد الاختصاص، وطائفة من البلاغيين يقولون يفيد الحصر والقصر، وعلى العموم الخطب يسير يفيد الاختصاص أو

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

يفيد الحصر والقصر، هنا أفاد أن العبادة من خصوصيات الله جَلَّ وَعَلَا؛ خاصة بالله جَلَّ وَعَلَا. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني لا نعبد إلا أنت، ثم قال بعدها وهو مراد الشيخ بالاستدلال ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وهذه الآية من سورة الفاتحة؛ السورة العظيمة التي هي أم القرآن، التي يرددها المسلمون في صلواتهم، فيها إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، وعقد العهد والإقرار على النفس بأن القائل لتلك الكلمات لا يعبد إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كذلك لا يستعين إلا بالله جَلَّ وَعَلَا، وجه الاستدلال أنه قدم الضمير المنفصل الذي هو في محل نصب مفعول به على الفعل الذي هو العامل فيه، وتقديم المعمول على العامل يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر، فإذاً هنا أثبت أنها عبادة، وأثبت أنه لا يجوز صرفها لغير الله إذ هي مختصة بالله جَلَّ وَعَلَا. (١)

فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ: هذا فيه تقديم المعمول على العامل، المعمول إياك في محل نصب، و(نعبد) هذا هو العامل الذي نصب إياك، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر.

فمعنى إِيَّاكَ نَعْبُدُ: أي لا نعبد غيرك، فحصر العبادة في الله عَزَّوَجَلَّ.

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: حصر الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

قوة له إلا بالله ولا يقدر إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا غاية التعبد لله إذا تبرأ من الشرك وتبرأ من الحول ومن القوة فهذا غاية التعبد لله عَزَّوَجَلَّ.[(١)]

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ **وفي الحديث «إذا استعنت فاستعن بالله»**

وجه الاستدلال: أن الأمر بالاستعانة بالله رُتِّبَ على إرادة الاستعانة، قال: «إذا استعنت فاستعن بالله» يعني إذا كنت متوجها للاستعانة فلا تستعن بأحد إلا بالله؛ لأن الأمر جاء في جواب الشرط، قال «إذا استعنت»، (إذا) هذه شرطية غير جازمة، و(استعنت) هذا فعل الشرط، (إذا استعنت) إذا حصل منك حاجة للاستعانة فاستعن هذا الأمر فاستعن بالله، لما أمر به علمنا أنه من العبادة ثم لما جاء في جواب الشرط صار مُتَرَتِّبًا مع ما قبله لما يفيد الحصر والقصر.[(٢)]

الألف والسين والتاء، تأتي بمعنى الطلب، فتكون من جملة الدعاء.

استقام: ما فيها طلب، هذه من النوع الثاني. استسقى: طلب السقيا. ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة:٦٠] يعني وإذ طلب موسى السقيا لقومه، هذا نوع.

النوع الثاني؛ تأتي استفعل ويراد بها الفعل بدون طلب، كقوله واستغنى الله، وغني الله، والله غني حميد في أمثال ذلك؛ المقصود أن كثيراً ما يأتي استفعل بطلب الفعل، هنا استعان طلب العون، استعاذ طلب العوذ، استغاث طلب الغوث، وهكذا.

فإذاً إذ كان جميعًا في معنى الطلب، أو فيها معنى الطلب، يصلح دليلاً لها كل ما فيه وجوب إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بما يحتاجه المرء في طلباته، الدعاء؛ جميع

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

أدلة الدعاء تصلح لما كان فيه نوع طلب؛ أي دليل فيه وجوب إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالدعاء يصلح دليلاً بإفراد الله جَلَّ وَعَلَا بأنواع الطلب ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، يصلح دليلاً للاستغاثة، والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك.[١]

والاستعانة أنواع:

- الإستعانة بالله وهي: الإستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته وهذه لا تكون إلا لله تعالى ودليلها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ووجه الاختصاص أن الله تعالى قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ وقاعدة اللغة التي نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالى شركًا مخرجًا عن الملة.[٢]

- الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذه صرفها لغير الله شرك، من استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله فإنه قد أشرك؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.[٣]

الاستعانة بالأموات مطلقًا أو بالأحياء على أمر الغائب لا يقدرون على مباشرته فهذا شرك لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيا في الكون.[٤]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

- الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢] فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[١].

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله؛ مثل جلب الرزق ودفع الضرر، فهذا لا يكون إلا لله، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شرك أكبر؛ لأنك تستعين بمن لا يقدر على إعانتك.[٢]

- الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر فهذه لغو لا طائل تحتها مثل أن يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل.[٣]

- الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى وهذه مشروعة بأمر الله تعالى في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة:١٥٣].[٤]

فائدة

قال العلماء؛ شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم: إن عبادة غير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله. مع أن جنس الاستعانة قد يكون

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) مِن حديث أبي هريرة.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

من الربوبية يعني طلب الإعانة هو طلب لمقتضيات الربوبية، لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو مدبر الأمر، إياك نعبد هذا فيه معنى الألوهية، وإياك نستعين طلب الإعانة من الله؛ استعانة المسلم بالله، هذا فيها طلب لمقتضى الربوبية، ومن حيث كون الاستعانة طلبا صارت عبادة، ولهذا قال إن عبادة غير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، وهذا لأجل أن العبادة إذا صرفت لغير الله جَلَّ وَعَلَا فإنها يكون معها تحول في القلب الذي هو المضغة إذا صلحت صلح العمل كله صلح الجسد كله، إذا توجه بقلبه لغير الله في عبادته هذا صار قلبه فاسداً، ومقتضيات الربوبية أحيانًا تطرأ، ولهذا الإشراك في الإلهية في بعض أوجهه أعظم من إنكار بعض أفراد الربوبية ألم تر ذلك الرجل من بني إسرائيل الذي قال في وصيته إن مت فأحرقوني ثم ذروني في البحر فوالله إن قدر الله علي ليعذبني عذابًا لم يعذبه أحداً من العالمين. وغفر الله جَلَّ وَعَلَا له لأنه شك في بعض أفراد القدرة والتي هي راجعة إلى شيء من معنى الربوبية كذلك قال جَلَّ وَعَلَا عن حواريي عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢]، وأُجيبوا ولم يؤاخذوا بكلمتهم تلك؛ لأنها شك في بعض أفراد القدرة، وهذا راجع إلى شك في بعض مقتضيات الربوبية، أما العبادة لغير الله جَلَّ وَعَلَا فهي التي لا يُقبل من أحد أن يصرف شيئًا منها لغير الله، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦]، وعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لقومه ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢] وقال جَلَّ وَعَلَا لعيسى في آخر السورة؛ سورة المائدة: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ

ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]
إلى آخر الآيات...

المقصود من هذا أن ما قاله شيخ الإسلام وجماعة، أن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، هذا صحيح ومتّجه، ولهذا قدمت في سورة الفاتحة العبادة على الاستعانة؛ لأنها أعظم شأنا وأجل خطراً لأنها هي التي وقع فيها الابتلاء، ولهذا كان حرياً بأهل الإيمان أن يعتنوا بأمر إخلاص القلب لله جَلَّوَعَلَا، وتوجُّه المرء في عباداته وعبودياته لله وحده دون ما سواه.(١)



ودليل الاستعاذة؛ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس:١].

الاستعاذة: طلب الالتجاء إلى من يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.(٢)

(دليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾)

وجه الاستدلال أنه أمر نبيه الكريم أن يستعيذ برب الناس، ما دام أنه أمر به فهو عبادة قلبية، لأنه لا يأمر إلا بشيء يحبه ويرضاه، فذلك قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨] أمر بالاستعاذة به فدل على أنها عبادة.(٣)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

لا يجوز أن تستعيذ بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فمن استعاذ بقبر أو بوثن أو بأي شيء غير الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر.(١)

الاستعاذة كما ذكرت لك هي طلب العوذ، وأعوذ: معناها ألتجئُ وأعتصمُ وأتحرز، تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، معناها ألتجئ وأعتصم وأتحرز بالله من شر الشيطان الرجيم، فإذاً الاستعاذة طلب العوذ طلب المعتصَم، طلب الحِرز، طلب ما يعصم، طلب ما يحمي، هذه الاستعاذة. وإذاً هي من حيث كونها طلب، هذه ظاهرة، ومن حيث كونها فيها الاعتصام والالتجاء والتّحرُّز صارت عبادة قلبية، ولهذا قال كثير من أهل العلم:

إن الاستعاذة عبادة قلبية.

وطلب العوذ نعم يكون باللسان، بقول أحد لآخر: أعوذ بك، أعذني ونحو ذلك. ولكنها هي تقوم بالقلب؛ يعني يقوم بالقلب الاعتصام بهذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب الالتجاء لهذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب التحرز بهذا المطلوب منه العوذ، فإذا قام بالقلب هذه الأشياء وهذه الأمور صار مستعيذا، ولو لم يُفصح لسانه بطلب العوذ، يعني أنها عبادة قلبية، الاستعاذة عبادة قلبية؛ لأن حقيقتها طلب العوذ، فإذا قام بالقلب اعتصامه بالله احترازه وتحرُّزُه بالله، التجاءه إلى الله من شر من فيه شر، صار ذلك استعاذة، قد يُفصح اللسان عنها، يطلب اللهم أعذني من مُضِلاَّت الفتن، بقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ برب الفلق. ونحو ذلك، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، يعني ألتجئ وأعتصم وأتحرز بكلمات الله الكونية التامة التي لا يلحقها نقص من شر كل من فيه شر، مما خلقه الله جَلَّوَعَلَا ونحو ذلك.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

لأجل هذا المعنى قال جمع من أهل العلم: **إنه لا يجوز أن يقول قائل أعوذ بالله ثُم بك.** وذلك لأن العوذ عبادة قلبية، وهذا هو الصحيح، فإن العوذ إذا قيل أعوذ بالله ثم بك، الاستعاذة عمل قلبي بحت، لهذا لا يصلح أن يتعلق بغير الله جَلَّ وَعَلَا.

وقال آخرون من أهل العلم: **الاستعاذة طلب للَّجَئ والاحتراز والاعتصام**، وقد يكون المطلوب منه يمكن ويملك أن يعطي هذا معتصماً، وأن يقيه شراً، مثلاً: يأتي واحد من الناس إلى قوي من الناس إلى كبير، ملك، أو أمير أو رئيس قبيلة أو نحو ذلك، فيقول له أعوذ بك، أو أعوذ بالله ثم بك من شر هذا الذي أتاني؛ رجل مثلاً يأتي يطلبه بشيء، يقولون هذا يمكن أن يكون؛ يعني أن يقيه شراً أن يمنعه ممن يريد به سوءاً، يمكن أن يكون ممن يقدر عليه البشر، فإذا كان بهذا المعنى يجوز أن يقول أعوذ بك بمخلوق، أعوذ بالله ثم بك بمخلوق.

ولكن قَول أعوذ بك، هذا أبعد في الإجازة، وأما قول أعوذ بالله ثم بك، فهذا من راع المعنى الظاهر، وإمكانَ المخلوق أن يعيذ صححه وقال لا بأس أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ولكن الأظهر أن العوذ عبادة قلبية، وأنها إنما تكون بالله جَلَّ وَعَلَا، وهذا على نحو ما مرنا بقوله: توكلت على الله ثم عليك ونحو ذلك، فمن أهل العلم من يجيز مثل هذه الألفاظ مع أن أصلها عمل قلبي؛ عبادة قلبية، مراعياً الظاهر ما يراعي تعلق القلب، مُراعيا الحماية الظاهرة، مُراعياً التحرز الظاهر، مُراعيا الاعتصام الظاهر، ومنهم من لم يجزها مراعيا أنها عبادة قلبية، وأنك إذا أجزتها في الظاهر فإنه قد يكون تبعاً لذلك الإجازة تعلق القلب عند من لا يفهم المراد.

وعلى العموم هما قولان مشهوران حتى عند مشايخنا المفتين في هذا الوقت ومن قبل.[١]

والاستعاذة أنواع:

الأول: الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، بشر أو غير بشر ودليلها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق:١-٢] إلى آخر السورة وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس:١-٤] إلى آخر السورة.

الثاني: الاستعاذة بصفة ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[٢] وقوله: «أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[٣] وقوله: في دعاء الألم «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[٤]، وقوله: «أعوذ برضاك من سخطك»[٥]، وقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] فقال: «أعوذ بوجهك»[٦].

الثالث: الاستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره.
(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢/ ٢٥، والنسائي ٨ / ٦٧٧.
(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢١٧، وأبو داود (٣٨٩١)، وأبن ماجه (٢٥٢٢).
(٥) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود.
(٦) أخرجه البخاري، كتاب الإعتصام، باب: قوله تعالى ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾

العوذ فهذا شرك ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن:٦](١)

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي، أي: كبير الجن، يستعيذ به من شر سفهاء قومه.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبطلًا لذلك ومبينًا لما يشرع بدله: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»(٢).

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات الله التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.(٣)

الرابع: الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز ودليله قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذكر الفتن: «من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به»(٤) متفق عليه.

وقد بين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الملجأ والمعاذ بقوله: «فمن كان له إبل فليلحق بإبله» الحديث رواه مسلم، وفي صحيحه أيضًا عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتى بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعاذت بأم سلمة(٥)

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) مِن حديث خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب، باب الفتن، باب: تكون الفتنة القاعد فيها خير من القائم. ومسلم، كتاب الفتن، باب: نزول الفتن كمواقع القطر.

(٥) رواه ومسلم، كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره.

الحديث، وفي صحيحه أيضًا عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث»[(١)] الحديث.

ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيواؤه.[(٢)]

ودليل الاستغاثة؛ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٩].

الاستغاثة: هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من الله والنجاة من هذه الشدة.[(٣)]

والغوث يُفسر بأنه الإغاثة، المدد، النصرة ونحو ذلك، فإذا وقع مثلاً أحد في غرق ينادي أَغثني أغثني، يطلب الإغاثة، يطلب إزالة هذا الشيء، يطلب النصرة.[(٤)]

وجه كونها عبادة أن الله جَلَّوَعَلَا قال هنا ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ وجه الاستدلال أنه أتى بها في معرض الثناء عليهم، وأنه رتّب عليها الإجابة، وما دام الله جَلَّوَعَلَا رتّب على استغاثتهم به إجابته جَلَّوَعَلَا دل على أنه يحبها، وقد رضيها منهم، فنتج أنها من العبادة، و(**إِذ**) هنا بمعنى حين ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ يعني حين ﴿تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، وتلاحظ أنّ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب: الخسف بالجيش يؤم البيت.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الآية هنا ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وقبلها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ الاستغاثة كما ذكرت لك والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك، تتعلق بالربوبية كثيراً، هنا ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ قال قبلها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ لأن حقيقتها من مقتضيات الربوبية، من الذي يُغيث؟ هو المالك، هو المدبر، هو الذي يُصرِّف الأمر، وهو ربّ كل شيء جَلَّ وَعَلَا.

الاستغاثة عمل ظاهر، ولهذا يجوز أن يستغيث المرء بمخلوق، لكن بشروطه، وهي أن يكون هذا المطلوب منه الغوث، أن يكون: **حيًا، حاضراً، قادراً، يسمع**، فإذا لم يكن حيًا كان ميتًا صارت الاستغاثة بهذا الميت كفراً، ولو كان يسمع ولو كان قادراً، مثل الملائكة أو الجن، قلنا أن يكون حيًا حاضراً قادراً يسمع، صحيح؟ طيّب، إذا لم يكن حيا كان ميتًا، ولو اعتقد المستغيث أنه يسمع وأنه قادر، فإنه إذ كان ميتًا فإن الاستغاثة به شرك. الأموات جميعًا لا يقدرون على الإغاثة لكن قد يقوم بقلوب المشركين بهم أنهم يسمعون، وأنهم أحياء مثل حال الشهداء، وأنهم يقدرون مثل ما يزعم في حال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونحو ذلك، فنقول إذ كان ميتا فإنه لا يجوز الطلب منه، قالوا فما يحصل يوم القيامة من استغاثة الناس بآدم ثم استغاثتهم بنوح إلى آخر أنهم استغاثوا بنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقول هذا ليس استغاثة بأموات، يوم القيامة هؤلاء أحياء، يُبعث الناس ويُحيَون من جديد، كانوا في حياة ثم ماتوا ثم أعيدوا إلى حياة أخرى. فهي استغاثة بمن؟ بحي، حاضر، قادر، يسمع. بهذا ليس فيما احتجوا به من حال أولئك الأنبياء يوم القيامة حُجة على جواز الاستغاثة بغير الله جَلَّ وَعَلَا، والاستغاثة بغير الله جَلَّ وَعَلَا أعظم كفراً من كثير من المسائل التي صَرفها لغير الله جَلَّ وَعَلَا شرك، إذاً فالشروط:

١- أن يكون حيًا: إذا كان ميّتًا لا يجوز الاستغاثة به.

٢- أن يكون حاضراً: إذا كان غائبًا لا يجوز الاستغاثة به؛ حي قادر لكنه غائب. مثل لو استغاث بجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فليس بحاضر، حي نعم، وقادر قد يطلب منه ما يقدر عليه، ولكنه ليس بحاضر؛ مثل أن يطلب من حي قادر من الناس؛ يَطلب من ملك يملك أو أمير يستغيث به أغثني يا فلان، وهو ليس عنده، مع أنه لو كان عنده لأمكن بقوَّته، لكنه لما لم يكن حاضرا صارت الاستغاثة تعلُّق القلب بغير حاضر هذا شرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

٣- أن يكون قادرًا: إذا لم يكن قادرا فالاستغاثة به شرك، ولو كان حيًا حاضراً يسمع، مثل لو استغاث بمخلوق بما لا يقدر عليه، وهو حي حاضر يسمعه، وتعلق القلبُ قلب المستغيث على هذا النحو، تعلق قلبُه بأن هذا يستطيع ويقدر أن يغيثه، بمعنى ذلك أنه استغاث بمن لا يقدر على الإغاثة، فتعلق القلب بهذا المستغاث به، فصارت الاستغاثة وهي طلب الغوث شركًا على هذا النحو.

٤- وكذلك يسمعُ: لو كان حيًا قادراً، ولكنه لا يسمع، حاضر لا يسمع كالنائم ونحوه، كذلك لا تجوز الاستغاثة به.

وقد تلتبس بعض المسائل بهذه الشروط في أنها في بعض الحالات تكون شركًا أكبراً، وفي بعض الحالات يكون منهي عنها من ذرائع الشرك، ونحو ذلك. مثل الذي يسأل ميت، يسأل أعمى بجنبه، أو يسأل مشلول بجنبه أن يغيثه ونحو ذلك.

المقصود أن العلماء اشترطوا لجواز الاستغاثة بغير الله جَلَّ وَعَلَا: أن يكون المستغاث به حيًا حاضراً قادراً يسمع.[1]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

والاستغاثة أنواع:

الأول: الاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ وهذا من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرسل وأتباعهم، ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال:٩] وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المشركين في ألف رجل وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فدخل العريش يناشد ربه عَزَّوَجَلَّ رافعاً يديه مستقبل القبلة يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة الإسلام لا تعبد في الأرض»[(١)] وما زال يستغيث بربه رافعاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رداءه فألقاه على منكبيه ثم ألتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك وعدك فأنزل الله هذه الآية.[(٢)]

الثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ وهذا شرك، فمن استغاث بغير الله من جن أو إنس أو غائبين أو أموات فإن هذا شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فالاستغاثة بالأموات وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.[(٣)]

الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة فهذا شرك؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون فيجعل لهم حظاً من الربوبية قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: ٦٢].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الثالث: الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة فهذا جائز كالاستعانة بهم قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

الرابع: الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به فيمنع منه لهذه العلة، ولعلة أخرى وهي الغريق ربما أغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة.(١)

سؤال/ يقول هل البيت المعروف عند الناس وامعتصماه، شرك في الاستغاثة ولماذا؟

هذا الذي يقول: «رُبَّ وامعتصماه انطلقت»، القصة هذه لا نُثبتها، أي أن المرأة نادت المعتصم وقالت: وامعتصماه، أو أين المعتصم مني، أو يا معتصماه، هذه ليست بثابتة تاريخيًا، لكن أخبار التاريخ كما هو معلوم كثيرة لا يمكن أخذ التثبت منها.

وامعتصماه هذه لها احتمالات، احتمال أن تكون نُدبَة، واحتمال أن تكون نداء واستغاثة. وعلى كلٍ، إذا كان هذا الغائب لا يسمع الكلام، أو لا يعتقد أن الكلام سيصل إليه، فإنه يكون شركًا؛ لأنه استغاث بغير الله جَلَّوَعَلَا، فإن كان من باب النُّدبة فإن باب الندبة فيه شيء من السعة، والأصل أن الندبة تكون لسامع، كذلك الاستغاثة لما يُقدَرُ على الاستغاثة فيه تكون لحي حاضر سامع يقدر أن يغيث، وهذا كان على القصة هذه لو كانت المرأة قالتها المعتصم لا يسمعها وليس قريبًا منها، فيحتمل إن كان مرادها أنه يمكن أن يسمعها؛

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

يقوم بقلبها أنه يمكن أن يسمعها دون واسطة طبيعية، ودون كرامة خاصة لها من الله جَلَّ وَعَلَا، هذا شرك من جنس أفعال المشركين، وإن كان مقصودها أن يوصل ويصل إلى المعتصم طلبها واستغاثتها بواسطة من سمعها كما حصل فعلاً فهذا ليس بشرك أكبر مخرج من الملّة.

فتلخص أن هذه الكلمة محتملة، والأصل؛ القاعدة في مثل هذه الكلمات المحتملة لا يجوز استعمالها المحتملة لشرك لا يجوز استعمالها؛ لأن استعمالها يخشى أن يوقع في الشرك أو يفتح باب الشرك.(١)



وَدَلِيلُ الذَّبحِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ»

وَدَلِيلُ الذَّبحِ: قَولُهُ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾

الذبح الذي هو النحر، والذبح يشمل النحر الخاص ويشمل الذبح الذي هو قسيم النحر لأن: النحر: هو الطعن بسكين أو بالحَربَة في الوَحدة، مثل ما يُفعل بالإبل كما تعلمون هي لا تذبح ذبحاً، لكن هي تطعن في وَحدتها وإذا طُعنت وحُرِّكت السكين واندثر الدم وماتت، ليس ثَم ذبح. كذلك البقر قد تُنحر.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وأما الذبح: فيكون في الغنم من الضأن والماعز وكذلك في البقر.

الذبح والنحر عبادة، المقصود منها إراقة الدم، وإراقة الدم من حيث هو لا يكون إلا بتعلقٍ للقلب، فإذا أراق الدم لله جَلَّ وَعَلَا تعلق القلب بالله جَلَّ وَعَلَا. فالذبح عبادة ظاهرة يتبعها أو يكون معها عبادة باطنة قلبية، فمن ذبح لغير الله وقع في شرك ظاهر؛ لأن هذه عبادة صرفها لغير الله، وكذلك قلبه تعلق بغير الله فصار شركه من جهتين.

وجه الاستدلال من قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أنه قال ﴿وَنُسُكِي﴾ والنسك فُسِّرت بعدة تفسيرات عن السلف منها الذبح والنحر وهذا كما قال جَلَّ وَعَلَا في الآية الأخرى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر:١٢]، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أمره بأن يوحد الله جَلَّ وَعَلَا بالصلاة، وكذلك أمره بالنحر لربه جَلَّ وَعَلَا وحده، إذاً النسك هنا الذبح.

قال ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ الصلاة لمن؟ لله. وجه اللام هنا أنها لام الاستحقاق، قل إن صلاتي لله، يعني صلاتي مستحقة لله، هذا وجه الاستدلال. ونسكي لله، يعني نسكي الذي هو ذبحي مستحق لله وحده لا شريك له. ومحياي لله ومماتي لله، هذه لام أخرى وهي لام المِلك، الصلاة والنسك لله استحقاقا، والمحيى والممات لله مُلكا؛ لأننا اللام قلنا أنها تأتي للاستحقاق وتأتي للملك تذكرون؟ في هذه الآية جعل هذه الأفعال الأربعة الصلاة والنسك والمحيى والممات جعلها جميعًا باللام مؤخرة، بقوله ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ لكن تختلف، الصلاة والنُّسُك لله استحقاقا، والمحيى والممات لله جَلَّ وَعَلَا مُلكا، فجمعت هذه الآية بين توحيدي الله جَلَّ وَعَلَا: في إلهيته وهو الأول، وفي ربوبيته وهو الثاني. قل إن

صلاتي ونسكي لله، هذا توحيد لله جَلَّوَعَلَا في إلهيته، ومحياي ومماتي لله هذا توحيد لله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته، فكما أنه جَلَّوَعَلَا هو مالك محياي ومماتي، فكذلك هو المستحق لصلاتي ونسكي، قال جَلَّوَعَلَا لنبيه قل إن صلاتي ونسكي مستحقة لله، ومحياي ومماتي ملك لله جَلَّوَعَلَا ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فذكر الربوبية ثم ذكر الألوهية، ثم بيَّن أن هذا من علامات الإسلام العظيمة فقال ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ وهذا وجه استدلال آخر إذ أن هذه مأمور بها، قال ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾.

الذبح كما أنه عمل ظاهر وهو إراقة الدم، والدم الذي بَثَّهُ في أعضاء المذبوح هو الله جَلَّوَعَلَا، وهو علامة الحياة، فلا يُزهق إلا لمن خلَقه، ولمن بثه في أعضاء من به الحياة.

ولهذا قال العلماء إن العبد حال الذبح يجتمع في قلبه أنواع من العبوديات:

- منها الذل لربه جَلَّوَعَلَا.
- ومنها التعظيم له جَلَّوَعَلَا.
- ومنها الرجاء؛ رجاء ما عنده حال ذبحه.
- ومنها طلب البركة؛ لأنه ما ذبح إلا لله.

وهذه كلها عبادات قلبية، فكما أن الذبح عمل ظاهر؛ به تحريك اليد، تحريك اللسان ببعض القول، كذلك يقوم بالقلب حال الذبح أنواع من العبوديات، قد ما يقوم بالقلب شيء البتة، مثل ما يُذبح لضيافة أو نحو ذلك، فهذا يجب أن يكون ظاهرا لله جَلَّوَعَلَا وحده، وإذا اجتمع أن يكون في الذبيحة، أن تكون اجتمعت فيها العبادة الظاهرة والعبادة الباطنة؛ العبادة القلبية، كانت أكمل في رجاء ثواب الذبح، ولو كان في الأمور العادية من ضيافة ونحوها،

فيكون الذبح لله جَلَّ وَعَلَا ظاهراً لم يُرد بهذا إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وباسمه لم يذكر إلا اسم الله جَلَّ وَعَلَا، ثم يكون بالقلب ذل لله جَلَّ وَعَلَا وخضوع وتعظيم ورجاء المثوبة منه وحده، فتجتمع العبادات القلبية وعبادات الجوارح حال الذبح.

لهذا، الذبح من العبادات العظيمة، لكن قد يغفل الناس عن تعلق القلب وفعل الجوارح حين الذبح، وكيف تكون لله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا على طالب العلم أن يتعلم هذا إن لم يحسنه، يتعلم كيف يكون حال الذبح؛ حال ذبحه لذبيحته للأضحية وهي آكد وآكد وآكد، أو لغيرها، أن يكون موحداً تماماً، يرجو في ذبحه أن يكون على غاية من العبودية في لسانه وقلبه وجوارحه؛ لأنه فيه حركة لسان للتسمية والتكبير، وفيه عمل القلب بأنواع من العبوديات ذكرت بعضها، وفيه أيضاً حركة اليد، وهذا كله مما يجب أن يكون لله جَلَّ وَعَلَا وحده.

قال (ومن السنة «**لعن الله من ذبح لغير الله**») وجه الاستدلال: أن من ذبح لغير الله لم يذبح لله، وإنما ذبح لغيره، أنه ملعون لعنه الله، وهذا الدعاء من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله «**لعن الله من ذبح لغير الله**» يدل على أن الذبح لغير الله كبيرة من الكبائر، وإذا كانت كذلك فهي إذاً يُبغضها الله جَلَّ وَعَلَا، وإذا كان يُبغض الله جَلَّ وَعَلَا الذبح لغيره، معنى ذلك أن الذبح له وحده محبوب له، في مقابلة، فيستقيم بذلك الاستدلال.(١)

الذبح على أربعة أقسام

الأول: الذبح على وجه التقرب والتعظيم لأحد ما، وهذا لا يجوز إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن ولا للشياطين

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

ولا للملوك والرؤساء تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة لا تجوز إلا لله عَزَّوَجَلَّ.[(١)]

بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى، وصرفه لغير الله شرك أكبر ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.[(٢)]

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرهم، أو من أجل شفاء المرضى، كما يفعله الكهان والمنجمون الذين يدعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم الله عليه، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا الذي قال الله تعالى محذرًا من فعله لغير الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢] وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] أي: واذبح لربك.[(٣)]

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة، والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح على وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجمع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد ولا تقرب لأحد، وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الرابع: الذبح من أجل التصدق باللحم على الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سنة وهو داخل في العبادة.[(١)]



ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾[الإنسان: ٧]

النذر: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذر أن يصوم، أو ينذر أن يتصدق بكذا. فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»[(٢)].

والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا لله، فمن نذر لقبر أو صنم أو غير ذلك فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو نذر معصية وشرك، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».[(٣)]

والنذر مكروه؛ لأن فيه إلتزامًا، وفيه مشقة. ولهذا نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن النذر وقال: «إن النذر لا يأتي بخير»، ولكن إذا نذر طاعة لزمه الوفاء؛ لقول الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَن نذر أن يطيعَ اللهَ؛ فليطعه». فإذا نذر عبادة من صلاة أو صوم أو غيرهما لزمه الوفاء لما تقدم.[(٤)]

والنذر هو إلزام الإنسان نفسه بشيء ما، أو طاعة لله غير واجبة مكروه،

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) و(٦٧٠٠) مِن حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٤) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

وقال بعض العلماء إنه محرم لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل»[١] ومع ذلك فإذا نذر الإنسان طاعة لله وجب عليه فعلها لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»[٢]،[٣]

وتارة يكون النذر مطلقًا، وتارة يكون بالمقابلة مُقيّد، والنذر المطلق غير مكروه، والنذر المقيد مكروه.

لهذا استشكل جمع من أهل العلم؛ استشكلوا كون النذر عبادة مع أن النذر مكروه، والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في النذر «إنه لا يأتي بخير وإنما يُستخرج به من البخيل يقولون»: إذا كان مكروهًا كيف يكون عبادة؟ ومعلوم أن العبادة يحبها الله جَلَّ وَعَلَا، والنذر يكون مكروهًا كما دل عليه هذا الحديث، فكيف إذاً كان مكروهًا يكون عبادة؟ وهذا الاستشكال منهم غير وارد أصلاً؛ لأن النذر ينقسم إلى قسمين: نذر مطلق، ونذر مقيد.

النذر المطلق: لا يكون عن مقابلة، وهذا غير مكروه، أن يوجب على نفسه عبادة لله جَلَّ وَعَلَا بدون مقابلة، فيقول لله عليَّ نذر، مثلاً يقول قائل: لله عليَّ نذر أن أصلّي الليلة عشرة ركعات طويلات. بدون مقابلة، هذا إيجاب المرء على نفسه عبادة لم تجب عليه دون أن يقابلها شيء، هذا النوع مطلق، وهذا محمود.

النوع الثاني المكروه: وهو ما كان عن مقابلة، وهو أن يقول قائل مثلاً:

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب: إلقاء العبد النذر إلى القدر. ومسلم، كتاب النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان والنذور، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية.

(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

إن شفى الله جَلَّ وَعَلَا مريضي صُمتُ يومًا، إن نجحت في الاختبار صليت ركعتين، إن تزوجت هذه المرأة تصدقت بخمسين ريالاً مثلاً أو بمائة ريالاً. هذا مشروط يوجب عبادة على نفسه، مشروطة بشيء يحصل له قَدَراً، من الذي يحصل الشيء ويجعله كائنًا؟ هو الله جَلَّ وَعَلَا. فكأنه قال إن أعطيتني هذه الزوجة، وإن يسرت لي الزواج بها، صليت لك ركعتين أو تصدقت بكذا. إن أنجحتني في الاختبار صمت يومًا ونحو ذلك، وهذا كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «إنما يُستخرج به من البخيل» لأن المؤمن المقبل على ربه ما يعبد الله جَلَّ وَعَلَا بالمقايضة، يعبد الله جَلَّ وَعَلَا ويتقرب إليه لأن الله يستحق ذلك منه، فهذا النوع مكروه. النوع الأول محمود، وهذا النوع مكروه.



الوفاء بالنذر

والوفاء بالنذر في كلا الأمرين واجب كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» فتحصل عندنا أن النذر في أربعة أشياء: نذر محمود نحن ما نقول نذر مشروع فيفهم أحد أنه واجب أو مستحب، لا، نقول محمود، غير مكروه في الشرع، محمود وهو المطلق الذي ما فيه مقايضة ولا مقابلة.

النوع الثاني مكروه وهو الذي يكون عن مقابلة، الوفاء بالأول بنذر التبرّر والطاعة واجب، الوفاء بالثاني حتى ولو كان مكروها واجب، وهو الذي أثنى الله جَلَّ وَعَلَا على أهله في الحالين بقوله ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ لأنه أوجب على نفسه، فلما كان واجبًا صار الوفاء به واجبًا، فامتثل للوجوب الذي أوجبه على نفسه لأنه يخشى عقابه، فتحصّل من هذه الأربع منها اثنتان واجبتان

وهما الوفاء، وواحد محمود، وواحد مكروه، ولهذا صار غالب الحال إذ كان عبادة صار غالب الحال هو الحال التي أنه محمود فيها أو واجب.

وبهذا صار النذر عبادة من العبادات التي يرضاها الله جَلَّوَعَلَا ويحبها، إلا في حال واحدة وهي حال نذر المقابلة.

اتضح لكم هذا المقام؟ لأن بهذا التحرير تخلصون من إشكالات عِدَّة، ربما أوردها عليكم خصوم الدعوة والخرافيون في مسألة النذر. ظاهر؟ تأملوها لأنه قد لا تجد هذا التحرير في كثير من الكتب.

قال: (**ودليل النذر قوله تعالى**: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾)

وجه الاستدلال: أن الله جَلَّوَعَلَا امتدحهم بذلك بأنهم يوفون بالنذر، وإذ امتدحهم بذلك دل على أن هذا العمل منهم وهو الوفاء بالنذر أنه محبوب له جَلَّوَعَلَا، فثبت أنه عبادة لله جَلَّوَعَلَا.[(١)]

وجه الدلالة من الآية أن الله أثنى عليهم لإيفائهم النذر وهذا يدل على أن الله يحب ذلك، وكل محبوب لله من الأعمال فهو عبادة.[(٢)]

والنذر له شقان: الشق الأول النذر والثاني الوفاء به، وكلا الأمرين إذا صُرفت لغير الله جَلَّوَعَلَا فهي شرك.

- من نذر لغير الله، أن ينذر لأصحاب المشاهد والأولياء أو القبور، ينذر للمشهد الفلاني، ينذر مثلاً للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو أن ينذرَ لأحد من الموتى، ينذر لفاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أو ينذر لأحد آل البيت، أو لخديجة، أو ينذر لأحد من

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الأولياء أو نحو ذلك، يقول: عليَّ نذر للولي الفلاني، ولو كان غير مقابلة هذا إيجاب على نفسه عبادة لمن؟ لغير الله فصار شركًا أكبر.

- القسم الثاني أن يقول: إن شفى الله لا حظ إن شفى الله مريضي فللولي الفلاني عليَّ نذر بكذا وكذا، فهذا على المقابلة، ولو كان على هذا النحو، فصرفه لغير الله جَلَّ وَعَلَا شرك؛ لأن القول الأول منه وهو قوله (إن شفى الله مريضي) هذا ربوبية، وقوله (فللولي الفلاني علي نذر) هذا شرك في العبودية، هو أقر بالربوبية ولكنه أشرك بالعبودية، هذا جهة النذر، الوفاء لأصحاب القبور أو نحوهم، أو الجن، أو الملائكة، هذا كله شرك، فلو حصل منها النذر لغير الله فلا يجوز أن يوفِي به، فإن وفَّى به لغير الله سيكون ذلك شرك بعد شرك، لهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، يدخل في ذلك إذا كان النذر لغير الله جَلَّ وَعَلَا.

قال ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ مدحهم بذلك، فدل أن وفائهم بالنذر عبادة يحبها الله جَلَّ وَعَلَا.[1]

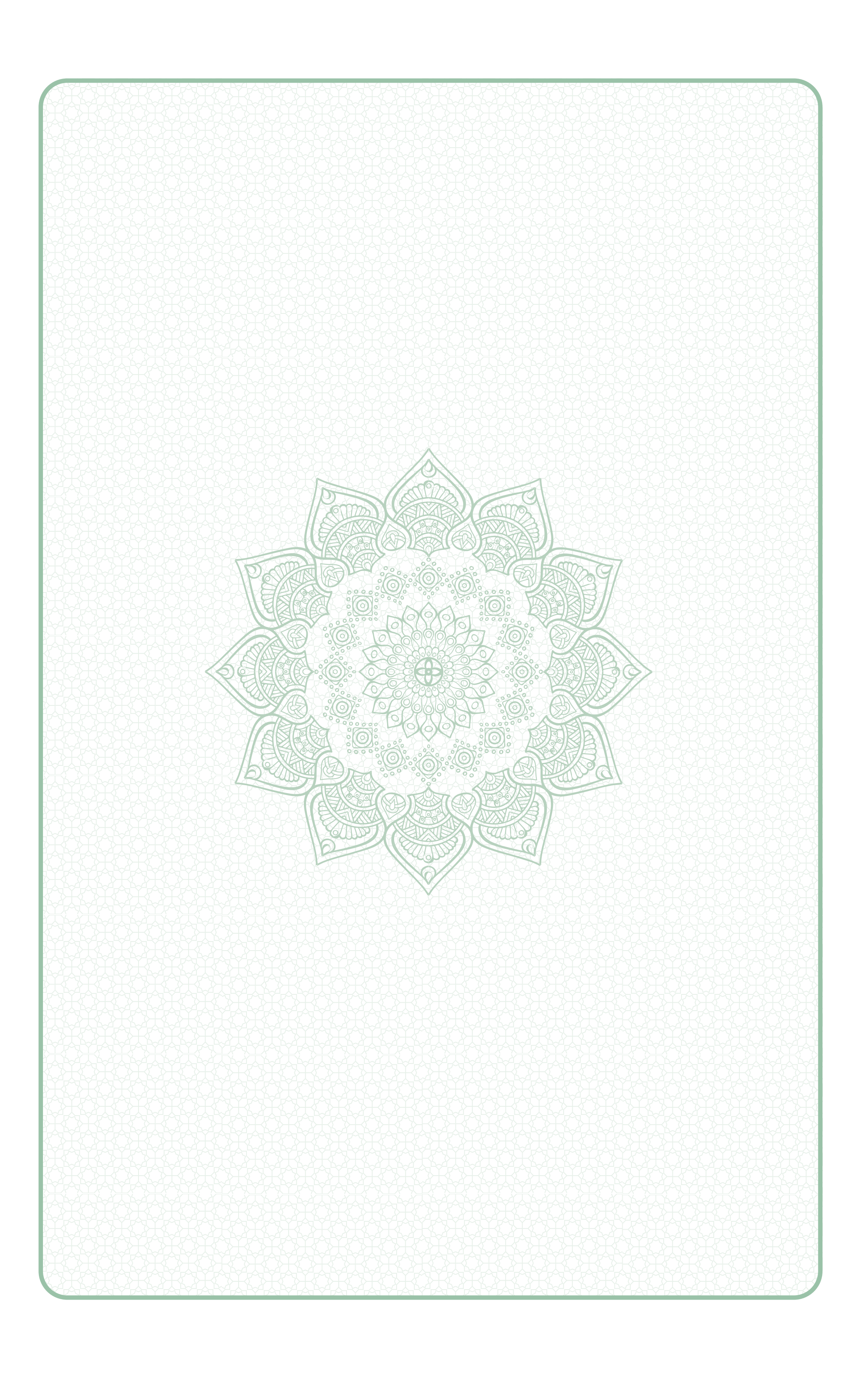
الخلاصة:

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها فهو مشرك وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة لأن عباد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم فيها وإلا فكل نوع من انواع العبادة من صرفه لغير الله أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك.[2]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) تيسير العزيز الحميد.



الأَصلُ الثَّانِي

مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلامِ بِالأَدِلَةِ

وَهُوَ: الاستِسلامُ للهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ

الأَصلُ الثَّانِي مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلامِ بِالأَدِلَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى إله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذه الرسالة تسمى ثلاثة الأصول وأدلتها، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأجزل له المثوبة الأصل الأول، فيما مرّ معنا وهو معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد ربه، يعني به معرفة العبد معبوده؛ لأن الرب هنا بمعنى المعبود، والربوبية بهذا الموقع بمعنى العبادة، لأن الابتلاء وقع فيها، هذا أصل من الأصول، والمقبور أو الميِّت يُسأل أول سؤال عن ربه، يعني عن معبوده الذي كان يعبده، من هو؟ فإن كان يعبد الله وحده لا شريك له، أجاب بأن معبودي ربي الله يعني وحده لا شريك له، وإن كان يعبد مع الله آلهة أخرى والعياذ بالله، قال: ربي الله، وربي فلان، وربي فلان، وربي فلان. من المعبودات المختلفة، يعني معبودي فلان، ومعبودي فلان، ومعبودي فلان، مع الله جَلَّ وَعَلَا فيسأله منكر ونكير عن دينه: ما دينك؟ فلهذا كان لزاماً أن يتعلم العبد دينه بأدلة ذلك، حتى يخرج عن التقليد، ويكون اعتقاده بهذا عن علم ومعرفة وبصيرة، لا على وجه المتابعة للناس، ولهذا جاء في بعض طرق السؤال وأما المنافق

أو قال الفاجر فيقول: «ها، ها، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.» وهذا يدل على أنه يرى معهم، على التقليد، وأن التقليد لا يسوغ في أصول الدين، هذه الأصول الثلاثة، التقليد في دين الإسلام، التقليد في العبادة، التقليد في الشهادة بأن محمد رسول الله، لا يكفي؛ فإذا قال قائل: أنا مسلم بحكم أني في بلد إسلام. وهو لم يعتقد هذه الأمور اعتقاداً عن علم، ولو لمرة في حياته، ولو كانت قبل البلوغ فإنه لا يخلص من التبعة، فلا بد أن يعتقد ما يجب اعتقاده عن معرفة، وهي هذه الأصول الثلاثة، وعن معرفة وعلم ودليل، ولهذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ترى توسّع في الأدلة، كل مسألة يذكرها يذكر دليلاً عليها، لأن المتعلم لهذا يخرج به عن رِقَّة التقليد لمن علّمه، فيكون اعتقاده كان عن دليل، ولهذا ينبغي تعليم الصغار المميزين هذه الرسالة أو الكبار، يُعلَّمونها بأدلتها لا على وجه التفصيل كما نذكر في هذا الشرح، لكن نتعلم أن العبادة معناها كذا ودليلها كذا، فيعتقدها بدليلها، يعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي فرض هذا الشيء، وهذا دليل المسألة، فيخرج عن رِبقَة التقليد بهذه المسائل العظام.(١)

لما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول وهو معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأدلة، انتقل إلى بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **معرفة دين الإسلام:**

الدين يراد به الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهى.

ويطلق الدين ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ [الانفطار:١٧-١٨] أي: يوم الحساب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

قوله: **بالأدلة**، أي: أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد أو تكون بالتخرص من عند الإنسان، الدين لا بد له من أدلة من الكتاب والسنة، أما الإنسان الذي لا يعرف دينه وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس فهذا لن يعرف دينه وَحَرِيٌّ به أنه «إذا سئل عنه في القبر أن يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، فواجب على الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يعرف هذا إلا بالتعلم.(١)

ما هو الإسلام؟ قال:

(وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والخُلوص من الشرك)(٢)

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنى العام، فكل من اتبع رسولاً من الرسل فهو مسلم لله عَزَّوَجَلَّ منقاد له، موحد له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعاً، فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث الله به نبيه محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه بعد بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا دين إلا دينه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والإسلام انحصر في اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم، بعد بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يتبعه، فالإسلام

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

بعد بعثة النبي هو اتباعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] هذا هو الإسلام بمعناه العام وبمعناه الخاص.[1]

والإسلام يُراد به تارة الإسلام العام، ويراد به تارة الإسلام الخاص؛ يأتي هذا في القرآن وهذا.

فالإسلام العام: يراد به الإسلام الذي خوطب به جميع الناس من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يرث الله جَلَّ وَعَلَا الأرض ومن عليها، بل خوطب به جميع المخلوقات كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران:٩٨] أسلم له كل شيء كما قال ورقة بن نفيل فيما أحسب قال:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمني له المزن تحملُ عذبًا زلالاً.

فالإسلام هذا العام، (**الاستسلام لله**) استسلام لله عن طواعية واختيار، هذا الإسلام العام الذي خوطب به جميع الخلق، حصل التكليف على آدم وبنيه قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢]، يعني حمل الإنسان الأمانة، وهي أمانة التكليف بالإسلام، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وهذا هو الإسلام العام الذي دعا إليه كل رسول وكل نبي من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الجميع يدعو إلى الإسلام، وهذا الإسلام يسميه العلماء الإسلام العام؛ الذي يشترك فيه جميع الرسل.

أما **الإسلام الخاص**: فهو القسم الثاني، وهو المراد ها هنا، فمعرفة دين

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

الإسـلام لا يريد دين الإسلام العام، وإنما بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار المقصـود بالإسـلام الذي طُلب من النـاس أن يدينوا بـه، وأن يعتقدوه، هو الإسلام الذي جاء به النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو دين الإسلام الخاص، حتى صار الإطلاق؛ إذا أطلق الإسلام لا يراد به إلا دين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الذي يشمل عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام.

ثبـت في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يسـمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أكبّه الله في النار»، «لا يسـمع بي» يعني ببعثتي برسـالتي، وبما أرسـلت به، ثم لا يؤمن بي أحد من هـذه الأمة ولا يهودي ولا نصـراني، وفي الرواية الأخرى «أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني»، المراد أمة الدعوة، «ثم لا يؤمن بي إلا أكبه الله في النار»، فمن كان على دين الإسـلام العـام، وقد بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يقبل منـه، لا يقبـل بعد بعثة النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحد إلا أن يتبع دين الإسـلام الخـاص، يعني الذي بُعث به النبـي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو المراد ها هنا، وهو الذي يحصل به الابتلاء في القبر والفتنة في القبر، يحصل الابتلاء والفتنة بدين الإسلام الذي بُعث به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[1]

(هو الاستسلام لله بالتوحيد)

الإسلام مأخوذ من أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية له عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]. ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] أي أخلص عمله لله عَزَّوَجَلَّ، وانقاد لله عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام لله بالتوحيد، وهو إفراد الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة، وهذا هو معنى التوحيد، فمن عبد الله وحده لا شريك له فقد استسلم له.(١)

أي بأن يستسلم العبد لربه استسلامًا شرعيًا وذلك بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وافراده بالعبادة، وهذا الإسلام هو الذي يحمد عليه العبد ويثاب عليه، أما الاستسلام القدري فلا ثواب فيه لأنه لا حيلة للإنسان فيه قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].(٢)

الاستسلام أن يكون فاعله؛ فاعل الاستسلام كهيئة المستسلم، والمستسلم لغيره تابع له لا يفعل إلا ما يريد، خلُص قلبه إلا من رغبة من استسلم له، ولو قال وهو الإسلام لله بالتوحيد لصح تعريفه، فالاستسلام هنا بمعنى الإسلام، وله أسلم، ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، كلها بمعنى الاستسلام والإسلام؛ الإسلام لله والاستسلام لله بمعنى واحد قيَّدَها في هذا الموضع بقوله (بالتوحيد) والتوحيد يشمل توحيد الله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، والمقصود الأخص من هذه الثلاثة توحيد العبادة لأن الخصومة وقعت فيه، ومعلوم أن توحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية ولتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

ثم قال (**والانقياد له بالطاعة**)

الانقياد لله جَلَّ وَعَلَا بالطاعة، يعني أن يكون منقاداً غير ممانع ولا متولٍّ عن طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، إنما ينقاد ويذعن، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور:٥٤]، أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، يعني الانقياد لله وللرسول، فيما أمر الله جَلَّ وَعَلَا به وفيما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال فإن تولوا وأعرضوا ولم يذعنوا ولم ينقادوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ يعني على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ ما حمل إياه وهو الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وهو الاستجابة لله وللرسول، فإذاً هنا الانقياد له، بالطاعة لله جَلَّ وَعَلَا، بطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بعث بهذا الإسلام الأخير.(١)

قال (**والبراءة من الشرك وأهله**)

البراءة معناها الانقطاع والاعتزال، والبعد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين؛ لأنهم أعداء الله عَزَّوَجَلَّ فلا تتخذهم أولياء، إنما تتخذهم أعداء؛ لأنهم أعداء الله ولرسوله ولدينه فلا تحبهم ولا تواليهم، وإنما تقاطعهم في الدين وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداء لربك وأعداء لدينك، فكيف تواليهم وهم أعداء الإسلام؟!.

لا يكفي أنك تستسلم لله وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك ولا من المشركين، هذا لا يكفي.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فُسّرت البراءة بعدة تفسيرات أصلٌ وفروعه؛ أصل البراءة البُغض في القلب، يعني بغض الشرك وأهله، ويتبع ذلك؛ يتبع بُغضَهم معاداتُهم وتكفير من كفره الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله؛ تكفير المشركين ومقاتلتهم عند مشروعية ذلك، وهذا هو معنى الكفر بالطاغوت أيضًا، فإن الكفر بالطاغوت هو بُغضه ومعاداة أهله، وتكفير أهل الطاغوت؛ وهم أهل عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا، وقتالهم عند مشروعية ذلك، البراءة من الشرك أصلها البغض، يتبع البغض أشياء، أولا المعاداة، ثانيا التكفير ومعلوم أن التكفير تَبَعٌ للعلم، ثم قتالهم عند مشروعية ذلك[1] وذلك أيضًا مستلزم للعلم، فتلخص أن على العامة وهم من ليسوا علماء عليهم من البراءة، أصلها وهو البُغض، وأما فروعها فإنما هي بحسب درجات العلم، البغض لا بد أن يُبغِض فإن لم يبغض الشرك فإنه ليس بمسلم، إذا كان يحب الإسلام وأهله، ويحب التوحيد وأهله، ولكن لا يبغض الشرك وأهله فإنه ليس بمسلم. لكن قد يبغض الشرك وأهل الشرك باعتبار الأصل، لكنه يحب بعض المشركين لغرض من أغراض الدنيا، فهذا ليس بمشرك، وإنما ناقص إسلامه، كما أوضحت لكم فيما سبق في تقسيم الموالاة إلى موالاة وتولي، المقصود من هذا أن مسألة البراءة هذه؛ من الشرك وأهله، أصل البراءة البغض يتبعها أشياء: المعاداة، التكفير، المقاتلة وكلها تبع للعلم، ويتنوع ذلك بحسب الناس، وأسهل ما يكون في الموحدين، عند الموحدين، عند عامتهم، معاداة المشركين، ولو لم يكن عندهم من الحجة أو من بيان تكفيرهم، ومن إقامة الدلائل على مشروعية مقاتلة أهل الشرك، فإنه قائم في قلبه بغضهم ومعاداتهم، وهذا به يحصل الإسلام.[2]

(١) قتالهم تحت راية ولي الأمر وإمام المسلمين.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والكفر بالطاغوت معناه: البراءة من الشرك وأهله، وإنكار ذلك، واعتقاد بطلانه.[١]

وهذه العبارة، وهي الأخيرة (**والخلوص من الشرك**) الصواب أنها (**والبراءة من الشرك وأهله**) هذا هو الموجود في النسخ المعتمدة، أما (**والخلوص من الشرك**) فهذه ليست في النسخ المعتمدة، وهي في هذه الطبعة التي بين يدي، والصحيح في النسخ المعتمدة أن (**الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله**) ومن المعلوم أن (**البراءة من الشرك وأهله**) أدل على المراد من لفظ (**الخلوص من الشرك**)، لأن الخلوص من الشرك إنما هو خروج عن الشرك، وليس فيه معنى البراءة من الشرك وأهله، ولهذا كان الأصح أن يُجعل بدل (**الخلوص من الشرك**) في هذه النسخة، ما هو في النسخ المعتمدة الأخرى وهي أن (**الإسلام الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله**) وهذا هو الذي يناسب الاستدلال الذي استدل به الشيخ وهو قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] فذكر البراءة وهو الذي يناسب هذا التعريف.[٢]

إذاً تعريف الإسلام شمل ثلاثة أشياء:

- أولاً: الاستسلام لله بالتوحيد.

- ثانياً: الانقياد لله بالطاعة.

---

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

- ثالثًا: البراءة من الشرك وأهله.(١)

ولا تعد مسلمًا حتى تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنى الإسلام؛ لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.(٢)

نلاحظ أنه بهذا شمل هذا التعريف معنى الشهادتين كما سيأتي.(٣)



وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ.

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ

هذا الدين؛ دين الإسلام الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مراتب(٤)

معنى المراتب: الدرجات؛ لأننا قلنا أن الدين ثلاث درجات بعضها أعلى

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.[١]

وهذه المراتب مستفادة من حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.[٢]

وهذه الثلاثة الإسلام، والإيمان، والإحسان هي الدين كما جاء ذلك فيما رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه، قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال؟ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تشهد ألا إله إلا إله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فاخبرني عن الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: مال المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال فأخبرني عن إماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاه يتطاولون في البنيان، ثم أنطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر: أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

يعلمكم دينكم» فجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأشياء هي الدين وذلك أنها متضمنة للدين كله.(١)

فالإسلام: هو إقامة الأعمال الظاهرة؛ الشهادتين مع الأركان الأربعة المعروفة؛ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، مع بعض الإيمان الذي يُصحح هذا الإيمان الظاهر.(٢)

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلى الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهراً، إذا صلوا مع المسلمين وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.(٣)

الإيمان: الإيمان بأركانه الستة؛ لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره مع بعض الإسلام الظاهر مع بعض العمل الظاهر الذي معه يصح هذا الإيمان الباطن.(٤)

الإحسان: هو مقام المراقبة لله جَلَّ وَعَلَا.(٥)

هذه هي المرتبة الثالثة هي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله،

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٥) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١]. أي: يكون عندك علمًا يقينيًّا أن الله يراك أينما كنت.[٢]



كُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ. **المرتبة الأولى: الإسلام**

فَأَركَانُ الإِسلامِ خَمسَةٌ: شَهَادَةُ ألا إله إلا اللهُ وَأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ.

كُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ. المرتبة الأولى: الإسلام

وكل مرتبة لها أركان: دليل ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين جاء جبريل يسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام والإحسان وبين له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك وقال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».[٣]

والأركان: جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء جوانبه التي يقوم عليها ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها، وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام

(١) جزء مِن حديث طويل أخرجه البخاري (٥٠) وأخرجه مسلم (٩، ١٠) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وقراءة الفاتحة، فإذا اختل شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فقد شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.(١)

فأركان الإسلام خمسة: شهادةُ ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاةِ، وإيتاء الزكاةِ، وصوم رمضانَ، وحج بيت الله الحرام.

لا يقوم الإسلام إلا على هذه الأركان، إذا فُقِدت فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة الصحابة قال «أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد ألا إله إلا إله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بين أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام فقال: «بُني الإسلام على خمس شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام».(٢)

أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.(٣)



---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان باب: قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بني الإسلام على خمس...» ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥] والأدلة على هذا كثيرة.(١)

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨]

وجه الاستدلال: أن الله جَلَّ وَعَلَا شهد بذلك لنفسه، وشهد له بذلك الملائكة، وهم عُمَّار السماء، وشهد له بذلك أيضاً أولوا العلم من الثقلين، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فبعد أن شهد بذلك لنفسه، وأخبر بشهادة ملائكته له بذلك، بشهادة أولي العلم له بذلك، أخبر مرة أخرى بمضمون ذلك فقال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ واضح ظاهر وجه الاستدلال من هذه الآية.(٢)

شرح الآية

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ﴾ أي: حكم وقضى وأعلم وبيَّنَ وألزم، فالشهادة من الله تدور على هذه المعاني الخمسة: الحكم والقضاء والإعلان والبيان والإلزام.

فمعنى ﴿شَهِدَ﴾ أي: قضى سبحانه وأعلم وأخبر وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾: لا نافية تنفي جميع ما عبد من دون الله.

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿إِلَّا هُوَ﴾: مثبت العبادة لله وحده ومعنى أنه لا إله إلا هو: أي **لا معبود بحق إلا الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما من عبد غير الله فإن عبادته باطلة لقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٦٢]

شهد لنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالوحدانية وهو أصدق القائلين، وشهادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء فهي شهادة صادقة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالم خلقهم الله لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم الله لتنفيذ أوامره في الكون، وكل إليهم تنفيذ ما يأمر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أمور الكون، فكل ملك منهم موكل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ، وهم من أفضل الخلق على الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة أو الملائكة أفضل من صالح البشر، على خلاف.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: صنفان؛ الملائكة، والصنف الثاني أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حق، بخلاف الجهال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق الله يشهد لله بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم حيث إن الله قرن شهادتهم مع شهادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشهادة ملائكته، اعتبر شهادة أهل العلم من الخلق ودل على فضلهم وشرفهم ومكانتهم، على أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم، أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل

العلم المراد بهم أهل الصناعة والزراعة فهؤلاء لا يقال لهم أهل العلم على وجه الإطلاق؛ لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالم بالحساب، عالم بالهندسة، عالم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا على أهل العلم الشرعي، وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمهم غالبًا جهلًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، متقدمون في الصناعات وفي الزراعة لكنهم كفار، فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ هذا غير معقول أبداً.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] المراد علماء الشرع الذين يعرفون الله حق معرفته ويعبدونه حق عبادته ويخشونه، أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله عَزَّوَجَلَّ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدعون أن العالم ليس له رب، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند الشيوعيين، إنهم ينكرون الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع أن عندهم علما دنيويًّا كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم.

هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا على أهله، وهو لقب شريف لا يطلق على الملاحدة والكفار، ويقال: هؤلاء أهل العلم.

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالوحدانية، إذًا لا عبرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله عَزَّوَجَلَّ، هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خلقه.

وقوله ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾: منصوب على الحال من شهد، أي: حالة كونه قائمًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والقسط: العدل، أي أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قائم بالعدل في

كل شـيء والعدل ضد الجور، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكم عدل لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد للجملة الأولى.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٣٩﴾﴾ اسـمان لله عَزَّوَجَلَّ يتضمنان صفتين مـن صفاته وهما: العزة والحكمة.[(١)]

وهذه الشـهادة أعظم شهادة لعظم الشـاهد والمشهود به، فالشاهد هو الله وملائكته، وأولو العلم، والمشهود به توحيد الله في ألوهيته وتقرير ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.[(٢)]



وَمَعنَاهَا: لا مَعبُودَ بِحَقٍّ إلا اللّهُ، و(لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللّهِ، (إلا اللّهُ) مُثبِتًا العِبَادَةَ للّهِ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلكِهِ.

تنبيـه: لقد تم شـرح معناها تفصيليًا من قبل في كتـاب «المدخل إلى علم التوحيد».

الشرح المفصل لمعنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»

«ما معنى شهادة ألا إلاه إلا الله؟ قال (**معناها: لا معبود بحق إلا الله وحده**)

فقال (ما معنى **لا إله إلا الله**؟ قال (**معناها لا معبود بحق إلا الله وحده**)، **لا إله إلا الله**، أربع كلمات: (**لا**) ثم (**إله**) ثم (**إلا**) ثم (**الله**).

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

» معنى (**لا**) هذه حرف لنفي الجنس، وهي من أخوات إنَّ، أو تعمل عمل إنَّ كما قال ابن مالك: عَمَلَ إنَّ اجعَل لِلا فِي نَكِرَة.

ويكون اسمها نكرة، كما قال هنا لا إله، إله؛

» «الإلـه» فعال بمعنى مفعول يعني: معبود، إله بمعنى مألوه يعني معبود؛ لأن الإلهة بمعنى العبادة، والألوهة بمعنى العبودية، وأصلها من إله يَألَهُ، إِلَهَةً، وألوهة؛ إذا عبد مع الحب والخوف والرجاء؛ إذا عبد عابد ما يعبده خائفا راجيا محبا فإنه يكون قد ألهه، قال الراجز برجزه المشهور: لله درّ الغانيات المُدّهِ ... سبّحن واسترجعن من تألهي

يعني من عبادتي التأله هو العبادة يعني (**لا إله**) كما قال هنا، معناها لا معبود، فسر الإله بمعنى المعبود، **لأن ذلك الذي يقتضيه لسان العرب، وكذلك هو الذي جاء في القرآن**، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود:١٢]، والذي جاء من عند الله جَلَّ وَعَلَا هو **لا إله إلا الله** قال هنا ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ فتفسير الإله بالمعبود، **هذا موافق للقرآن وموافق للغة العرب**، ويدل على ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس أنه قرأ في سورة الأعراف ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف:١٢٧] كان ابن عباس يقرؤها هكذا ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، قال: لأن فرعون كان يُعبد ولم يكن يَعبُد فصوب القراءة بـ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ بمعنى وعبادتك، وقراءتنا وهي قراءة السبعة ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ يعني المتقدمين.[١]

فهذا معناه أن ابن عباس فهم الإلهة معنى العبادة.[٢]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) التمهيد شرح كتاب التوحيد للشيخ صالح آل لشيخ.

وبه تعلم أن من فسر الإله بالرب يعني بأنه القادر على الاختراع، كما هو تفسير أهل الكلام المذموم والأشاعرة والماترودية ونحوهم، فإن هذا من أبطل ما يكون؛ لأنه مناقض للغة العرب وتردُّه لغة العرب، ومناقض للقرآن ويردُّه القرآن والسنة، فإن مادة الإله غير مادة الرب، والإله هو المعبود كما أوضحت لكم في الاشتقاق، يقولون معنى **(لا إله)** أي لا قادر على الاختراع إلا الله، ولهذا لا يكفرون من أشرك مع الله جَلَّوَعَلَا إله آخر في العبادة، يقولون ما دام أنه مقر بتوحيد الربوبية، وبأن الله جَلَّوَعَلَا هو المتوحّد في أفعاله؛ برَزقه وإحيائه وإماتته، وفي تدبيره الأمر، وفي ملكه، وفيما يفعل، فإن هذا مؤمن. وهذا باطل، وبعضهم يفسر الإله بتفسير آخر يرجع إلى معنى الربوبية، يقول أحد كبار وأئمة الأشاعرة، وهو السَّنوسي في كتابه المعروف بأم البراهين في العقائد الأشعرية يقول: فالإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. يقول: فمعنى لا إله إلا الله لا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرا إليه كلّ ما عداه إلا الله. فصار معنى كلمة التوحيد عندهم؛ توحيد الله جَلَّوَعَلَا، توحيد الله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته. وهذا من أبطل الباطل؛ لأن المشركين قد أخبر الله جَلَّوَعَلَا في كتابه بأنهم مقرون بهذا الذي جعله معنى كلمة التوحيد، يقول معنى لا إله إلا الله لا مستغنياً عما سواه، ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله. أرأيتم أبا جهل وصحبه ألم يكونوا موقنين بأنه لا مستغنياً عما سواه ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله؟ هم يؤمنون بذلك كما بينه الله جَلَّوَعَلَا في القرآن في آيات كثيرة جدا كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى آخر الآية قال ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس:٣١]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون:٨٦]، ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩] إلى آخر ما جاء في هذه الآيات.

إذاً فتفسير لا إله إلا الله بأنها لا معبود إلا الله هذا التفسير ليس تفسيراً اجتهاديًا، وإنما هو تفسير قرآني لهذه الكلمة قال جَلَّ وَعَلَا ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود:١٢]، فمن زعم أن هذا التفسير من اجتهادات إمام هذه الدعوة، فهذا مناقض أو راد أو جاهل بالقرآن العظيم، فإن الذي فسر الإلهية بهذا المعنى هو الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه في غير ما آية، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [المؤمنون:٢٣] وهذا واضح ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أتى بعد أمرهم بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا وحده دون ما سواه، وهذا مبين كثير في الكتاب والسنة والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال لحصين بن عبد الرحمن: «كم إله تعبد»؟ قال: أعبد سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «فمن ذا الذي تعد لرغبك ولرهبك»؟ قال: الذي في السماء. فهذا معنى الإله، وهذا معنى لا إله، أي لا معبود، فهذا التفسير تفسير من القرآن، تفسير جاء من الله جَلَّ وَعَلَا ومن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ليس تفسيراً اجتهاديًا من أئمة هذه الدعوة كما زعمه الخرافيون وأعداء التوحيد.

إذاً هنا قال (**معناها لا معبود بحق إلا الله**) الكلمة الثانية (**إله**)

» الكلمة الثالثة (**إلا**) و(**إلا**) هذه عند بعض العلماء أداة استثناء، وعند بعضهم أداة حصر، فصار معنى (**لا إله إلا الله**) لا معبود إلا الله، خبر (**لا**) أين هو؟ لا معبود إلا الله، يعني لا معبود موجود إلا الله؟ لا معبود بحق إلا الله؟ لا معبود يُعبد إلا الله؟ خبر (**لا**) أين هو؟ قال العلماء: خبر لا محذوف، ذلك

لأن العرب ترى في لغتها ألا النافية للجنس يحذف خبرها إذا كان واضحاً.
ومن الواضح أن المشركين لم ينازعوا في وجود آلهة أخرى يعلمون أن هناك آلهة كثيرة موجودة، لهذا لا يصح أن يقال: أن خبر (لا إله) موجود؛ لأنهم قالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥] لو كان خبر (لا إله) موجود، قالوا له هذه الآلهة موجودة، فكلمتك هذه ليست بصحيحة، لكن الخبر معلوم لأنه زبدة الرسالة، وهو ما قدره الشيخ هنا (**بحق**) أو يقدر (**حق**) بدون الباء، وذلك لأن خبر (**لا**) إذا حذف قُدر بالمناسب الذي يعلم، وإذا حذف الخبر كان لأجل العلم به ولوضوحه، كما قال ابن مالك في الألفية في آخر باب لا النافية للجنس يقول: وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ (يعني باب لا النافية للجنس)؛

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ ... إِذَا الـمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

إذا ظهر المراد مع الحذف فإنه يُحذف، ولهذا لا يحذف خبر لا النافية للجنس إلا إذا كان واضحاً، إذا كان الخبر واضحاً، وهنا الخبر واضح لأنه هو زبدة الرسالة؛ زبدة ما بعث به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل هو عين ما بعث به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أن يكون تقدير الكلام: لا معبود حق إلا الله؛ لأن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بُعث لتوحيد الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة ولإبطال عبادة غيره، وأنه لا معبود حق إلا الله وأن كل معبود سوى الله جَلَّوَعَلَا فعبادته بالباطل والظلم والطغيان والتعدي من الخلق. إذاً هنا حُذِف لأنه معلوم، فصار تقديره لا إله حق أو لا إله بحق إلا الله، وذلك لأن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [لقمان:٣٠]، وفي الآية الأخرى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٩٢] قال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا

﴿يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، فلما كانت هذه الآية وقد جاءت في القرآن في سورتين مشتملة على أن عبادة الله حق، وأن عبادة غيره باطلة، ناسب أن يكون المحذوف هنا كلمة (حق) أو كلمة (بحق)؛ لا إله بحق أو لا إله حق، لأنها هي التي دلت عليها الآيات.

إذاً فصار معنى لا إله إلا الله: لا أحد يستحق العبادة إلا الله جَلَّوَعَلَا، لا معبود بحق إلا الله، هناك معبودات غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنها معبودات بحق أو بالباطل؟ معبودات بالباطل، وصار التقدير هذا من أنسب ما يكون.

قال (معناها لا معبود بحق إلا الله وحده) فسر ذلك بقوله (**لا إله نافيًا جميع ما يعبد من دون الله**) يعني الذي يقول لا إله إلا الله، ماذا يقول حين يقول لا إله؟ يقول أنفي جميع ما يعبد من دون الله، إلا الله تقول وأُثبت العبادة لله وحده، لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات؛ نفي لاستحقاق العبادة عما سوى الله وإثبات للعبادة المستحقة لله جَلَّوَعَلَا.[1]

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤/ ٨١) عند تفسير (لا إلاه إلا هو)، يقول: «لا معبود بحق تجوز عبادته وتصلح الألوهية له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين».

وقال القرطبي في أوائل تفسيره (١/ ١٠٢): «فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلاهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إلاه إلا هو سبحانه والصحيح أن يقال: لا معبود بحق إلا الله. والله أعلم».

وقال البقاعي: «لا إله إلا الله، أي انتفي انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما يقتضيه، وإلا فهو جهل صرف».[(١)]

هو الاعتقاد والاعتراف ظاهراً وباطنًا بأنه لا يستحق شيئًا من العبادات إلا الله وحده دون من سواه.[(٢)]

وقال الطيبي: (الإله) فِعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من إله إلهة أي: عبد عبادة.»[(٣)]. قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم أن (الإله) هو المعبود.[(٤)]

قوله: ومعناها لا معبود بحق إلا الله، أي معنى لا إله إلا الله ليس كما يقول أهل الباطل: لا خالق ولا رازق إلا الله؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقر به المشركون، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات:٣٥-٣٦] آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفوه بالشعر والجنون؛ لأنه قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥] يحسبون الآلهة متعددة.

---

(١) القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (جمع وترتيب إسلام محمود دربالة)

(٢) المجموع المفيد في تفسير كلمة التوحيد لا إلاه إلا الله.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح

(٤) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.

فدل على أن معناها لا معبود بحق إلا الله، ولو كان معناها لا خالق ولا رازق إلا الله، فإن هذا يقرون به ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها، ما امتنعوا من قول لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض يقولون: الله، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يحيي ويميت؟ ويدبر الأرض؟ يقولون: الله. هم يعترفون بهذا فلو كان هذا معنى لا إله إلا الله لأقروا بهذا، لكن معناها لا معبود بحق إلا الله.

لو قلت: لا معبود إلا الله، هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي الله تعالى الله عن هذا لكن إذا قيدتها وقلت: بحق، انتفت المعبودات كلها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا بد أن تقول لا معبود حق، أو لا معبود بحق إلا الله. ثم بين ذلك على لفظ الكلمة.[1]

و«الله» لفظ الجلالة بدل من خبر «لا» المحذوف والتقدير «لا إله حق إلا الله» وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة «حق» يتبين الجواب عن الإشكال التالي: وهو كيف يقال «لا إله إلا الله» مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله وقد سماها الله تعالى آلهة وسماها عابدوها آلهة قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ [هود:١١٠] وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله عَزَّوَجَلَّ والرسل يقولون لأقوامهم ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] والجواب على هذا الأشكال يتبين بتقدير الخبر في «لا إله إلا الله» فنقول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقة وليس لها من حق الألوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ﱡٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ﱠ [الحج: ٦٢] ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﱡأَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ﱠ [النجم: ١٩-٢٣] وقوله تعالى عن يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﱡمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚﱠ [يوسف:٤٠] إذاً فمعنى «لا إله إلا الله» لا معبود حق إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ليست حقيقة أي ألوهية باطلة.(١)

لا إله إلا الله تشتمل النفي والإثبات

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوى الله.

إلا الله: هذا إثبات للعبودية لله وحده لا شريك له.

فلا إله إلا الله تشتمل على نفي وإثبات، ولا بد في التوحيد من النفي والإثبات لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده، بل لا بد من النفي والإثبات كما قال تعالى: ﱡفَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِﱠ [البقرة:٢٥٦] ﱡوَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖﱠ [النساء:٣٦].

فلو قلت: الله إله، هذا لا يكفي، اللات إله، والعزى إله، ومناة إله، كل الأصنام تسمى آلهة.

فلا بد أن تقول: لا إله إلا الله، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات حتى يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.(٢)

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أما قولها بدون العمل بها، فلا تنفع؛ كأن يقول: لا إله إلا الله، ولا يخص الله بالعبادة؛ فإن شهادته لا تنفع؛ كالمنافقين، فإنهم يقولونها ولا يعتقدونها، فهم في الدرك الأسفل من النار. فالذي يقول لا إله إلا الله، ويعبد القبور والأصنام؛ لا تنفعه بل هي باطلة.[1]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا (**لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه**) عدم الشَّرِكَة في الملك تتنوع أحيانا؛ تكون الشركة في الملك يعني مطلقًا دون إضافتها إلى الله طبعا الشركة في الملك تكون:

- بأن يكون لكل شريك قسم خاص ليس مشاعًا، له قسم خاص مما اشتركا فيه؛ اشتركت أنا وأنت في ملك إبل مثلاً لك خمسون ولي خمسون معروفة، هذه خمسيني معروفة بأعيانها، وهذه خمسون لك معروفة بأعيانها، أو اشتركت أنا وأنت في كتب معروفة، هذه الكتب لك وهذه الكتب لي، هذه شركة، كل من الشريكين له قسمه استقلالاً.

- الثاني أن تكون شركة مشاعة؛ للشريكان شركة مشاعة، هذا وهذا مشتركان في ملك لا يتميز منه أحدهما عن الآخر، بل هو لهما جميعًا.

الله جَلَّ وَعَلَا بَيَّن في القرآن أنه لو كان له شريك في الملك في ملكه لابتغى إليه سبيلا، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٥٢]، ولو كان معه آلهة؛ معبودات تستحق العبادة فعلا، ما الذي يلزم من ذلك؟ يلزم أنه لهم نصيبًا في ملك الله، بأنه لا يستحق العبادة إلا من يملك النفع والضر ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:٤٣]، ليس مع الله أحد في

(١) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

ملكه، بل هو المتوحد في ملكه، ينتج من ذلك ويلزم أنه هو المستحق للعبادة وحده، لهذا قال له هنا:

(**لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه**)، لهذا يقول العلماء: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، الإقرار أن الله عَزَّوَجَلَّ ليس له شريك في ملكه لا على وجه الاستقلال ولا على وجه الإشاعة؛ شيوع، هذا يلزم منه لزومًا أكيدا أن الله جَلَّوَعَلَا وهو واحد في استحقاقه العبادة، لا يستحق العبادة إلا هو، هو وحده المستحق للعبادة لا شريك له، كما أنه هو وحده له الملك لا شريك له، كما جاء في آية الأنعام ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] قد بينت لكم معناها، وأن معناها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقًا ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ ملكا ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في عبادته و﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ملكه ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ هذا معنى الآية، وهذا التفسير للشيخ لكلمة التوحيد تفسير ضابط ظاهر.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وَتَفسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]. **وقَولُهُ تَعالَى:** ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

خير ما يفسر القرآن القرآنُ، فلا إله إلا الله فسرها الله في القرآن، وذلك في قول الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما ذكر الله عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ هذا النفي لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني: إلا الله، هذا الإثبات. فهذه الآية تفسير معنى لا إله إلا الله تمامًا.(١)

وتفسيرُها الذي يُوضِّحُها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦٢٨]

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ ماذا قال إبراهيم؟ المقول سيأتي، قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ اشتملت كلمته هذه على نفي وإثبات؛ على بُغض ومحبة، فشقها الأول؛ جزؤها الأول نفي وبغض قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذا فيه نفي ما دام أنه تبرأ منها في نفي لاستحقاقها العبادة، ومن معنى البراءة البغض، أو معنى البراءة البغض، فاشتمل قوله ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ على النفي والبغض، ثم أتى بالإثبات والمحبة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أُثبت له العبادة، ثم أتى بما يدل على المحبة فقال ﴿إِلَّا

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾، محبـة فيها الرجـاء. هذه كلمة وهي معنى لا إله إلا الله لأنه اشتملت على براءة وعلى ولاء، اشتملت على بغض وعلى محبة، اشتملت على نفي وعلى إثبات. قال ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعني تلك الكلمة ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعنـي في ولد إبراهيـم، ومعلوم أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أبو الأنبياء، والأنبياء من بعده جاؤوا لتقرير هذه الكلمة، قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢﴾ يرجو أن يرجع إليها عقبه من بعده، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢﴾ يعني إليها.[1]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:٦٤]

هذه الآية من سـورة آل عمران نزلت في وفد نجران النصارى الذين قدموا على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وناظروه وسـألوه، وحصـل بينهم وبينه كلام طويل، وهـم نصارى من نصارى العـرب، وفي النهاية طلب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران:٦١].

فلمـا طلب منهم المباهلـة خافوا ولم يباهلـوه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل، وأنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نَبتَهِـل: أي ندعـو باللعنـة علـى الـكاذب منـا، وكانـوا يعلمـون أنهم هم الكاذبـون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهـم في مكانهم، فقالوا: لا، لكـن ندفع الجزيـة ولا نباهلكم، فقبل النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم الجزية، لقد تبين أن الله أمره بما في هذه الآية.

وهـذه الآية فيها معنى لا إله إلا الله، قولـه: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ هذا النفي، وقوله:

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السماوات والأرض، فالسماوات والأرض قامت على التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا لا المسيح الذي تزعمون أنه رب وتعبدونه من دون الله، ولا غير المسيح ولا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا أحد من الأنبياء ولا من الصالحين ولا من الأولياء، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] واتخاذ الأحبار والرهبان من دون الله بينه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أنه طاعتهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله هذا معنى اتخاذهم أربابًا من دون الله، إذا كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل، فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس ويحلل ويحرم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أشهدوهم على أنكم موحدون وأنهم كفار، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد على أهله.(١)

وجه الاستدلال: أن هذه الكلمة بيننا وبينهم وهي كلمة التوحيد، تفسيرها ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، هذا واضح؛ التفسير لكلمة التوحيد، قال

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

مؤكدا معناها ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤]، يعني آلهة من دون الله، لأنهم ما ادعوا في الخلق أنه رب، بمعنى أنه يخلق استقلالًا، ويرزق استقلالاً، ويحيي ويميت استقلالاً، هذا ما أُدعي، وكان تفسير الربوبية هنا بالإلهية، قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران:٦٤]، آخر الآية يبين أن من ترك ما دل عليه أولها فإنه ليس بمسلم، لأنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ إذ خالفناكم، وإذ لم تذعنوا لهذه الكلمة سواء التي بيننا وبينكم (أَلَّا نَعبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا)، فأنتم لستم من أهل الإسلام.[1]

والخلاصة:

أن لا إله إلا الله لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان لا إله إلا الله، فتقول النفي والإثبات.

شروط لا إله إلا الله

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظمها بعضهم بقوله:

علـم يقيـن وإخلاص وصدقك ... مـع محبـة وانقيـاد والقبول لـهـا

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا الله بلسانه ويجهل معناها هذا لا تنفعه لا إله إلا الله.

واليقين: فلا يكون عنده شك؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها ولكن عنده شك في ذلك، فليس علمه بصحيح، لا بد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا الله وأنها حق.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا الله؛ ولكنه لا

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يترك الشرك، مثل ما هو الواقع الآن عند عباد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا الله؛ لأن من شروطها ترك الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله؛ لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:١-٢].

والمحبة: أن تكون محبًّا لهذه الكلمة وليًّا لأهلها، أما الذي لا يحبها أو لا يحب أهلها فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا الله يلزمك أن تنقاد لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تنقاد لأحكام الله وشرعه فإنها لا تنفعك لا إله إلا الله.

والقبول: القبول المنافي للرد، بأن لا ترد شيئًا من حقوق لا إله إلا الله، وما تدل عليه بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا الله، تتقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيد شرط ثامن:

وزيد ثامنها الكفران بما ... مع الإله من الأشياء قد ألها

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحدًا حتى يتبرأ من الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾ [الزخرف:٢٦]. هذه شروط لا إله إلا الله، ثمانية شروط.[1]

وتفصيل هذا سبق بيانه في كتاب (المدخل إلى علم التوحيد).

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَدليلُ شَهَادَةِ أَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:

الأول: شهادة ألا إله إلا الله، **والثاني**: شهادة أن محمداً رسول الله.

فهما ركن واحد ...

الشق الأول: يعني الإخلاص في العبادة، **والشق الثاني**: يعني متابعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾

[التوبة:١٢٨]

يعني دليل كون الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول.

وأدلة شهادة أن محمداً رسول الله كثيرة من الكتاب والسنة والمعجزات الباهرات الدالة على رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾.

فهذه شهادة من الله لهذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة وبيان صفاته.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾: اللام هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره والله لقد جاءكم.

(قد): حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

(جَاءَكُم): أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامة لجميع الثقلين، الإنس والجن.

(رَسُولٌ): هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، سمي رسولًا؛ لأنه مرسل من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(مِن أَنفُسِكُم): أي من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يرسل إلى البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم، ولأنهم يعرفونه، لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون على رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أرسل إلى الناس رسولًا من جنسهم، بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟ ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه؟

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

فقوله: (عَزِيزٌ): يعني شاق عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(مَا عَنِتُّم): يعني ما يشق عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشق عليه ما يشق على أمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليسر والسهولة.

ولذلك جاءت شريعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهلة سمحة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«بعثت بالحنيفية السمحة»[١] قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] فشريعته سهلة تتماشى مع قدرة الناس واستطاعة المكلفين ولا تحملهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب لهم التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأمته، يترك العمل وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألا يشق على أمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق على أمته، ويسر بسرورها، ويفرح بفرحها، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: على هدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور، ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور حتى قال الله له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] أي لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم، وهذا من كمال نصحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾

(رَءُوفٌ): من الرأفة وهي الرفق واللطف.

(رَحِيمٌ): وصفه بالرحمة فليس بغليظ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦/ ٦٢٣ مِن حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا لينا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبشر والمحبة والعطف والإحسان، هذه من صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكر الله خمس صفات في هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الأولى: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخص المؤمنين بالرأفة والرحمة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان غليظًا على المشركين والمعاندين، يغضب لغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣] الرحمة والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] هذه صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

وخص المؤمنين بذلك لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مأمور بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، وهذه الأوصاف لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدل على أنه رسول الله حقًا كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً تدل على أن محمداً رسول الله حقاً.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

هذا واضح الدلالة على الشهادة بأن محمداً رسول الله، لأن معنى شهادة أن محمداً رسـول الله أن تعتقد أن محمداً أرسـله الله جَلَّ وَعَلَا بدين الإسـلام، تعتقـد ذلك اعتقـاداً يصحبه قول وإخبـار عنه، وهذه الآيـة واضحة الدلالة على المراد.(١)



وَمَعنَى شَهَادَة أَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، واجتِنَابُ مَا نَهَى عَنهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.

وَمَعنَى شَـهَادَة أَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، واجتِنَابُ مَا نَهَى عَنهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ

شـهادة أن محمداً رسـول الله لها معنى ومقتضى ليسـت لفظًا يقال فقط. فمعناهـا أن تعترف بلسـانك وبقلبك أنه رسـول الله، تنطق بلسـانك وتعتقد ذلك بقلبك أنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(٢)

معنى شـهادة «أن محمداً رسول الله» هو الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشـي الهاشمي رسـول الله عَزَّوَجَلَّ إلى جميع الخلق من الجن والإنس.(٣)

أما التلفظ باللسـان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين كما أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون] جعلوا أيمانهم، أي: شهاداتهم سترة يسترون بها، فصدوا عن سبيل الله، فدل على أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمن يقدر على النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول الله لكنهم يعاندون، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكبر ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد كما عند اليهود وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل عمرو بن هشام يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور لكنهم قالوا: منا رسول وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم[(١)].

ويقول أبو طالب في قصيدته:

ولقد علمت بأن دين محمد … من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة … لوجدتني سمحا بذاك مبينا[(٢)]

يعترف بقلبه برسالة محمد لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله بل لا بد أن ينطق بلسانه.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٥١ قصة استماع قريش إلى قراءة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٤٢.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب، بل لا بد من أمر ثالث وهو الاتباع، قال الله تعالى فيه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧] حتى لو نصره مثل أبي طالب وحامى دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتى يتبعه، ولهذا قال الشيخ: ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

فلا بد مع الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا.، ولا بد من اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأولى: طاعته فيما أمر: يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

فقرن طاعة الرسول مع طاعته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقرن معصية الرسول مع معصيته ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: ٢٣] وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤] وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور: ٥٦] فلا بد من طاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فالذي يشهد أنه رسول الله تلزمه طاعته فيما أمر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: ٦٣]، عن أمره: أي عن أمر الرسول فلا بد من طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.(١)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

قـال (**ومعنى شـهادة أن محمداً رسـول الله طاعتـه فيما أمر**) هـذا التفكير والمعنـى بالمقتضى، يعني معناها التي تقتضيه؛ تقتضـي طاعته فيما أمر، إذاً فمعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما الأمر، كونك شهدتَّ أنه مرسل مـن عنـد الله، معنـى ذلك أنه إذا أمـرك فإن الآمر هـو الله جَلَّوَعَلَا، كما جاء في الحديـث الذي رواه أبو داوود وغيره، الحديث الصحيح قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «ألا إن ما حرّم رسـول الله مثل ما حـرّم الله» إذا اعتقدت أن هذا الذي جاء به محمـد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لـم يأتِ به من عنـده وإنما هو رسـول، فمعنى ذلك أن تطيعه فيما أمر، هذا مقتضى لكونك شهدت بأنه رسول الله، فإن لم تطعه فيما أمر اعتقادا أنه لا يطاع، كان ذلك تكذيبا لشـهادته، فمن قال أشهد أن محمداً رسـول الله، وهو يعتقد أنه لا تلزمه طاعة الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحاله حال المنافقين؛ شـهادته مردودة، كاذب في شـهادته، وأما إذا اعتقد أنه تجب عليه طاعة الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما أمر وخالف لغلبة هوى، فهذا يكون عاصياً قد نقص من تحقيقه لشهادة أن محمد رسول الله بقدر مخالفته.[١]

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر عن أمور كثيرة مغيبـة، أخبر عن الله وعن الملائكة، وأخبر عـن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة من قيام الساعة وأشراط الساعة والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السـابقة، فلا بد من تصديقه فيما أخبر؛ لأنه صدق لا كذب فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤].

الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يتكلم بهذه الأخبار أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إنما يتكلم بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ فأخباره

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

صدق، ومن لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟ كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟![1]

ما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغيب وحي من عند الله، ولا يتخرّف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لهذا ما أتى من أخبار الغيبيات، يعني الكلام على الله جَلَّ وَعَلَا، أسمائه وصفاته وأفعاله، عن الجنة والنار، عن أخبار الغيب، عن قصص الماضين، هو كله بوحي من الله جَلَّ وَعَلَا، فمقتضى أنك شهدت أنه رسول الله أن تصدقه فيما أخبر، وألا يكون في قلبك شك، في أن ما أخبر به حق، وأن كل خبر أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقول: عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيه صادق. ولو كنا لا نرى ذلك الشيء، كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه قال: «حدثني الصادق الصدوق». يعني به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالمؤمن يصدق رسول الله بما أخبر به، سواء عقل ذلك أو لم يعقله، وسواء أدرك ذلك بنظره أو لم يدركه، فقد كان الصحابة يتناقلون فيما بينهم الأخبار الكثيرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ سينزل، وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث يقول لأصحابه، ولمن ينقل عنه الحديث من تلامذته، يقول: فإذا لقيه أحدكم فليقرئه مني السلام. تصديق لا يصاحبه شك، إذا كان المؤمن يعتقد أنه رسول الله، فمعنى ذلك أن كل خبر أخبر به فهو حق، بلا شك وبلا ريب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.[2]

الثالثة: اجتناب ما نهى عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ نهاك عن أقوال وأفعال وصفات كثيرة، ولا ينهى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا عن شيء

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فيه ضرر وفيه شر، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بر، فإذا لم يجتنب ما نهى عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن شاهدًا له بالرسالة بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله ولا يجتنب ما نهاه عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧] قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١) فلا بد من اجتناب ما نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(٢)

والأصل في النهي والزجر التحريم؛ لأنها نهي زاجر كما هو مقرر في الأصول، فما نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو زجر عنه أو حرمه فإنه يجب اجتنابه طاعة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر:٧]، وما أتاكم الرسول من الأوامر أو من الأخبار فخذوه امتثالاً للأمر وتصديقاً بالخبر، وما نهاكم عنه فانتهوا، ما نهاكم عنه يجب عليكم أن تتركوه طاعة لله جَلَّ وَعَلَا ولرسوله، وهنا نقول مثل ما قلنا أولاً أن من لم يجتنب ما نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزجر، اعتقاداً أنه لا يجب عليه الانتهاء، يعني لم يلتزم ذلك، لم يلتزم أنه مخاطب بهذه المنهيات، فهذا قدح في الشهادة، فلا يكون شاهداً بأن محمداً رسول الله، وإن كان يقولها بلسانه، وإن التزم ذلك، قال: نعم، نلتزم بالذي نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجب تركه. لكن غلبته نفسه وخالف ذلك قليلاً كانت المخالفة أو كثيراً في نفسه أو في غيره، فإن ذلك يكون نقصاً في شهادته ومعصية لله ولرسوله.(٣)

الرابعة: ألا يُعبد الله إلا بما شرع: تقيد في العبادات بما شرعه الله

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان قصده حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. النية لا تكفي بل لا بد من الاتباع.

فالعبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (١) وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» (٢).

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها من فعلها من الناس ما دامت خارجه عما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنها بدعة وضلالة، فلا يعبد الله إلا بما شرع على لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل ونقص وضلال على من أتى بها، وإن كان يقصد بها الخير ويريد الأجر، فإن العبرة ليست بالمقاصد، وإنما العبرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلى بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن من رحمة الله بنا لم يكلنا إلى عقولنا، ولم يكلنا إلى فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردها إلى الشرع إلى الله ورسوله، ولا ينفع

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢،٤٣)، وأحمد ٢٨/ ٣٧٣ (١٧١٤٤) مِن حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منهـا إلا ما كان موافقًا لما شـرعه الله ورسـوله، ففي هـذا الابتعاد عن جميع البـدع، ومن ابتدع شـيئًا في الدين لـم يأت به الرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لم يشـهد أنـه رسـول الله، لـم يشـهد الشـهادة الحقيقيـة؛ لأن الذي يشـهد أنه رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شـهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يحدث شيئًا من عنده أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

هذا معنى شهادة أن محمداً رسول الله ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام ومن غير عمل ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[(١)]

فإذا اعتقد المسـلم ذلك كمُلت له شـهادته بأن محمداً رسـول الله وصار مسلما حقا.[(٢)]

مقتضـى هذه الشـهادة أن تصدق رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر، وأن تمتثـل أمـره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهى وزجـر، وأن لا تعبد الله إلا بما شـرع، ومقتضى هذه الشـهادة أيضـًا ألا تعتقد أن لرسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حقـًا في الربوبية وتصريـف الكون، أو حقـًا في العبـادة، بل هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد لا يُعبَد ورسـول لا يُكَذَّب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئـًا من النفع أو الضر إلا ما شـاء الله كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام:٥٠].

فهو عبد مأمور يتبع ما أمر به، وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجـن: ٢١-٢٢] وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبهذا تعلم أنه لا يستحق العبادة لا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا من دونه من المخلوقين، وأن العبادة ليست إلا لله تعالى وحده. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وأن حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن تنزله المنزلة التي أنزله الله تعالى أياها وهو أنه عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.(١)

شرطي قبول العمل

ناسب هنا أن نذكر شرطي قبول العمل، وهما: الإخلاص والاتباع.

فعبادة الله لا بد فيها من شرطين:

١- الإخلاص لوجه الله، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر:٦٥]

وقوله تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة مرفوعًا: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

٢- الاتباع: ودليله ما سبق من الأحاديث، منها: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

فمن عبد الله بغير ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعمله باطل؛ لأنه عمل مبتدع.

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفسِيرُ التَّوحِيدِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥]

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة:٥] بين أن هذه الأشياء مأمور بها، وهي دليل على أنها من دين الإسلام.[(١)]

هذا من باب عطف الخاص على العام، لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. من العبادة ولكنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نص عليهما لما لهما من الأهمية فالصلاة عبادة البدن، والزكاة عبادة المال وهما قرينتان في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.[(٢)]

فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث وهي قرينة الصلاة في كتاب الله، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[(٣)] لما امتنع أناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قاتلهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وقال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالًا وفي رواية «عناقًا» كانوا يؤدونه لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم عليه».

فالزكاة حق واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في كثير من الآيات ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة الله مع الإخلاص له وترك عبادة ما سواه، فالدين والتوحيد والعبادة بمعنى واحد، ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: أنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما من جاء بتوحيد الربوبية فقط فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به ويعترفون به ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يمنع من قتلهم وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحدين لما أشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ في العبادة، هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان كتاب «الجوهرة» أو كتاب «المواقف» أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب وإنما يؤخذ من كتاب الله ومن سُنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ودليل الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمعنى أن يأتوا بها كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بشروطها وأركانها وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي؛ ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتى بها كما أمر الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء أو بدون طهارة وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصل، ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في

صلاته قال لـه: «ارجع فصل فإنك لم تصل»[(١)] ليس مقصودًا صورة الصلاة من قيام وركوع وسجود وجلوس فقط، ليس هذا المقصود، بل المقصود أن يؤتى بها كما شرع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

ثـم ذكـر دليـل الـزكاة بقولـه تعالـى: ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أي: يدفعـوا الزكاة للمسـتحقين لهـا، الذيـن ذكرهـم الله تعالى في قولـه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠].

ذكـر ثمانيـة مصـارف وحصرها بـ (إنما) فلا يكـون صرفهـا في غير هذه المصـارف الثمانيـة، فمـن صرفها في غيـر مصارفها الثمانية لـم يكن قد آتى الزكاة ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسماها زكاة، ولا تكون زكاة حتى توضع في مواضعها التي حصرها الله تعالى فيها، هذا معنى إيتاء الزكاة، وأيضـًا في وقتها، أي: يخرجهـا وقت وجوبها. لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسـل، طيبة بها نفسه، أي لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة، وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هـذه الأمـور الثلاثـة هـي: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ الديـن: الملة، القيمـة: صفة لموصوف محذوف تقديره دين الملة القيمة، أي المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.[(٢)]



---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]

ودليل الصيام؛ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.(١)

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾

معنى كُتِبَ: فُرِضَ، مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] يعني فرض عليكم القتال، فالكتب في كتاب الله معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾

أي: كما فرض على الذين من قبلكم من الأمم، فدل على أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، والله جَلَّوَعَلَا بين أنه سنته في خلقه، وأنه على جميع الأمم، حتى في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.(٢)

وفي قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فوائد:

أولاً: أهمية الصيام حيث فرضه الله عَزَّوَجَلَّ على الأمم من قبلنا وهذا يدل

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

على محبة الله عَزَّوَجَلَّ له وأنه لازم لكل أمة.

ثانيًا: التخفيف على هذه الأمة حيث إنها لم تكلف وحدها بالصيام الذي قد يكون فيه مشقة على النفوس والأبدان.

ثالثًا: الإشارة إلى أن الله تعالى أكمل لهذه الأمة دينها حيث أكمل لها الفضائل التي سبقت لغيرها.(١)

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾

هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوى؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقربًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيكسبه التقوى، كما أنه يكسر أيضًا شهوة النفس وحدتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرى الدم فيطرد الشيطان عن المسلم، ففي الصيام حصول التقوى التي هي جماع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام أنه يسبب التقوى، تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة لله كان من باب أولى أن يترك المحرمات، الصيام يدربه على تجنب الحرام، ويدربه على التمكن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويلين قلبه للطاعة، ولذلك تجد الصائم أقرب إلى الخير من المفطر، تجده يحرص على تلاوة القرآن وعلى الصلاة، ويذهب إلى المسجد مبكرًا، الصيام لينه للطاعة وهذبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾.(٢)

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.



بين الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية حكمة الصيام بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ أي تتقون الله بصيامكم وما يترتب عليه من خصال التقوى وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذه الفائدة بقوله: «لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(١)،(٢).

فالشاهد من الآية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هذا دليل على فرضية الصيام، وفسره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] لأن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].(٣)



ودَلِيلُ الحجِّ: قَولُهُ تَعالَى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧].

ودَلِيلُ الحَجِّ: قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾[آل عمران: ٩٧]

أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إلخ.(٤)

﴿وَلِلَّهِ﴾: أي، هذا فرض وحق وواجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الناس.

﴿حِجُّ﴾: معناه في اللغة: القصد.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الحج شرعاً: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: أي، الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية، الاستطاعة البدنية بأن يكون قادرا على المشي والركوب والانتقال من بلده إلى مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزاً مستمرا كالمريض مرضاً مزمناً والكبير الهرم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب من يحج عنه حجة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي توفر المركب الذي ينقله، الراحلة أو السيارة أو الطيارة أو الباخرة، كل وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يوفر له المركب الذي يمتطيه لأداء الحج، وأيضاً الزاد يكون عنده زاد ونفقة له في السفر ذهاباً وإياباً، ولمن يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلى أن يرجع إليهم، فالزاد معناه أن يكون عنده ما يكفيه في سفره، ويكفي من يمون من أولاده ووالديه وزوجته، وكل من تلزمه نفقته، يؤمن لهم ما يكفيهم حتى يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلاً بعد سداد الديون.

فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «الزاد والراحلة» كما في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجة (٢٨٩٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه ابن ماجة (٢٨٩٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن لم يستطع: أي، من ليس عنده زاد ولا راحلة فليس عليه حج؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحج يؤتى إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فج عميق، ويحتاج إلى مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار، فمن رحمة الله أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيث لم يوجبه على المسلم كل سنة، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، قال الأقرع بن حابس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أكل سنة يا رسول الله؟ فسكت عنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أعاد السؤال، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم؛ الحج مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع»(١)، هذا من رحمة الله.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ٩٧﴾ فيه دليل على أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحج فإنه كافر؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: من أبى أن يحج وهو قادر على الحج، فإن هذا كفر، قد يكون كفراً أصغر، فمن تركه جاحداً لوجوبه هذا كفر أكبر بإجماع المسلمين، أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلاً فهذا كفر أصغر.(٢)

في قوله تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ٩٧﴾ دليل على أن ترك الحج ممن استطاع إليه سبيلاً يكون كفراً ولكنه كفر لا يخرج من الملة على قول

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٤/ ١٥١ (٢٣٠٤)، وأبو داوود (١٧٢١)، والنسائي ٥/ ١١١ مِن حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

جمهور العلماء لقول عبد الله بن شقيق: «كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[(١)]. [(٢)]

ولكن إذا توفي وكان له مال فإنه يحج من تركته؛ لأنه دين عليه لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل، وفي حديث ابن عمر.[(٣)]

وقد فرض الحج في السنة التاسعة على قول، ولم يحج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة، لماذا؟ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أرسل عليًا ينادي في الناس في الموسم: ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[(٤)]، فلما منع المشركون والعراة من الحج في العام العاشر حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع.[(٥)]

أعظم أركان الإسلام هي الشهادتان

وأعظم أركان الإسلام الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يكون معنى الشهادتين واضحًا في قلبه، واضحًا في ذهنه، فاهمًا له، بحيث يستطيع أن يعبر عن ذلك بأيسر عبارة وبتنوع العبارة، لأن أعظم ما يدعا إليه ما دلت عليه الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يعوّد لسانه على تفسير الشهادتين بتنويع

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب: ما جاء فيمن ترك الصلاة.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) سبَق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٩) ومسلم (١٣٤٧) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

العبارة، وعلى حفظ الأدلة التي فيها معنى الشهادتين، وعلى تفسير ذلك، وإذا دَرَبَ على ذلك، فسوف يرى أنه ستفتح له أبواب بفضل الله جَلَّ وَعَلَا وبرحمته بمعرفة التوحيد وحسن التعبير عنه، وأما أن يترك طالب العلم نفسه لفهم ما دلّت عليه، دون أن يمرن نفسه على تأدية المعنى وتعليمه لأهله وللصغار، ولمن حوله ولمن يلقاه ممن لا يعلم حقيقة معنى هذه الكلمة، فإن هذا تضيعه النفس ولا يصدق على فاعله أنه طالب العلم؛ لأن العامي هو الذي يفهم ذلك؛ يفهم ذلك فهما، لكن لا يستطيع أن يعبر عن فهمه بالتعبير العلمي الصحيح، وأما طالب العلم فعليه أن يهتم بأصل الأصول هو تفسير الشهادتين، ومر معنا بعض ما يتصل بتفسيرها.

أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يلهمني وإياكم الرشد والسداد، وأن يجعل ألسنتنا لاهجة بالثناء عليه وبذكره، وجوارحنا مقيمة على طاعته، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.[1]



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المَرتَبة الثانِيَة: الإِيمَانُ

وَهُوَ بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَةً، فَأَعلاهَا قَولُ لا إله إِلا اللهُ، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِن الإِيمَانِ.

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ

تعريف الإيمان

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي.(١)

إطلاقات كلمة الإيمان في القرآن

الإيمان كثيرا ما يأتي في القرآن ويراد به اللغوي، وكثيرا ما يأتي في القرآن ويراد به الشرعي، بمثل الألفاظ الأخرى كالصلاة فإنها تأتي ويراد بها اللغوي؛ الصلاة اللغوية وهي الدعاء والثناء، ويأتي ويراد بها الصلاة المعروفة ومما ذكره بعض أهل العلم المحققين، ومما ذكره بعض أهل العلم من ذوي التحقيق:

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

- أن الإيمـان اللغوي في القرآن كثيرا ما يُعـدّى باللام كقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف:١٧]، كقولـه ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ونحو ذلك من الأمثلة وما سبق أن ذكرت لك.

- والإيمـان الشـرعي المنقـول عن أصلـه اللغـوي الذي يراد بـه العمل والقـول والاعتقاد هـذا يُعدى كثيراً بالبـاء ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨٥]، إلى آخر الآية قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ﴾ [البقرة:١٣٧]، ونحو ذلك من الآيات وكقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].[(١)]

والإيمان أصله: في اللغة: كما سبق أن ذكـرت لكم هو التصديق الجازم، فهو تصديق وجزم.

وفي الشـرع: الإيمـان قـول وعمل واعتقـاد، أو نقول الإيمان في الشـرع قول وعمل؛ لأن القول هو قول اللسـان وقول القلب، والعمل عمل القلب وعمل الجوارح.

فـإذا قال من قال من أهل السـنة: إن الإيمان قول وعمـل. فهو بمعنى من يقول: قول وعمل واعتقاد؛ لأن القول ينقسم إلى قول اللسان وقول القلب:

- قول اللسان: هو النطق والإقرار ظاهرا بنطقه. - وقول القلب: النية.

عمل القلب وعمل الجوارح:

- عمـل القلـب: أقسـامه كثيـرة، منها أنـواع الاعتقـادات، ومنهـا أنواع

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

العبادات القلبية؛ الخشية والخوف والرجاء، فالعلم أنواع العلميات هذه من أعمال القلب، وكذلك عبادات القلب المتنوعة هذه أعمال قلبية.

- وكذلك عمل الجوارح.

وهذا بمعنى قول من قال: إن الإيمان: **قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمان، وينقص بطاعة الشيطان.**

قال أهل العلم إن هذا الإيمان الشرعي هو الذي حصل الابتلاء به، فهو من الأسماء التي نقلت من اللغة إلى الشرع، وصارت حقيقتها الشرعية هو ما وصفت لك من أن الإيمان يشتمل على قول اللسان والعمل بالأركان والاعتقاد وأنه يزيد وينقص.(١)

ومن أدلة العلماء على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعلاها لا إله إلا الله» هذا يدل على القول، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أدناها إماطة الأذى عن الطريق»: هذا عمل دل على أن الأعمال من الإيمان، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحياء شعبة من الإيمان»: هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.(٢)

فالإيمان: قول باللسان، لا بد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لا بد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقداً له بقلبه، وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب، بل لا بد من العمل بالجوارح

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أيضًا، لا بد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان للإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.(١)

فالإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله.(٢)

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فدل على أن الإيمان يزيد بسماع القرآن، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

دل على أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، فدل على أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة فإنه قابل للنقص، هذا من ناحية، ودل عليه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

حبة من خردل من إيمان»[١]، فدل على أن الإيمان ينقص حتى يكون على وزن خردل في القلب، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] دل على أن الإيمان ينقص حتى يكون أقرب إلى الكفر، وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من رأى منكم منكراً فليغير بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢] دل على أن الإيمان يضعف، أي: ينقص، فالإيمان إذاً يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

علاقة الإيمان بالإسلام

وهو أصل من الأصول التي لا بد منها. فلا إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام. فلا بد من هذا وهذا. لا بد من إسلام الجوارح، ولا بد من إسلام القلوب وإيمانها. ولهذا جمع الله بين الأمرين في كتابه العظيم. وهكذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكرهما جميعاً. فالإسلام هو الانقياد الظاهر بطاعة الله وترك معصيته. والإيمان يشمل الأعمال الباطنة مما يتعلق بالقلوب وتصديقها. ويطلق الإسلام على الإيمان، ويطلق الإيمان على الإسلام. فإذا قيل الإيمان؛ عم الجميع، وإذا قيل الإسلام؛ عم الجميع. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، فيعم ما يتعلق بالباطن والظاهر. وهكذا الإيمان إذا أطلق عم الجميع؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». فالإيمان هنا يعم الجميع، فيعم أركان الإسلام، ويعم جميع الأعمال الظاهرة، كما يعم الباطنة، كما أنه يشمل الإحسان.[٣]

(١) أخرجه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٤) مِن حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) مِن حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) من شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

والإيمان والإسلام إذا ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنى، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة، ومحلها القلب، ولا بد من اجتماعها في المسلم، لا بد أن يكون مسلما مؤمنا، يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان، لا بد من اجتماعها.[١]

الإيمان يتكون من أركان وشعب، فما الفرق بينهما؟

والإيمان له أركان وله شعب، وقد بينها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثين، بين أركان الإيمان في حديث جبريل، وبين شعب الإيمان في حديث «الإيمان بضع وسبعون شعبة».[٢]

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة روايتان»[٣]،[٤]

الجمع بين الحديثين:

والجمع بين ما تضمنه كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأن الإيمان أركانه ستة أن نقول:

الإيمان الذي هو العقيدة أصوله ستة وهي المذكورة في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) أخرجه البخاري (٩) بلفظ: (وستون) ومسلم (٣٥) بروايتيه مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وأما الإيمان الذي يشمل الأعمال وأنواعها وأجناسها فهو بضع وسبعون شبعة ولهذا سمى الله تعالى الصلاة إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٤٣] قال المفسرون يعني صلاتكم إلى بيت المقدس لأن الصحابة كانوا قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة يصلون إلى بيت المقدس.[١]

الفرق أن الأركان لا بد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا على أركانه، فإذا فقد ركن من أركان الشيء لم يتحقق، وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكلية عند أهل السنة والجماعة، ولكن يزول كماله الواجب، فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شرب الخمر أو سرق أو زنى، أو فعل شيئا من الكبائر، هذا يكون فاعلا لمحرم وكبيرة من كبائر الذنوب، لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان، بل يكون فاسقا، ويقام عليه الحد إن كانت المعصية ذات حد، وكذلك من ترك واجبا، كمن ترك بر الوالدين، أو صلة القرابة، هذه واجبات، فمن تركها نقص إيمانه، وكان عاصيا بترك الواجب، فيكون عاصيا إما بترك الواجب، وإما بفعل محرم، وعلى كل حال لا يخرج من الإيمان، وإنما يكون مؤمنا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج والمعتزلة الذين

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

يكفران مرتكب الكبيرة، فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدين، والمعتزلة يخرجونـه من الدين، لكن لا يدخلونه في الكفـر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين، لا هو مؤمن، ولا كافر.

هذا مذهبهم، وهـو مذهب مبتدع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهـل السـنة والجماعة، والسـبب في ذلـك تقصيرهم في الاسـتدلال، حيث أخـذوا أدلة الوعيـد، وتركوا أدلة الوعد مثل قولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، هـذه مـن أدلة الوعد، دلت على أن العاصي الذي لم يصل إلى حد الشرك والكفر أنه مرجو له المغفرة، ومعرض للوعيد والعقوبة.

فـإذا جمعت بين قولـه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: ٢٣]، من أخذ بظاهرها كفر بالمعصية مطلقا، وإن ردها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين، ولكنه متوعد بالنار، إن شـاء الله غفر له، وإن شـاء عذبه، فقد يأتي عليه مكفرات في الدنيا، أو عذاب في القبر، تكفر هذه السـيئات، والمكفرات كثيرة، يبتلى بمصائب، يبتلى بعقوبات في الدنيا، أو يعذب في قبره، أو يؤجل إلى يوم القيامة، ويكون تحت المشيئة.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشعب والأركان، فمن ترك شـيئًا من الأركان فإنه يكفر، من جحد التوحيد وأشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هـذا يكفر؛ لأنه تـرك الركن الأول، ومن جحد أحد الرسـل يكفر؛ لأنه ترك ركنا من أركان الإسـلام، ومن جحد الملائكة يكفر ويخرج من الملة، ومن كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار أو الصراط أو الميزان، أو شيئا مما ثبت

من أمور الآخرة، فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنا من أركان الإيمان، كذلك من جحد القدر وقال: الأمر أنف، ولم يسبق قدر من الله، إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قدر، كما يقوله غلاة المعتزلة، فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما من ترك شيئا من الشعب فإن هذا ينقص إيمانه، إما أن يكون نقصا لكماله الواجب، أو نقصا لكماله المستحب، لكنه لا يكفر بذلك.(١)

هذا الإيمان قول وعمل واعتقاد، ويراد به تارة:

الاعتقادات الباطنة، وهو الذي يناسب المرتبة الثانية، لأن المرتبة الأولى هي الإسلام، وهي ما يشمل العمل الظاهر كما جاء في حديث جبريل، فقد جاء في بعض طرقه أنه ذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لجبريل أن من الإسلام بعد الحج الغُسل من الجنابة، ومنه الذكر، ونحو ذلك مما هو من جنس الأعمال الظاهرة. وأما الإيمان: فهو العقائد الباطنة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر.

«الإيمان بضع وسبعون شعبة»

وهذا يعني به اسم الإيمان العام الذي يدخل فيه الإسلام؛ لأن الإيمان أوسع من الإسلام، والإسلام بعض الإيمان، وأهل الإيمان أخص مرتبة من أهل الإسلام، لهذا الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، بهذا المعنى ولهذا المعنى قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **«وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله»** ومن المعلوم أن قول لا إله إلا الله أنه أول أركان الإسلام؛ شهادة لله بالتوحيد بقول لا إله إلا الله مع توابع ذلك هذا الركن الأول، فهنا عدَّ قول لا إله إلا الله

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أعلى شعب الإيمان، وهذا لأن الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، وهذا قد جاء مبينـًا في الحديث الصحيح الـذي رواه البخاري ومسـلم وغيرهما أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال «**الإيمان بضع وستون أو قال بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**» فذكر أن أعلى شُـعب الإيمان لا إله إلا الله، وقوله شُـعب هذا تمثيل للأيمان بالشجرة التي لها شعب ولها فروع(١)

قوله: «**بضع**»: البضع هو ما بين الثلاثة إلى التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر: هو ما بين ثلاثة عشـر إلى تسـعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلى التسعة.

قولـه: «**شـعبة**»: الشـعبة هي القطعـة مـن الشـيء، أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءاً.

قولـه: «**أعلاهـا**»: أي: أعلى هذه الشـعب قول: لا إلـه إلا الله، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدين.

قوله: «**أدناها**» أي: آخرها وأقلها.

قولـه: «**إماطة الأذى عن الطريق**» أي: إزالة الأذى عن الطريق المسـلوك، والأذى كل مـا يـؤذي النـاس من شـوك أو حجر أو قـاذورات أو مخلفات، كل مـا يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذى في الطريق محرم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذى يعطل المارة، أو يعرضهم للخطر، مثل أن يوقف سـيارته في الطريق، هذا من الأذى، إرسـال الماء من البيـت في الطريق، هذا من الأذى، وضع القمامات في الطريق، هذا من الأذى، سـواء كان الطريق في البلد أو في

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

البر، وضع الحجارة، وضع الأخشـاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حفر الحفر في طرقات الناس، كل هذا من الأذى.

فـإذا جاء مسـلم وأزاح هـذا الأذى، أخلى الطريـق منه، فهـذا دليل على إيمانه، فوضع الأذى في الطريق من شـعب الكفـر، وإزالة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان.

قولـه: «والحياء شـعبة من الإيمـان»: الحياء خلق يجعله الله في الإنسـان، يحمله على فعل ما يُجَمِّلُهُ ويُزَيِّنُهُ، ويمنعه مما يُدَنِسُـهُ ويُشِينُهُ، والحياء الذي يحمل صاحبه على الخير، ويبعده عن الشـر، هـذا محمود، أما الحياء الذي يمنع الإنسـان من فعل الخير، وطلب العلم، والسؤال عما أشكل عليه، فهذا حياء مذموم لأنه خجل.

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم، بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلفا كبيراً بين فيه شعب الإيمان، وله مختصر مطبوع.(١)

الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا قال، وقد مثل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأعلى الشعب وبأدنى الشـعب، ومثّل بشعبة من الشـعب، وهذه الثلاث التي ذكرها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ متنوعة:

فالأول وهو أعلاها **قول**: قول لا إله إلا الله.

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق هذا **عمل**.

والحياء شعبة من الإيمان، الحياء **عمل القلب**.

فذكـر في هـذا قول لا إلـه إلا الله، وهذا قول باللسـان، ولا شـك أنه يتبعه

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

اعتقاد بالجنان، وذكر الحياء أيضًا وهو عمل بالقلب، وذكر إماطة الأذى عن الطريق وهو عمل الجوارح، فتمثيله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لذلك لأجل أن يُستدل لكل واحد من هذه الثلاثة؛ لكل شعبة من هذه الشعب على نظائرها:

فيُستدل بكلمة التوحيد بقول لا إله إلا الله على الشعب القولية.

ويُستدل بإماطة الأذى عن الطريق بالشعب العملية؛ عمل الجوارح.

ويُستدل بذكره الحياء على الشعب القلبية.

وهذا من أبلغ ما يكون من التشبيه والتمثيل، وذلك لأن التنويع كما نوع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجعل الناظر يُعدِّي هذا الذي ذكر إلى أمثال تماثلها كثيرة، ولهذا العلماء اختلفوا في شعب الإيمان بِعَدِّها، عَدَّها جماعة وصنفوا فيها مصنفات كما صنف الحليمي كتابه، الشيخ البيهقي كتابه، كتاب الإيمان؛ المنهاج في شعب الإيمان وهو مطبوع، وتلاه على ترتيبه وعلى نسقه البيهقي موسعًا داعمًا بالأدلة في كتابه شعب الإيمان، ونحو ذلك، عدُّوها على اجتهاد منهم، وهذا الاجتهاد يختلف فيه العلماء، فمنهم من يعد خصالاً من شعب الإيمان، ومنهم من يعد أخرى، وسبب ذلك اجتهادهم في قياس ما لم يذكر على ما ذكر، فيجعل بعضا منها قولية، ويجعلون بعضا منها عملية، ويجعلون بعضا منها لعبادات القلب، وهم يقسمونها في الغالب أثلاثا: فيجعلون للقوليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون للعمليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون لأعمال القلوب نحوًا من سبع وعشرين أو خمس وعشرين شعبة، يزيدون وينقصون.

المقصود أن هذا اجتهاد، اجتهاد من العلماء، لكن هذا التمثيل يدل على

مـا ذكرت لك من اسـتيعابه للأقوال وأعمال الجـوارح وأعمال القلوب، إذاً فيدخل في هذه الشـعب، شـعب الإسـلام: إقـام الصلاة، إيتاء الـزكاة، صوم رمضان، الحج، الجهاد، الغسـل، الطهارة، ونحو ذلك، يدخل فيها الأعمال الاجتماعيـة التي أُمر بها؛ صلـة الأرحام، بر الوالدين إلـى آخره، يدخل فيها أعمـال القلـوب من الخشـية والإنابة والحيـاء والمحبة والرجـاء والخوف والرهـب والرغب إلى آخـر هذه الأمثلة، فكل هذه مـن الإيمان ودليل ذلك الحديث الصحيح الذي جاء في الصحيحين.(١)



وَأَركَانُهُ سِتَّةٌ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ

وأركانه سـتة: أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقـد بفقدها أو بفقد واحد منها سـتة أركان، وهي:(٢) **أَن تُؤمِنَ بِـاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُـلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**

هـذا طرف من حديث جبريل، كما سـيذكره الشـيخ، والمراد من الإيمان هنـا: الاعتقـاد، والإيمـان بهذه الأصول السـتة إجمالاً فـرض عين على كل مكلف. وأما الإيمان بها تفصيلاً، فهو فرض كفاية، ولكن من علم شـيئًا من ذلك التفصيل وجب عليه الإيمان به عينـًا.(٣)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

الأول: أن تؤمن بالله:

الإيمان بالله يشمل:

١. الإيمان بوجود الله ٢. بأن الله واحد في ربوبيته

٣. وأنه واحد في إلهيته لاستحقاقه العبادة

٤. أنه واحد في أسمائه وصفاته، يعني ليس كمثله شيء في أسمائه، وليس كمثله شيء في صفاته كما قال تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١]، فبيان قوله أن تؤمن بالله هو شرح التوحيد كله.(١)

فالركن الأول وهو الإيمان بالله، يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ واحد أحد فرد صمد، لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.(٢)

الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١. الأول: الإيمان بوجود الله تعالى:

وقد دل على وجوده تعالى: الفطرة، والعقل، والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(٣).

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه. ومسلم، كتاب القدر، باب: ما من مولود يولد إلا على الفطرة.

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى: فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها لا بد لها من خالق أوجدها إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صدفة.

لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن الشيء لا يخلق نفسه، لأن قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقاً؟

ولا يمكن أن توجد صدفة، لأن كل حادث لابد له من محدث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعاً باتاً أن يكون وجودها صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟!

وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن توجد صدفة تعين أن يكون لها موجد وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور، حيث قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لما سمع -جبير بن مطعم- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] وكان -جبير يومئذ مشركاً- قال: «كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» رواه -البخاري- مفرقاً[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور جـ٤، ص ١٨٣٩.

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك، فإنه لو حدثك شخص عن قصر مشيد، أحاطت به الحدائق، وجرت بينها الأنهار، وملئ بالفرش والأسرة، وزين بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه، أو وجد هكذا صدفة بدون موجد، لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثه سفها من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه، وأفلاكه وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجد نفسه، أو وجد صدفة بدون موجد؟!

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى: فلأن الكتب السماوية كلها تنطق بذلك، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأما أدلة الحس على وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] وفي صحيح البخاري عن -أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أن أعرابيًا دخل يوم الجمعة والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخطب، فقال: «يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه ودعا فثار السحاب أمثال الجبال فلم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته. وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: «يا رسول الله تهدم البناء

وغرق المال، فادع الله لنا»، فرفع يديه وقال: «الله حوالينا ولا علينا»، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت».(١)

وما زالت إجابة الداعين أمراً مشهوداً إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى (المعجزات) ويشاهدها الناس، أو يسمعون بها، برهان قاطع على وجود مرسلهم، وهو الله تعالى، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر، يجريها الله تعالى تأييداً لرسله ونصراً لهم. مثال ذلك: آية موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق أثنى عشر طريقاً يابساً، والماء بينها كالجبال، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

ومثال ثان: آية عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان يحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، قال الله تعالى: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٤٩] وقال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومثال ثالث: لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين طلبت منه قريش آية، فأشار إلى القمر فانفلق فرقتين فرآه الناس، وفي ذلك قوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١-٢]. فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييداً لرسله، ونصراً لهم، تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب: رفع اليدين في الدعاء. ومسلم، كتاب الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء.

٢. الثاني: الإيمان بربوبيته: أي أنه وحده الرب لا شريك له ولا معين.

والرب: من له الخلق والملك، والأمر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا هو، ولا أمر إلا له، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: ١٣].

ولم يعلم أن أحداً من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه، إلا أن يكون مكابراً غير معتقد بما يقول، كما حصل من -فرعون- حين قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] لكن ذلك ليس عن عقيدة، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤] وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولهذا كان المشركون يقرون بربوبية الله تعالى، مع إشراكهم به في الألوهية، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: ٩] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾ [الزخرف:٨٧].

وأمر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي فكما أنه مدبر الكون

القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادت وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان.

٣. الثالث: الإيمان بألوهيته:

أي (بأنه وحده الإله الحق لا شريك له) و«الإله» بمعنى المألوه «أي» المعبود حبًا وتعظيمًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]. وكل ما اتخذ إلهًا مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢] وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية قال الله تعالى في اللات والعزى ومناة): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ﴾ [النجم: ٢٣] وقال عن هود أنه قال لقومه: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٧١] وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠] ولهذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ولكن أبى ذلك المشركون، واتخذوا من دون الله آلهة، يعبدونهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويستنصرون بهم، ويستغيثون.

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين:

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي أتخذوها شيء من خصائص الألوهية، فهي مخلوقة لا تخلق، ولا تجلب نفعًا لعابديها، ولا تدفع عنهم ضرراً، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا، ولا يملكون شيئًا من السماوات ولا يشاركون فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ٣﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقال: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة، فإن اتخاذها آلهة من أسفه السفه، وأبطل الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢] وقال ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

٤. الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته:

أي: ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

وقد ضل في هذا الأمر طائفتان:

إحداهما: (المعطلة) الذين أنكروا الأسماء، والصفات، أو بعضها، زاعمين أن إثباتها يستلزم التشبيه، أي تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أنه يستلزم لوازم باطلة كالتناقض في كلام الله سبحانه، وذلك أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات، ونفى أن يكون كمثله شيء، ولو كان إثباتها يستلزم التشبيه لزم التناقض في كلام الله، وتكذيب بعضه بعضاً.

الثاني: أنه لا يلزم من أتفاق الشيئين في أسم أو صفة أن يكونا متماثلين، فأنت ترى الشخصين يتفقان في أن كلاً منهما إنسان سميع، بصير، متكلم، ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في المعاني الإنسانية، والسمع والبصر، والكلام،

وتـرى الحيوانات لها أيد وأرجل، وأعين ولا يلزم مـن اتفاقها هذا أن تكون أيديها وأرجلها، وأعينها متماثلة.

فـإذا ظهر التبايـن بين المخلوقات فيمـا تتفق فيه من أسـماء، أو صفات، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

الطائفة الثانية: (المشـبهة) الذين أثبتوا الأسـماء والصفات مع تشـبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص، لأن الله تعالى يخاطب العباد يفهمون وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أن مشـابهة الله تعالـى لخلقه أمر باطل ببطله العقل، والشـرع، ولا يمكن أن يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمراً باطلاً.

الثاني: أن الله تعالى خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى، أما الحقيقة والكنه الذي عليه ذلك المعنى فهو مما اسـتأثر الله تعالى بعلمه فيما يتعلق بذاته، وصفاته.

فإذا اثبت الله لنفسـه أنه سميع، فإن السـمع معلوم من حيث أصل المعنى (وهـو إدراك الأصـوات) لكن حقيقة ذلك بالنسـبة إلى سـمع الله تعالى غير معلومـة، لأن حقيقة السـمع تتباين حتـى في المخلوقات، فالتبايـن فيها بين الخالق والمخلوق، أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه أستوى على عرشه فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم، لكن حقيقة الاسـتواء التي هو عليه غير معلومة بالنسبة إلـى اسـتواء الله على عرشـه فإن الاسـتواء تتبايـن في حق المخلـوق، فليس الاسـتواء على كرسـي مسـتقر كالاسـتواء على رحل بعير صعب نفور، فإذا

تباينت في حق المخلوق، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى بحيث لا يتعلق بغيره رجاء، ولا خوفًا، ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى، وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.(١)

الثاني: الإيمان بالملائكة: الملائكة جمع ملك، وهو المرسل لأن أصلها (مَألَكَ) من (أَلَكَ) يعني أرسل رسالة خاصة، أَلَكَ يألك أَلُوكَةً، والمرسل مألك أو مَلأَك، وأصلها مألك؛ لأنها من أَلَكَ، خُففت الهمزة كما تخفف كثيراً فصارت ملَك، وجمعها ملائكة، لهذا ظهر في الجمع الهمز؛ لأن أصله في المفرد موجود، الملك جمعه ملائكة ظهر الهمز، ومفرد الملائكة ملأك إلى آخره. يعني المرسلون الموكلون بما وكلهم الله جَلَّ وَعَلَا به.

هذا الركن من أركان الإيمان تحقيقه يكون: بأن يؤمن المسلم بأن لله جَلَّ وَعَلَا ملائكة، خلق من خلقه جَلَّ وَعَلَا، جعلهم موكلين بتصريف هذا العالم، يأمرهم فينفذون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء:٢٦]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]، فمن أيقن أن هذا الجنس من خلق الله موجود، وآمن بذلك، وأن منهم من ينزل بالوحي إلى الرسل، يبلِّغهم رسالات الله فقد حقق هذا الركن من أركان الإيمان، ثم بعد ذلك يكون الإيمان التفصيلي على نحو

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

ما فصلت لكم في شرح الأربعين، يكون الإيمان التفصيلي، وهذا يختلف فيه الناس بحسب العلم، لكن المقصود هنا أن تحقيق هذا الركن من أركان الإيمان يكون بتحقيق ما ذكرت، وبعد ذلك الإيمان بكل ما جاء بالكتاب والسنة من أوصاف الملائكة ومن أحوالهم؛ صفة خلقهم ومقامهم عند ربهم، وأنواع أعمالهم وأعمال ما وكلوا به، فكله من الإيمان التفصيلي، من علم شيئًا من النصوص في ذلك وجب عليه الإيمان، لكن تحقيق الركن يكون بالمعنى الأول.(١)

والملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته، ولتنفيذ أوامره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ملكه، وهم أصناف، كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فمنهم من هو موكل بالوحي، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين، شديد القوى، ومنهم من هو موكل بحمل العرش ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: ١٧].

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عظمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، يحمله الملائكة، وهذا دليل على عظم الملائكة، وعظم قواهم وخلقهم، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١]، فمنهم من له ستمائة جناح كجبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يعلم عظم خلقتهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]،

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

ومنهم الموكل بالقطر والنبات، وهو ميكائيل، ومنهم من هو موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، ينفخ في الصور، فيهلك كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، ثم ينفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

تطير الأرواح من القرن وهو الصور إلى أجسادها، وتدخل فيها، فيحيون بإذن الله، ثم يسيرون إلى المحشر.

ومنهم من هو موكل بقبض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: ١١]، ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: ٦١] يعني أعوان ملك الموت، ومنهم من هو موكل بالأجنة في الأرحام، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك الحديث»[1]، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: ١٠ - ١١]، يلازمونكم بالليل والنهار.

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار»[2]، ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) مِن حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: يحضره الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار، ومنهم من هو موكل بحفظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء ومن الهوام ومن السباع ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

ينام بين السباع وبين الحيات في البر، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلى أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه، فوقع ما قدر الله له من الموت أو الإصابة التي تفضي إلى الموت.

ومنهم ملائكة موكلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السماوات والأرض، لا يعلمهم إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، منهم ملائكة يطلبون مجالس الذكر ويحضرونها كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة»(١)، ملائكة سياحون في الأرض، يطلبون حلق الذكر ويشهدونها.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا الله، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمن جحد الملائكة وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم، هذا يكون كافراً ملحداً زنديقاً والعياذ بالله؛ لأنه لم يؤمن بالغيب، وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

هي معان وليست أجساماً، وهي الهواجس التي تأتي على الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شر فهي شياطين، فهذا قول إلحادي والعياذ بالله، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده، ولكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكفر بالملائكة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين وأمور الغيب، وإنما يعتمد على الكتاب والسنة، هذا هو الواجب...

والملائكة ليسوا معان كما يقول، بل الملائكة أجسام وأشكال، يتشكلون بأشكال أعطاهم الله القدرة عليها، ولهذا كان جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأتي إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل، فأعطاهم الله القدرة على التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا يطيقون رؤية الملائكة على خلقتهم التي خلقهم الله عليها، وإنما يأتون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل رفقا ببني آدم، ولا يرون على صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرى ملائكة الموت، لكن في الدنيا وعلى قيد الحياة لا يراهم؛ لأنه لا يطيق رؤيتهم، خلقهم الله من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن، وخلق آدم من تراب، فالله على كل شيء قدير.[١]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وقد أنكر قوم من الزائغين كون الملائكة أجساماً، وقالوا إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [الفاطر: ١].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال في أهل الجنة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».(١)

وفيه أيضاً عنه قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا كان يوم الجمعة على كل باب من أبواب المساجد الملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر».(٢)

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة. ومسلم، كتاب البر والصلة، باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده

(٢) أخرجه البخارين كتاب الجمعة، باب: الاستماع إلى الخطبة. ومسلم، كتاب الجمعة، باب: فضل التهجير يوم الجمعة.

وهـذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسـام لا قوى معنوية، كما قال الزائغون وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون». (١)

والكفـار يعتقـدون أن الملائكة بنـات الله، قـال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]. (٢)

وليـس لهـم من خصائـص الربوبيـة والألوهية شـيء، خلقهـم الله تعالى مـن نور، ومنحهـم الانقياد التام لأمـره، والقوة على تنفيذه. قـال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة المعراج أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رفـع له البيت المعمور في السـماء يصلـي فيه كل يوم سـبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودا إليه آخر ما عليهم. (٣)

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه (كجبريل) ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً.

الثالـث: الإيمـان بمـا علمنـا مـن صفاتهـم، كصفـة (جبريل) فقـد أخبر

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة. ومسـلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفرض الصلوات.



النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رآه على صفته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق.[١] وقد يتحول الملك بأمر الله تعالى إلى هيئة رجل، كما حصل (لجبريل) حين أرسله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشراً سويـًا، وحين جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالس في أصحابه جاءه بصفة لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، فجلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام، والإيمان والإحسان، والساعة، وأماراتها، فأجابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانطلق. ثم قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». رواه مسلم.

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم، ولوط كانوا في صورة رجال.

الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى، كتسبيحه، والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور.

قد يكون لبعضهم أعمال خاصة.

مثل: جبريل الأمين على وحي الله تعالى يرسله به إلى الأنبياء والرسل.

ومثل: ميكائيل الموكل بالقطر أي بالمطر والنبات.

ومثل: إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة وبعث الخلق.

ومثل: ملك الموت الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ومثل: مالك الروح بالنار وهو خازن النار.

ومثل: الملائكة الموكلين بالأجنة في الأرحام إذا تم للإنسان أربعة أشهر

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، ٣٢٣٢-٣٢٣٣

في بطن امه، بعث الله إليه ملكاً وأمره بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

ومثل: الملائكة الموكلين بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها لكل شخص، ملكان: أحدهما عن اليمين، والثاني عن الشمال.

ومثل: الملائكة الموكلين بسؤال إذا وضع في قبره يأتيه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه.

والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعظمة الله تعالى، وقوته، وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

الثانية: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

الثالثة: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.(١)

الثالث: الإيمان بكتبه: يتحقق الإيمان بهذا الركن: بأن يؤمن العبد أن الله جَلَّ وَعَلَا أنزل كتباً مع رسله إلى خلقه، جعل في هذه الكتب الهدى والنور والبينات وما به يصلح العباد، وأن هذه الكتب التي أُنزلت مع الرسل كلها حق؛ لأنها من عند الله جَلَّ وَعَلَا، والله جَلَّ وَعَلَا هو الحق المبين، وما كان من جهة الحق فهو حق، ويوقن بذلك يقيناً تاماً، ثم يوقن ويؤمن إيماناً خاصاً بآخر هذه الكتب ألا وهو القرآن، فكما أنه يؤمن بالكتب السابقة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى ونحو ذلك، يؤمن بها

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

إيمانــًا عامـًا على ما أنزله الله جَلَّ وَعَلَا على أنبيائه ورســله، فإنه يؤمن به إيمانـًا خاصــًا بهــذا القرآن، وأنــه كلام الله منه بــدأ وإليه يعود، وأنــه حجة الله على الناس إلى قيام الســاعة، وأنه به نُسخت جميع الرسالات وجميع الكتب من قبـل، وأنه حجة الله الباقية على الناس، وأن هــذا الكتاب مهيمن على جميع الكتــب وما فيه مهيمن على جميع ما ســبق، كما قــال جَلَّ وَعَلَا في وصف كتابه ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائـدة:٤٨]، وأن ما فيه مــن الأخبار يجب تصديقها، وما فيه مــن الأحكام يجب امتثالها، وأن من حكم بغيره فقد حكم بهواه، ولـم يحكم بما أنزل الله. هذا كله من الإيمان الخاص بالقرآن.(١)

وهي الكتب التي أنزلها الله على الرســل لهداية البشــر، نؤمن بأنها كلام الله حقيقة، ونؤمن بما سمى الله منها وما لم يسم، سمى الله لنا منها التوراة والإنجيل والقــرآن العظيم وصحف إبراهيم وموســى والزبور، فنؤمن بها، ونؤمن بما لم يسمه الله منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانـًا مجملاً، والإيمان بالقرآن يكون إيمانـًا مفصلاً بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأنزل على نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فمن جحد آية أو حرفا من حروفه فهو كافر مرتد عن الإسلام.

وكذلــك من آمن ببعض القــرآن وكفر ببعض فهو كافــر، وكذلك من آمن ببعــض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومن قــال: أنا أومن بالقرآن ولا أومن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أومن بالتوراة والإنجيل ولا أومن بالزبور الــذي أنزل على داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهو كافر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣]، أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله عَزَّ وَجَلَّ، ومكذب لرسله، فهو كافر لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقاً.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتوراة التي أنزلت على موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزبور الذي أوتيه داود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي (حاكماً عليه) وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن.

والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم. كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].[(١)]

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم،

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

من سـمى الله منهم ومن لم يسـم، نؤمن بهم جميعـًا، وأنهم رسـل الله حقـًا، جاءوا بالرسالة، وبلغوها لأممهم.

فمـن كفـر بنبي واحد فهـو كافر بجميع الرسـل لقولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥٢].

فالكفـر بنبي واحد أو برسـول كفـر بالجميع، ولهذا قـال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشـعراء: ١٠٥]، مـع أنهـم كذبـوا نوحـًا، فتكذيبهـم لنـوح صار تكذيبـًا لبقية المرسـلين، وكذلك من كفر بعيسـى ومحمـد كاليهود، أو كفر بمحمـد كالنصـارى، فإنه كافـر بالجميع، لا بـد من الإيمان بجميع الرسـل عليهم الصلاة والسلام، من سمى الله منهم ومن لم يسم.

وقـد سـمى الله منهـم كمـا في سـورة الأنعـام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٦﴾ [الأنعـام: ٨٣– ٨٦]، فذكـر جملـة منهـم في هـذه الآيـات، وفي آيـات أخرى، فنؤمـن بمن سـمى الله منهم، ونؤمـن بمن لم يسم الله منهم.[١]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

إذا آمن المسلم بأن الله جَلَّ وَعَلَا أرسل رسلاً؛ بعثهم بالتوحيد، يدعون أقوامهم إلى التوحيد، وأنهم بلغوا ما أمروا به، وأيدهم الله بالمعجزات، بالبراهين والآيات الدالة على صدقهم، وأنهم كانوا أتقياء بررة، بلّغوا الأمانة وأدوا الرسالة. بهذا يكون آمن بالرسل جميعًا، ثم يؤمن إيمانًا خاصًا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه خاتم الرسل، وأنه جَلَّ وَعَلَا بعثه بالحنيفية السمحة، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات، القسم الثاني الإيمان التفصيلي بالرسل على نحو ما أوضحت لكم، فيه مقامات كثيرة في ذلك، يتبع العلم التفصيلي بأحوال الرسل وأسمائهم وأحوالهم مع أقوامهم وما دعوا إليه وكتبهم ونحو ذلك.(١)

والرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، قال الله تعالى عن نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض، والموت، والحاجة إلى الطعام والشراب، وغير ذلك، قال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في وصفه لربه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١﴾ [الشعراء:٧٩-٨١].

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني»[(١)].

وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية له في أعلى مقاماتهم، وفي سياق الثناء عليهم فقال تعالى في نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء:٣] وقال في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

وقال في إبراهيم، وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٥-٤٧]. وقال في عيسى بن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩].

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع. كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء:١٠٥] فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه، وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضاً، لا سيما وأنه قد بشرهم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذهم الله به من الضلالة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

(١) أخرجه البخاري، كتاب القبلة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان. ومسلم، كتاب المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وفي سورة الشورى في قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المرسل إلى جميع الناس قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وللإيمان بالرسل ثمران جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم، والثناء عليهم

بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده.

وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥] فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشراً لأنه مرسل إلى أهل الأرض، وهم بشر، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكًا رسولاً، ليكون مثلهم، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذبين للرسل أنهم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].[١]

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس، واليوم الآخر المراد به يوم القيامة، سمي باليوم الآخر لأنه بعد اليوم الأول، وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول، والقيامة هي اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث والنشور والمحشر والحساب ووزن الأعمال، والصراط والميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار، فتفاصيل ما يحصل في

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

اليـوم الآخـر نؤمن بها جملة وتفصيـلاً، بداية من الموت إلى أن يسـتقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شـيء منه، فمن شك في شـيء منه فهو كافر مرتد عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.(١)

اليـوم الآخـر: يـوم القيامة الـذي يبعث النـاس فيه للحسـاب والجزاء. وسـمي بذلك لأنه لا يوم بعده، حيث يسـتقر أهل الجنة في منازهم، وأهل النار في منازلهم.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمـان بالبعـث: وهو إحياء الموتى حين ينفـخ في الصور النفخة الثانيـة، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاة غير منتعلين، عراة غير مسـتترين، غـرلاً غير مختتنين، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. والبعث: حق ثابت دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يحشر الناس يوم القيامة غرلاً»(٢) متفق عليه.

وأجمـع المسـلمون على ثبوته، وهـو مقتضى الحكمة حيـث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معاداً يجازيهم فيه على ما كلفهم به على ألسنة رسـله قال الله تعالـى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف الحشـر. ومسـلم، كتاب الجنة، باب: الدنيا وبيان المحشر يوم القيامة.

[المؤمنون: ١١٥] وقال لنبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

الثاني: الإيمان بالحساب والجزاء: يحاسب العبد على عمله، ويجازى عليه، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى أنه قد هلك قال: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا اغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»[1] متفق عليه.

وصح عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أن من هم بحسنة فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأن من هم بسيئة ففعلها كتبها الله سيئة واحدة».[2]

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب: قوله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين». ومسلم كتاب التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب: من هم بحسنة أو سيئة، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء بالنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إلى السماوات.

وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة فإن الله تعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم، وذرياتهم، ونسائهم، وأموالهم. فلو لم يكن حساب، ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي ينزه الرب الحكيم عنه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦٧].

الثالث: الإيمان بالجنة والنار، وأنهما المال الأبدي للخلق، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به، وقاموا بطاعة الله ورسوله، مخلصين لله متبعين لرسوله. فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٧].

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين، الذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والنكال مالا يخطر على البال قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران:١٣١] وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ

ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل:

أ. فتنة القبر: وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ويضل الله الظالمين فيقول الكافر هاه، هاه، لا أدري. ويقول المنافق أو المرتاب لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

ب. عذاب القبر ونعيمه: فيكون العذاب للظالمين من المنافقين والكافرين قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣].

وقال تعال في آل عمران: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٤].

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت: ٤١].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٩].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره: «مد بصره»[١] رواه أحمد أبو داود في حديث طويل.[٢]

وتحقيق هذا الركن يكون بأن يوقن هذا العبد يؤمن بغير شك بأنَّ ثَم يوم يعود الناس إليه، يُبعثون فيه وإليه، يحاسبون فيه، وأن كل إنسان مَجزِيٌّ بما فعل، لأن الأمر ليس منتهيا بالموت، بل ثَم يوم يجتمع فيه الناس فيقتص من الظالم إلى المظلوم ويحاسب الناس على أعمالهم، كما قال تعالى ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر:٧٠]، إذا آمن بهذا القدر، وأن هناك يومٌ سيكون، وأنه سيبعث من جديد، فإنه قد حقق هذا الركن. بعد ذلك الإيمان التفصيلي باليوم الآخر هذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال يوم القيامة، من أحوال القبور، أحوال ما يكون يوم القيامة، الإيمان بالحوض، بالميزان، الإيمان بالصحف، الإيمان بالصراط، الإيمان بأحوال الناس في

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢٨٧، وابو داود، كتاب السنة، باب: المسألة في عذاب القبر، والهيثمي في «مجمع الزوائد ٣/ ٤٩-٥٠، وأبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٠، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٣٧٤، والآجري في «الشريعة» ص ٣٢٧، وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

العرصات، أحوال الناس بعد أن يجوزوا الصراط يعني المؤمنين الذين يدخلون الجنة، وما يكون بعد أن يجوزوا الصراط، ومن يدخل الجنة أولا، وأحوال الناس في النار ونحو ذلك، أحوال الظُّلمة، أحوال الجسر، هذه كلها أمور تفصيلية لا يجب الإيمان بها على كل أحد، إلا من سمعها في النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بما سمع، لكن لو قال قائل: أنا لا أعلم هل ثَمَّ حوض أم لا؟ لا أدري هل ثم ميزان أم لا؟ ونحو ذلك، يُعرف بالنصوص فإن عرف فأنكر وكذَّب فيكون مُكذِّبا بالقرآن وبالسنة، أما تحقيق هذا المقام الذي هو اليوم الآخر، يؤمن بأن ثم يوم يعود فيه الناس، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فلو سألت أحدا قلت له: هل ثم يوم آخر يعود فيه الناس؟ قال: بلا شك هناك يوم القيامة يُبعث فيه ويحاسب الناس، فيه أهوال. وسكت، بهذا حقق الركن وهو الإيمان باليوم الآخر، إذا سألته هل تؤمن بالحوض؟ قال: أُوش الحوض؟ أنا ما أعرف هذا الحوض. هل تؤمن بالميزان؟ أنا ما أعرف. يُعرَّف النصوص الدالة على ذلك، لأن هذا من العلم التفصيلي الذي إنما يجب العلم به بعد إخباره بما جاء في النصوص عليه.[1]

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرضى بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت زاعمين أن ذلك غير ممكن.

وهذا الزعم باطل دل على بطلانه الشرع، والحس، والعقل.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

أما الشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧] وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.

وأما الحس: فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي: المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة: ٥٥- ٥٦].

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣].

المثال الرابع: في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مئة سنة، ثم أحياه وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ

﴿مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل حين سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى؟ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل على إمكانية إحياء الموتى، وقد سبقت الإشارة إلى ما جعله الله تعالى من آيات عيسى ابن مريم من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل فمن وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى فاطر السماوات والأرض وما فيهما، خالقهما ابتداء، والقادر على ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال آمرا بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٩].

الثاني: أن الأرض تكون ميتة هامدة ليس فيها شجرة خضراء، فينزل عليها المطر فتهتز خضراء حية فيها من كل زوج بهيج، والقادر على إحيائها بعد موتها، قادر على إحياء الموتى قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

وقد ضل قوم من أهل الزيغ فأنكروا عذاب القبر، ونعيمه، زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفة الواقع، قالوا فإنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق.

وهذا الزعم باطل بالشرع، والحس، والعقل:

أما الشرع: فقد سبقت النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر، ونعيمه في فقرة (ب) مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر. وفي صحيح البخاري -من حديث- ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما»[1] وذكر الحديث، وفيه: «أن أحدهما كان لا يستتر من البول» -وفي رواية- «من (بوله)» وأن الآخر كان يمشي بالنميمة.

وأما الحس: فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه، أو أنه كان في مكان ضيق موش يتألم منه، وربما يستيقظ أحيانًا مما

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء باب: من الكبائر ألا يستبرأ من بوله. ومسلم، كتاب الطهارة باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه.

رأى، ومع ذلك فهو على فراشه في حجرته على ما هو عليه، والنوم أخو الموت ولهذا سماه الله تعالى « وفاة » قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وأما العقل: فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للمواقع، وربما رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على صفته، ومن رآه على صفته فقد رآه حقاً ومع ذلك فالنائم في حجرته على فراشه بعيداً عما رأى، فإن كان هذا ممكناً في أحوال الدنيا، أفلا يكون ممكناً في أحوال الآخرة؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق، فجوابه من وجوه منها:

الأولى: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء به الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبهات وقد قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

الثاني: أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس، ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوى المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

الثالث: أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش، أو في مكان واسع بهيج، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه وغطائه.

ولقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوحى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي،

ولا يسمعه الصحابة، وربما يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه والصحابة لا يرون الملك، ولا يسمعونه.

الرابع: أن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله تعالى من إدراكه ولا يمكن أن يدركوا كل موجود، فالسماوات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحًا حقيقيًا يسمعه الله تعالى من شاء من خلقه أحيانًا. ومع ذلك هو محجوب عنا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهكذا الشياطين، والجن، يسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا، وقد حضرت الجن إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ واستمتعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قومهم منذرين. ومع هذا فهم محجوبون عنا وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧] وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود، فإنه لا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب، ولم يدركوه. [١]

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشره

القدر: بفتح الدال: «تقدير الله تعالى للكائنات، حسبما سبق علمه، واقتضته حكمته». [٢]

تؤمن بالقدر خيره وشره: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشدة، من مرض وصحة،

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدر، لم يكن صدفة، أو يكن أمراً مستأنفًا، أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قدر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء الله وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، هذا هو الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات، من لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنا بالقدر:

المرتبة الأولى: العلم بأن الله علم كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلى ما لا نهاية، فالله قد علمه في الأزل قبل أن يكون وقبل أن يقع، علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلاً وأبدا، هذه مرتبة العلم، فمن جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب، ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] يعني اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(١)، فمن جحد الكتابة، وقال: الله يعلم كل شيء، لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتد عن دين الإسلام.

(١) أخرجه أبو داوود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة، وهي أن الله سبحانه يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه الله وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة الله، أو بدون إرادة الله، فمن قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها الله أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد، الله خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأوجده، فكل شيء هو مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو من خلق الله، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لا بد من الإيمان بها، وإلا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد، كل هذه لا بد من الإيمان بها، فمن جحد شيئا منها فإنه كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.[1]

تحقيق هذا الركن أن يعلم ويعتقد؛ يؤمن بأن كل شيء يحدث في هذا الملكوت بخلق الله، قد سبق به قدر، وأن الله جَلَّ وَعَلَا عالم بهذه الأحوال وتفصيلاتها بخلقه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك، وإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هذا الركن، والإيمان بالقدر؛ الإيمان الواجب يكون على مرتبتين:

المرتبة الأولى الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر: وهذا يشمل درجتين:

الأولى العلم السابق: فإن الله جَلَّ وَعَلَا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله السابق بكل شيء بالكليات وبالجزئيات، بجلائل الأمور وبتفصيلات الأمور، هذا العلم السابق كما قال جَلَّوَعَلَا في آخر سورة الحج ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، فبيَّن الله جَلَّوَعَلَا أن علمه بالأشياء سابق، وأنه يعلم كل شيء؛ الكليات والجزئيات، الأمور الجلية وتفاصيل الأمور، هذا العلم الأول، وهذا العلم لم يزل الله جَلَّوَعَلَا عالماً به، علمه جَلَّوَعَلَا بهذه الأشياء بجميع تفاصيل خلقه، عِلمُه بها أَوَّل يعني ليس له بداية.

الدرجة الثانية الكتابة: أن يؤمن العبد أن الله جَلَّوَعَلَا كتب ما الخلق عاملون، كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ، كما قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ فأثبت أنه في كتاب وقال جَلَّوَعَلَا ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر:٥٣]، يعني قد سُطِّر وكُتِب في اللوح المحفوظ، وقال جَلَّوَعَلَا ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠]، بيّن أن كل شيء إنما هو في كتاب، وهذا قد جاء أيضاً في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «قدر الله مقادير الخلائق -يعني بالكتابة- قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة».

هاتـان الدرجتـان في المرتبة الأولى؛ المرتبة الأولى تسـبق وقوع المقدر، هذه المرتبة الأولى تحوي درجتين.

المرتبة الثانية أيضًا تحوي درجتين وهي تواكب أو تقارن وقوع المقدر:

أولـى الدرجتيـن الإيمان بأن مشـيئة الله جَلَّوَعَلَا نافذة: وأن ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لا يكون، فليس ثم شـيء يحدث ويحصل في ملكوت الله جَلَّوَعَلَا إلا وقـد شـاءه الله جَلَّوَعَلَا، وقد أراده الله جَلَّوَعَلَا كونـًا، سـواء في ذلك طاعات المطيعيـن أو عصيـان العاصيـن، سـواء في ذلـك إيمـان المؤمنيـن أو كفـر الكافريـن، فكل شـيء يحصل في ملكوت الله إنما هو بإذنه ومشـيئته وإرادته الكونية؛ لأن المشـيئة ما تنقسـم، التي تنقسـم الإرادة، بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية، ومشـيئة الله إذا أطلقت يُعنى بها الإرادة الكونية، الإرادة تنقسـم إلى إرادة كونية وإرادة شـرعية، فأما المشـيئة فهي مشيئة الله جَلَّوَعَلَا في كونه، هذه الدرجـة الأولى هذه تواكب وقـوع المقدر، فلا يمكن أن يعمل العبد شـيء يكون مقدراً من الله جَلَّوَعَلَا إلا وهذا الشيء قد شاءه الله جَلَّوَعَلَا.

الدرجـة الثانيـة أن يؤمـن بـأن الله جَلَّوَعَلَا خالـق كل شـيء: كل شـيء مخلوق الله جَلَّوَعَلَا خالقه؛ أعمال العباد، أحوال العباد، السماوات، الأرض، من في السـماوات ومن في الأرض، ما في السماوات وما في الأرض، الجميع الـذي خلقـه هو الله جَلَّوَعَلَا، فـإذا أراد العبد أن يعمل شـيئا فإنـه لا يكون إلا إذا شـاءه الله جَلَّوَعَلَا، وخلـق الله جَلَّوَعَلَا ذلـك الشـيء، طاعـات المطيعيـن خلقها الله جَلَّوَعَلَا، عصيان العاصين خلقه الله جَلَّوَعَلَا، إذا توجه العبد بإرادته إلى أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونا وقع بعد خلقه له، إذا لم يشأه ولو أراده العبد لم يقع، كما قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]،

قال ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠]، مرتبة الخلق عامة.

إذاً هذا الإيمان الواجب يصح أن نقول أنه إيمان تفصيلي، مرتبة قبل وقوع المقدر، العلم الأزلي؛ العلم الأول، والكتابة التي هي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم ما يواكب وقوع المقدر وهو أنّ العبد عنده إرادة وعنده قدرة؛ إذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل منك الفعل، توجهت إلى الفعل حصل منك الفعل لكن لا يحصل منك إلا بعد أن يشاء الله جَلَّ وَعَلَا ذلك منك، وإلا بعد أن يخلق الله جَلَّ وَعَلَا ذلك الفعل منك، الفعل فعل العبد حقيقة، لكن الخالق لهذا الفعل هو الله جَلَّ وَعَلَا، لما؟ لأن من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة، والإرادة والقدرة قد خلقها الله جَلَّ وَعَلَا، الله جَلَّ وَعَلَا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعل نفسه إذا توجه إليه العبد.

فحصل بهذا الإيمان التفصيلي الواجب بالقدر.(١)

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها، لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له.

أما الشرع: فقد قال الله تعالى في المشيئة: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝٣٩﴾ [النبأ: ٣٩] وقال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقال في القدرة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة بهما يفعل وبهما يترك،

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

ويفـرق بين ما يقع: بإرادته كالمشـيء وما يقع بغيـر إرادته كالارتعاش، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى، وقدرته لقول الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

والإيمـان بالقـدر علـى ما وصفنـا لا يمنح العبـد حجة على مـا ترك من الواجبات أو فعل من المعاصي، وعلى هذا فاحتجاجه به باطل من وجوه:

الأول: قولـه تعالـى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه.

الثاني: قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥] ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتف بإرسال الرسل، لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى.

الثالـث: مـا رواه البخـاري ومسـلم واللفـظ للبخـاري عـن علـي بـن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال لا أعملوا فكل ميسـر، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾»[1] الآية. وفي لفظ لمسلم: «فكل ميسر لما خلق له»[2] فأرم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالعمل ونهى عن الاتكال على القدر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير.

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي....

الرابـع: أن الله تعالـى أمر العبد ونهـاه، ولـم يكلفه إلا ما يسـتطيع، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقـرة: ٢٨٦] ولـو كان العبـد مجـبراً على الفعل لـكان مكلفاً بما لا يسـتطيع الخلاص منه، وهذا باطل ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو نسـيان، أو إكراه فلا إثم أو إكراه، فلا إثم عليه لأنه معذور.

الخامس: ان قدر الله تعالى سـر مكتوم لا يعلم به إلا بعد وقوع المقدور، وإرادة العبـد لما يفعله سـابقة على فعله فتكون إرادتـه الفعل غير مبنية على علم منه بقدر الله، وحينئذ تنفى حجته إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

السـادس: أننا نرى الإنسـان يحرص على ما يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقـدر، فلمـاذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى مـا يضره ثم يحتج بالقدر؟ أفليس شأن الأمرين واحداً؟

وإليـك مثـالاً يوضـح ذلك: لـو كان بين يدي الإنسـان طريقـان أحدهما ينتهـي به إلى بلد كلها نظام، وأمن مسـتتب، وعيش رغيد، واحترام للنفوس والأعراض والأموال، فأي الطريقين يسلك؟ إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهـي به إلى بلـد النظام والأمن، ولا يمكن لأي عاقل أبداً أن يسـلك طريق بلـد الفوضى، والخوف، ويحتج بالقدر، فلماذا يسـلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتج بالقدر؟

مثال آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء فيشـربه ونفسـه لا تشتهيه، وينهي عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسـه تشتهيه، كل ذلك طلباً للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله، أو يفعل ما نهى الله ورسوله ثم يحتج بالقدر؟

السابع: أن المحتج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي، لو أعتدى عليه شخص فأخذ ماله أو أنتهك حرمته ثم أحتج بالقدر، وقال: لا تلمني فإن اعتدائي كان بقدر الله، لم يقبل حجته. فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه، ويحتج به لنفسه في اعتدائه على حق الله تعالى؟

ويذكر أن -أمير المؤمنين- عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفع إليه سارق استحق القطع، فأمر بقطع يده فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنما سرقت بقدر الله. فقال: ونحن إنما نقطع بقدر الله.

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى، عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: ألا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده، لأن حصوله نعمة من الله تعالى، بما قدره من أسباب الخير، والنجاح، وأعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطمأنينة، والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى فلا يقلق بفوات محبوب، أو حصول مكروه، لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو كائن لا محالة وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣] ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن

اصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم[١].

وقد ضل في القدر طائفتان:

إحداهما: الجبرية الذين قالوا إن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الثانية: القدرية الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه آثر.

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) بالشرع والواقع:

أما الشرع: فإن الله تعال أثبت للعبد إرادة ومشيئة، وأضاف العمل إليه قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] الآية. وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته كالأكل، والشرب، والبيع والشراء، وبين ما يقع عليه بغير إرادته كالارتعاش من الحمى، والسقوط من السطح، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر، وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه.

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والواقع:

أما الشرع: فإن الله تعالى خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئة، وقد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق باب: المؤمن أمره كله خير.

بيـن الله تعالـى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشـيئته فقـال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وأمـا العقل: فإن الكون كله مملوك لله تعالى، والإنسـان من هذا الكون فهـو مملوك لله تعالى، ولا يمكـن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.(١)

وبهذا البيان تتضح لك أركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.(٢)



وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

لما ذكر الشـيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن ومن السـنة؛ لأن أي شيء من أمور الدين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلى دليل، وإن لم يكن له دليل لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الستة ذكر دليلها من القرآن أولاً ثم من السنة.(١)

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾

يعني الذي يُمدح أصحابُه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ النبيين يعني الرسل، وهنا ذكر الخمسة هذه، آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين فهذه الآية دليل على خمسة من أركان الإيمان، وكثيراً ما تأتي هذه الخمسة مقترنة كقوله جَلَّوَعَلَا في آخر سورة البقرة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ذكر الأربعة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وكقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦]، وكقوله جَلَّوَعَلَا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، ونحو ذلك من الآيات، وقد جاءت أيضًا في حديث جبريل المشهور.

بقي القدر، القدر أدلته في القرآن أدلة عامة بذكر القدر، وأدلة مفصلة لكل مرتبة من مراتب القدر، فمن الأدلة العامة ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ وجه الاستدلال: مجيء ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني ليس ثم مخلوق من مخلوقات الله إلا وقد خلق بقدر سابق من الله جَلَّوَعَلَا، لا يخرج شيء عن هذه الكلية ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

و(كُلَّ) مـن ألفـاظ الظهـور في العموم، ومنه قولـه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:٢]، وكل دليل فيه ذكر مرتبة من المراتب التي ذكرت يصلح دليلًا على القدر لأنه دليل لبعضه.

هذا ما ذكره الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في بيان المرتبـة الثانية من مراتب الدين ألا وهي مرتبة الإيمان.[١]



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحسَانُ

رُكنٌ وَاحِدٌ، وهو: «أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحسَانُ

الإحسان في اللغة: إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال، ضد القبح.

وهو ينقسم إلى أقسام:

أولاً: إحسان بين العبد وبين ربه، وهذا هو المقصود هنا.

ثانيـًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثـًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئـًا أو عمل عملاً فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.

الأول: إحسان بين العبد وبين ربه، بينه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة كما يأتي، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه الله به، بأن يأتي به صحيحـًا خالصا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، عمل الإحسان بين العبد وربه ما توفر فيه الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

إحسان العابد أثناء عبادته؛ وهو مقام المراقبة؛ مراقبة العابد لله جَلَّ وَعَلَا؛ لربه جَلَّ وَعَلَا أثناء عباداته، بل في أحواله كلها، لأنه إذا راقب ربه، بأنه قد علم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أن الله جَلَّ وَعَلَا مطلع عليه، كأنه يرى الله جَلَّ وَعَلَا، فإن هذا يدعوه إلى إحسان العمل، وأن يجعل عمله أحسن ما يكون، وأن يجعل حاله في إقبال قلبه، وإنابته، وخضوعه، وخشوعه، ومراقبته لأحوال قلبه، وتصرفات نفسه، يجعل ذلك أكمل ما يكون لحسنه وبهائه، لأنه يعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا مطلع عليه.

هذا المقام مقام المراقبة ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أن تكون عابداً لله على النحو الذي أمر اللهُ جَلَّ وَعَلَا به وأمر به رسولُه، وحالتك أثناء تلك العبادة التي تكون فيها مخلصًا موافقًا للسنة، حالتك أن تكون كأنك ترى الله جَلَّ وَعَلَا، فإن لم تكن تراه، فلتعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا مطلع عليك، عالم بحالك، يرى ويبصر ما تعمل، يعلم ظاهر عملك وخفيه، يعلم خلجات صدرك، ويعلم تحركات أركانك وجوارحك؛ وبضعفه تضعف المراقبة لله جَلَّ وَعَلَا، إذاً فمقام الإحسان مرتبة الإحسان تعظم بعظم مراقبة الله جَلَّ وَعَلَا، وتضعف بضعف مراقبة الله جَلَّ وَعَلَا، فالعبد المؤمن أثناء عبادته إذا كان يعبد الله جَلَّ وَعَلَا مخلصًا على وَفق السنة، وحاله كأنه يرى الله عالم بأنه مطلع عليه يراه، هذه تجعله يحسن عمله، بل يجعل عمله وحاله أثناء العمل أحسن ما يكون.(١)

وقد بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الإحسان على مرتبتين، واحدة أعلى من الأخرى.

الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان بالله كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردد أو أي شك، بل كأن الله أمامك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تراه عيانًا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد الله كأنك تراه من

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

كمال اليقين وكمال الإخلاص، كأنك ترى الله عيانًا، والله جَلَّوَعَلَا لا يرى في الدنيا، وإنما يرى في الآخرة، ولكن تراه بقلبك حتى كأنك تراه بعينيك، ولذلك يجازى أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم الله بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦]، الزيادة هي النظر لوجه الله، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا، فأعطاهم الله الحسنى، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله عَزَّوَجَلَّ، تعبد الله كأنك تراه على المشاهدة، والمحبة والشوق إلى لقائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلى طاعته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة فإنك تعبده على طريقة المراقبة، بأن تعلم أن الله يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة، ولكنها أقل من الأولى، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن الله يراك، ولله المثل الأعلى لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان على مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد الله كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترى الله عَزَّوَجَلَّ عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

هذه مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

فالدين دوائر:

الدائرة الأولى: الإسلام، وهي واسعة حتى إنه يدخل فيها المنافق، ويقال له مسلم ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام، ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولى وأخص، دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبداً، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم على قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق، أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية، دائرة الإحسان، وهي كما بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.[١]

مفهوم شامل للإحسان

وهو ينقسم إلى أقسام:

أولاً: إحسان بين العبد وبين ربه

ثانياً: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثاً: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئاً أو عمل عملاً فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.[٢]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله: فأن تعبد الله كأنك تراه، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه العبادة أي عبادة الإنسان ربه كأنه يراه عبادة طلب وشوق، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًا عليها، لأنه يطلب هذا الذي يحبه، فهو يعبده كأنه يراه، فيقصده وينيب إليه ويتقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذه عبادة الهرب والخوف، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان، إذا لم تكن تعبد الله عَزَّ وَجَلَّ كأنك تراه وتطلبه، وتحث النفس للوصول إليه فاعبده كأنه هو الذي يراك، فتعبده عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أرباب السلوك أدنى من الدرجة الأولى. وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما ركنان

فالعبادة مبنية على هذين الأمرين: غاية الحب، وغاية الذل، ففي الحب الطلب، وفي الذل الخوف والهرب، فهذا هو الإحسان في عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ. وإذا كان الإنسان يعبد الله على هذا الوجه، فإنه سوف يكون مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ لا يريد بعبادته رياء ولا سمعة، ولا مدحًا عند الناس، وسواء اطلع الناس عليه أم لم يطلعوا، الكل عنده سواء، وهو محسن العبادة على كل حال، بل إن من تمام الإخلاص أن يحرص الإنسان على ألا يراه الناس في عبادته، وأن تكون عبادته مع ربه سراً، إلا إذا كان في إعلان ذلك مصلحة للمسلمين والإسلام، مثل أن يكون رجلاً متبوعًا يقتدي به، وأحب أن يبين عبادته للناس ليأخذوا من ذلك نبراسًا يسيرون عليه أو كان هو يحب أن يظهر العبادة ليقتدي بها زملاؤه وقرناؤه وأصحابه ففي هذا خير، وهذه المصلحة التي يلتفت إليها قد تكون أفضل وأعلى من مصلحة الإخفاء، لهذا يثني الله عَزَّ وَجَلَّ على الذين

ينفقـون أموالهم سـراً وعلانية، فإذا كان السـر أصلح وأنفع للقلب وأخشـع وأشـد إنابـة إلـى الله أسـروا، وإذا كان في الإعلان مصلحة للإسـلام بظهور شرائعه، وللمسلمين يقتدون بهذا الفاعل وهذا العامل أعلنوه.

والمؤمـن ينظر ما هـو الأصلح، كلمـا كان أصلح وأنفـع في العبادة فهو أكمل وأفضل.(١)

وأما الإحسـان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف، تكرم الضيف، تكرم الجـار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه أيضـًا فلا يصدر منك أذى لـه ولا لغيره، من الناس مـن لا يصدر منه إلا أذى، ومن الناس من يصدر منه أذى وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير، فهذا في أعلى الطبقات.

بذل الخير للناس وكف الأذى عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، حتى البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذى عنها، وترفق بها، هذا من الإحسـان إلى البهائم، حتى المستحق للقتل لا تعذبه، بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحد، فإنه ينفذ فيه برفق، لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح»(٢) في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥) مِن حديث شداد بِن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإذ ذبحتم: أي، ذبحتم الحيوانات المأكولة، فأحسنوا الذبحة، «وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»، فتحسن حتى للبهائم، وقد «غفر الله للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رآته يلهث من العطش، فسقته فشكر الله لها، فغفر الله لها ذنبها»[(١)]، وهو ذنب عظيم، وهو البغاء، أي: الزنى، فغفر الله لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلى هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب؟ إذا أحسنت إلى جائع من المسلمين، أو حتى من بني آدم ولو كان كافراً، إذا أحسنت إليه فإن الله جَلَّ وَعَلَا يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥].[(٢)]

الإحسان ضد الإساءة وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذى فيبذل المعروف لعباد الله في ماله، وجاهه، وعلمه، وبدنه.

فأما المال فإن ينفق ويتصدق ويزكي وأفضل أنواع الإحسان بالمال الزكاة، لأن الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولا يتم إسلام المرء إلا بها، وهي أحب النفقات إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويلي ذلك، ما يجب على الإنسان من نفقة لزوجته، وأمه، وأبيه، وذريته، وإخوانه، وبني إخوته، وأخواته، وأعمامه، وعماته، وخالاته إلى آخر هذا، ثم الصدقة على المساكين وغيرهم، ممن هم أهل للصدقة كطلاب العلم مثلاً.

وأما بذل المعروف في الجاه فهو أن الناس مراتب، منهم من له جاه عند ذوي السلطان فيبذل الإنسان جاهه، يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذي السلطان يشفع له عنده، إما يدفع ضرر عنه، أو بجلب خير له.

---

(١) انظر ما أخرجه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وأما بعلمه فإن يبذل علمه لعباد الله، تعليماً في الحلقات والمجالس العامة والخاصة، حتى لو كنت في مجلس قهوة، فإن من الخير والإحسان أن تعلم الناس، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلم الناس، ولكن أستعمل الحكمة في هذا الباب، فلا تثقل على الناس حيث كلما جلست في مجلساً جعلت تعظهم وتتحدث إليهم، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتخولهم بالموعظة، ولا يكثر، لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملت كلت وضعفت، وربما تركه الخير لكثرة من يقوم ويتكلم.

وأما الإحسان إلى الناس بالبدن فقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع عليها متاعه صدقة»[١]. فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك فكل ذلك من الإحسان، هذا بالنسبة للإحسان إلى عباد الله.[٢]

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلاناً يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[٣].[٤]



(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: فضل من حمل متاع صاحبه. ومسلم، كتاب الزكاة، باب: بيان أن أسم الصدق يقع في كل نوع من المعروف

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) أخرجه البهقي في «شعب الإيمان» ٤/ ٣٣٤ (٥٣١٣) وَ (٥٣١٤) مِن حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٤) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]. **وقولُهُ تَعَالَى:** ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠].

وقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١]

هذا دليل المرتبة الأولى من الإحسان: سورة النحل الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾، دلت الآية أن الله مع المحسنين وهم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن الله معهم معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.[1]

وجه الاستدلال أن الله جَلَّوَعَلَا ذكر ها هنا معيته للذين اتقوا ولمن هم محسنون قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ وهذه المعية تقتضي في هذا الموضع شيئين:

الأول: أنه جَلَّوَعَلَا مطلع عليهم، عالم بهم، محيط بأحوالهم، لا يفوته شيء من كلامهم، ولا من أحوالهم، ولا من تقلباتهم.

والثاني: أنه جَلَّوَعَلَا معهم ناصر لهم بتأييده، ونصره وتوفيقه، المعية ها هنا معية خاصة بالمؤمنين، ومعلوم أن المعية الخاصة للمؤمنين تُفسر بما تقتضيه، وهو أنها معية نصر وتأييد وتوفيق وإلهام ونحو ذلك، وهذا متضمن للمعية العامة، وهي معية الإحاطة والعلم ونحو ذلك.

إذاً وجه الاستدلال:

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أولاً: أنه ذكر المعية.

ثانيـًا: أنـه ذكـر معيتـه للمحسـنين فقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ والمحسنون ها هنا جمع المحسن، والمحسن اسم لفاعل الإحسان، ففاعل الإحسان اسمه محسن، والإحسان هو الذي نتكلم عليه؛ المرتبة الثالثة.

فإذاً وجه الاستدلال من جهتين: الأولى ذكر المعية، الثانية ذكر المحسنين.[١]

وقولـه تعالـى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قوله: «فإنه يراك».

وقولـه تعالـى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.[٢]

وجه الاستدلال من هذه الآية أنه ذكر رؤية الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه حال عبادة نبيه، وأنـه يراه في جميـع أحواله حين يقوم وتقلّبَه في السـاجدين من صحابته أثناء صلاته بهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ قال واصفـًا نفسـه جَلَّ وَعَلَا ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ وهـذا دليل الشـق الثاني من ركن الإحسـان وهو قوله (فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، دليل الرؤية ها هنا قوله ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ يعني في المصلين.

قال أيضـًا وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس:٦١] وجه الاستدلال قوله تعالى هنا ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ وشهود الله جَلَّ وَعَلَا بما يعمله العباد من معانيه رؤيته جَلَّ وَعَلَا لهم وإبصاره جَلَّ وَعَلَا بهم، رؤيته جَلَّ وَعَلَا من معانيه كونه جَلَّ وَعَلَا

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

شـهيداً، قال جَلَّوَعَلَا هنا ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ هذا الاسـتدلال ظاهر؛ لأن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك.[١]

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ هـذا خطـاب للرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في أي شـأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: مـن الله لأن القـرآن مـن عنـد الله عَزَّوَجَلَّ، أو الضمير راجع إلى الشـأن، أي: ومن الشـأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.[٢] وما تتلوا من القرآن الذي أوحاه الله إليك، وهذا أخص من قوله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وخصها بالذكر؛ لأن تلاوته للقرآن من أعظم شؤونه.[٣]

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا لجميع الأمة، للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ نراكـم ونبصركـم ونشـاهدكم، هـذا دليـل لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنه يراك».

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلاً على المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه جَلَّوَعَلَا شهيد على كل عامل بعمله، يراه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعلمـه ويبصـره، ولا يغيـب عنـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران:٥].[٤]

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

(٤) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.



وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبرِيلَ المَشهُورُ: عَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَينَمَا نَحنُ جُلُوسٌ عِندَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَى رُكبَتَيهِ وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخبِرنِي عَنِ الإِسلامِ فَقَالَ: «أَن تَشهَدَ ألا إله إلا اللهُ وَأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِن استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقتَ. فَعَجِبنَا لَهُ يَسأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقتَ. قَالَ: أَخبِرنِي عَنِ الإِحسَانِ. قَالَ: «أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا المَسؤُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخبِرنِي عَن أَمَارَاتِهَا». قَالَ: «أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟». قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم أَمرَ دِينِكُم».

قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدم وانتهى، ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر حديث جبريل وأنه أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمى بحديث جبريل أو حديث

عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح، وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواية عمر بن الخطاب في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ الحديث في طرق أخرى، ولكن المعنى واحد.

قال: (**بينما نحن جلوس عند النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كان من عادتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنهم يجتمعون عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلى أجوبته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يرده من الأسئلة، فبينما هم كذلك على عادتهم (**إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر**)، أي: أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

(**لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أي: من الحاضرين أحد**)، فهذا من العجائب أنه ليس قادماً من سفر حتى يقال: إنه من غير أهل المدينة، وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتى يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادماً من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادماً من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه جلوس المتعلم من معلمه، **وأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: أنه قريب منه جداً، **ووضع يديه على فخذيه**، أي: فخذي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال يا محمد: خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، ولعله فعل ذلك عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أجل أن يظن الصحابة أنه من البادية؛ لأن من عادة أهل

البادية أنهم يخاطبون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه؛ لأن أهل البادية على طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتى لا يعرفوه.

قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، أي: اشرح لي معنى الإسلام.

قال: «الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»: ذكر له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أركان الإسلام التي لا بد منها، والتي إن تحققت ووجدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرى فهي مكملات، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصر على بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرا كان أسهل على المتعلم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طول الجواب تشعب على الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل على أن المسئول ينبغي أن يتوخى الاختصار مهما استطاع، ويقتصر على الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك، هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: صدقت: هذه عجيبة ثانية.

قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه: فدل على أنه عالم، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالم بدليل أنه قال: صدقت، فدل على أنه عالم، فلماذا يسأل؟

قال: أخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فذكر له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام، والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعاً فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما

يقوم به من التصديق والعلم، ولا بد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»، فإن ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنى خاص به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام، لا بد من الاثنين، فهما متلازمان، ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت، أي: يدخل بعضها في بعض لأنهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبين له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أركان كل من الإسلام والإيمان.

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله»، سبق أن المحسن هو من يعبد الله على المشاهدة واليقين كأنه يرى الله، أو يعبده على المراقبة، وهو يعلم أن الله يراه فيحسن العمل؛ لأن الله مطلع عليه، فالمحسن يعبد الله إما على المشاهدة في القلب، وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن الله يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: صدقت، فأخبرني عن الساعة، أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شك في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولا بد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة الله عَزَّوَجَلَّ

لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، هو الذي يعلمها سبحانه، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومنها وقت قيام الساعة.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»، أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، الله جَلَّ وَعَلَا لم يطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحداً، بل استأثر بعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها».

قال: أخبرني عن أماراتها: الأمارات جمع أمارة، وهي العلامة، أما الإمارة بالكسر فهي الولاية.

أخبرني عن أماراتها، أي: العلامات التي تدل على قرب قيامها، نعم الساعة لها أمارات، وقد بينها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة تكون عند قيام الساعة، تكون قريباً من قيامها، أما العلامات الأخرى فإنها متقدمة، العلماء يقولون: علامات الساعة على ثلاثة أنواع: هي علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة والعلامات المتوسطة كلها حصلت أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار: ظهور الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: أخبرني عن أماراتها: ولما كانت أماراتها معلومة أجابه

الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «أن تلد الأمـة ربتها» هذا من علامات السـاعة، الأمة هي المملوكة، وربتها سيدتها.

قال الشـراح: معناه والله أعلم أنه في آخر الزمان يكثر التسـري، يعني يكثر وطء الإماء أي: المملوكات فيلدن بنات، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق، فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

«وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

وأن ترى الحفاة: هذه علامة ثانية.

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشـاء: جمـع راعٍ، الذين يرعون الأغنام، هـؤلاء كانوا في الأصل في الـبراري في بيـوت ينتقلـون من محل إلى آخـر، وفي آخر الزمان يسـتوطنون في المـدن، ويبنون القصور والعمارات الشـاهقة، هذا من علامات السـاعة، إذا تحولـت البادية إلى حاضرة، وصـاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها وينمقونهـا، وهم ليـس من عادتهم، يتحولون إلى أغنيـاء، إلى أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذه من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى، كما تعلمون الآن كيـف حـال النـاس، لقد تغيـرت الأحوال وتحـول الفقراء إلـى أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ثم خرج ولبثنا مليـًا: يعني وقتا قصيرا.

فقـال النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عمر أتـدري من السـائل**»؟ أو «**أتدرون من السـائل**»؟ وفي رواية «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «علي بالرجل، فطلبوه فلم يقدروا عليه»».

قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**»: هذا الذي دخل وسـأل هذه الأسـئلة هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم على طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث على مسائل عظيمة:

الأولى: أن الدين ينقسـم إلى ثلاثة مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، كل مرتبـة أعلـى من التـي قبلهـا، وأن كل مرتبة لها أركان: أركان الإسـلام، وأركان الإيمان والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعى للانتباه وتلقي العلم، كونه يسأل ويتهيأ ذهنه يتطلب الجواب، ثم يلقي عليه الجواب وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

الثالثـة: في الحديـث دليـل على أن من سـأل عـن علم وهـو لا يدري أن يقول: الله ورسـوله أعلم، يكل العلم إلى عالمه، فلا يتكلم بالجواب وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سئل عن الساعة قـال: ما المسـئول عنها بأعلم من السـائل، ولما قال للصحابـة: أتدرون من السائل؟ وهم لا يعرفونه قالوا: الله ورسوله أعلم.

فدل ذلك على أن مسـائل الشرع ومسـائل الدين لا يجوز التخرص فيها؛

لأن هـذا من التكلف، ولكن من كان عنده علـم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: الله أعلم، ومن قال: لا أدري فقد أجاب.

قد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أربعين مسألة فأجاب عن ست منها، وقال في الباقية: لا أدري، فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا، وسافرت وأتعبت راحلتي، وتقول: لا أدري، قال: اركب راحلتك، واذهب إلى البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري، هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا سئل في بعض الأسئلة ولم يكن عنده وحي من الله عَزَّوَجَلَّ، انتظر حتى ينزل الوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل كذا؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتى ينزل عليه الوحي من الله، وكذلك غيره من باب أولى ينتظر حتى يسأل غيره، أو غيره يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم ليتحصل على جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الذي يجيب يجيب عن شرع الله، يقول: الله أحل كذا أو حرم كذا أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جداً.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على آداب المتعلم، جبريل وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يسند ركبتيه إلى ركبتي

الرسول ﷺ، ويضع يديه على فخذيه، يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنى أن تلد الأمة ربتها أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتى تصبح البنت كأنها سيدة على والدتها، تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.[١]

ملخص ذلك:

ذكر الشيخ أن الأصل؛ الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة، عرّف الإسلام، وذكر أركانه، وذكر معنى الشهادتين، معنى شهادة ألا إله إلا الله، فسّر التوحيد وأدلة ذلك شهادة أن محمداً رسول الله، وبين معنى الشهادة بأن محمداً رسول الله، ثم بين أدلة أركان الإسلام الباقية، ثم ذكر المرتبة الثانية وهي الإيمان كما ذكرنا لكم هذا اليوم، ثم ذكر المرتبة الثالثة وهي الإحسان، ودلائل ذلك كله على نسق ووضوح يسهل معه الفهم ويسهل معه الإفهام.

ولهذا ينبغي لنا أن نحرص على هذه الرسالة؛ تعليما لها للعوام، وللنساء في البيوت، وللأولاد ونحو ذلك، على حسب مستوى من يخاطب في ذلك، وقد كان علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ **يعتنون بثلاثة الأصول هذه تعليما وتعلما، بل كانوا يلزمون عددا من الناس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، أن يحفظوا هذه الأصول ويتعلموها، وذلك هو الغاية في رغبة الخير، ومحبة الخير**

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

لعباد الله المؤمنين، إذ أعظم ما تُسدي للمؤمنين من الخير، أن تُسدي لهم الخير الذي ينجيهم حين سؤال الملكين للعبد في قبره، لأنه إذا أجاب جوابا حسنا جوابا صحيحا عاش بعد ذلك سعيدا، وإن لم يكن جوابه مستقيما ولا صحيحا عاش بعد ذلك، والعياذ بالله على التوعد بالشقاء والعذاب.

أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يُنَوِّر بصائرنا، وأن يقينا الزلل والخطل، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شر أنفسنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.[١]



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الأَصلُ الثَّالِثُ

مَعرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِن قُرَيشٍ، وَقُرَيشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسمَاعِيلَ بنِ إِبرَاهِيمَ الخَلِيلِ عَلَيهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ.

قوله: الأصل الثالث: أي من الأصول الثلاثة؛ لأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في أول الرسالة أنه يجب على كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني: فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته وجب معرفته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه؟ فلا بد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأقسام عمره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا، تعرفها أيضًا قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدئ بالوحي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومتى ابتدئ بالوحي، وما هي الآية التي تدل على نبوته، والآية التي تدل رسالته، تأتي بالآيات التي تدل على نبوته، والآيات التي تدل على إرساله، فلا بد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛ لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلا بد من معرفة هذه الأشياء

عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته؛ لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.(١)

والمراد ها هنا بالمعرفة العلم به على نحو ما أوضحت لكم في الكلام على الأصل الأول، فمعرفة نبيكم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناه العلم به وبحاله؛ العلم بنسبه، وأنه من العرب، بل من أشرف العرب قبيلةً، وأنه كان في عمره له كذا وكذا، نبئ وأرسل، قام داعياً يدعو إلى التوحيد، وينذر عن الشرك، وما يتصل بذلك من المباحث.

فحقيقة هذا الأصل العلم ببعض سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا العلم متعلق لتكون الشهادة بأن محمداً رسول الله على علم ومعرفة، فإنه إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله، فإذا قيل له من محمد هذا؟ فلم يعرفه، كانت شهادته مدخولة، ولهذا فإن معرفة هذا الأصل يكون به الجواب بتوفيق الله على سؤال القبر الثالث؛ ألا وهو من نبيك؟ يشهد المسلم أن محمداً رسول الله، لكن هذه الشهادة يتبعها أن يكون عالماً وعارفاً بمحمد هذا من هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.(٢)

اسمه ونسبه ونشأته

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

هذا اسمه ونسبه، اسمه محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد قد ذكر الله ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]، فذكر الله اسمه محمداً في عدة آيات.

ومن أسمائه أحمد، قد ذكره الله في قوله في بشارة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فهو محمد وأحمد، ومعنى ذلك أنه كثير المحامد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكثير الصفات التي يحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة يعني الجهاد في سبيل الله، والحاشر، والعاقب عليه الصلاة السلام الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس بعده إلا قيام الساعة، فبعد رسالته تقوم الساعة، ويحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلى كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.(١)

تسميته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بمحمد:

قال طائفة من أهل العلم: لم يُسمّ قبله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في العرب أحد بهذا الاسم، وإنما كانت العرب تسمي أحمد، وتسمي حَمد، وكل ذلك مشتق من الحمد، يعني رغبة في أن يكون هذا الولد من ذوي الحمد، يعني ممن يحمده الناس على خصاله.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وقال آخرون: بل العرب تَسَمَّت بمحمد، لكن قليل، إمّا اثنان أو ثلاثة، وهذا الثاني صحيح، إن صح النقل عن أهل التاريخ بتسمية أولئك النفر بمحمد، ممن هم في عصره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو قبل ذلك بقليل.

محمد معناه كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد، فذو العرش محمود وهذا محمد؛ ذو العرش الله جَلَّ وَعَلَا صفاته وأفعاله وأسمائه كلها يُحمد عليها؛ يُثنى عليه بها، وتسمية المولود بمحمد تسمية جد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له بمحمد، على رجاء أن يكون من أهل خصال الخير، التي يكثر من أجلها حمد الناس له عليها، وهذا كان وصار ظاهراً، فإنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خصاله كلها، وصفاته كلها يُحمد عليها، لأن خصاله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خير، حتى ما كان منه قبل البعثة قبل النبوءة وقبل الرسالة. وقد كان كثير صفات الخير، فإذاً التسمية بمحمد تسمية من قبيل التفاؤل، كانت العرب تعرف ذلك، كانوا يسمون خالداً تفاؤلاً بأن يكون من أهل المكث الطويل في الدنيا؛ يعني من أهل الأعمار الطويلة، كانوا يسمون عاصياً تفاؤلا بأن يكون على أعدائهم من ذوي العصيان، كانوا يسمون صخراً ليكون شديدا كالصخر على أعدائهم... وهكذا، فكثير من العرب إذا سموا رأوا المعنى، وتسمية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لوحظ فيها ذلك، على رجاء أن يكون عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يكون كثير الصفات التي يحمد عليها، وكان ما أمّله جده في تسميته بمحمد، أمّل ما أمّله، فأعظم ذلك أنه كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولاً منزلاً من عند الله جَلَّ وَعَلَا.[(١)]

وأما نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

هو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل.[١] وقريش أفضل العرب وصفوتهم، فأفضل قبائل العرب قريش، وهذا كما جاء في الحديث «إن الله اصطفى قريشًا من كنانة»، وأفضل قريش بنو هاشم، وأفضل بني هاشم محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكما جاء في الحديث الصحيح قال بعد ذلك «فأنا خيار من خيار من خيار».[٢]

وقريش من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والعرب على قسمين في المشهور:[٣]

العرب العاربة: وهؤلاء انقرضوا إلاّ قحطان في اليمن.[٤] وهم القحطانية.

والعرب المستعربة: وهم العدنانية من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، سموا بالمستعربة لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة لما جاءت جُرهُم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل وهو صغير لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء، فإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربى ونشأ وأخذ العربية عن جُرهُم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جُرهُم، وجاءه ذرية تعلموا العربية ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية، أما العاربة فهم القحطانية أصلها من اليمن.[٥]

وهم الذين لم يكونوا أصلاً من العرب، لكنهم دخلوا وصاروا عربًا

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٥) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

بانفتاق لسانهم عن العربية، وبتكلمهم بالعربية، وأكثر قبائل العرب من هذا الجنس؛ العرب المستعربة وهم العرب، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «أول من فُتِق لسانُه بالعربية الفصحى إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» وذلك كما هو معلوم أن إسماعيل لما أتى به أبوه إبراهيم، وأتى بأمه وجعله في مكة، ناسب العرب فصار مُلهَماً من عند الله جَلَّ وَعَلَا بالانفتاق؛ بانفتاق اللسان عن العربية الفصحى، وهذا كما جاء في الحديث على أن كثير من أهل النسب ينازعون في هذا الأخير.(١)

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة على قسمين: عرب بائدة، وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح وعاد وثمود وشعيب، أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلى عرب عاربة، وعرب مستعربة وهي العرب الباقية.

والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وعبد المطلب ليس هذا اسمه، اسمه شَيبَة، ولكن سمي عبد المطلب لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس فمنهم عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومنهم بنو أمية، هؤلاء من بني عبد شمس.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جُبير بن مُطعِم وحكيم بن حزام.

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة ليهدم الكعبة ومعه فيه فيل عظيم، فلما وصل إلى مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلى الكعبة، فانحبس الفيل وأبى أن يقوم من الأرض، حبسه الله، فإذا وجهه إلى غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلى جهة مكة انحبس ولم يستطع المشي، وبينما هم كذلك رأوا فرقان طير من قبل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل، فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ، فأنزل الله في ذلك يُذَكِّرُ قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤﴾ من جهنم والعياذ بالله ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [سورة الفيل]، أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل، حمى الله بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرى

وسقطت منه شرفات في ليلة ولادة النبي ﷺ، هذه إرهاصات لبعثة النبي ﷺ، والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

ولد في مكان يقال له: شعب على مقربة من الكعبة، ولد في مكة، لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.(١)



وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنهَا أَربَعُونَ قَبلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشرُون فِي النبوة. نُبِّئَ بـ(اقرَأ)، وَأُرسِلَ بـ(المُدَّثِّر)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

عمره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

وله من العمر ثلاث وستون سنة، أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًا رسولاً.

فهو ولد في مكة ﷺ، واسترضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد الله أبوه وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب، ثم مات عبد المطلب وانتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب.

وعاش ﷺ أربعين سنة قبل النبوة معروفًا بالأمانة والصدق والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية، بل كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخرج إلى غار حراء ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد الله على ملة إبراهيم على التوحيد.(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

مضى عليه أربعون وهو لا يعلم شيئًا مما جاءه ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف:٣]، ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس:١٦].(١)

نزول الوحي عليه

نبئ بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾. وأرسل بـ «المدثر»...، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: ١-٧]. [٥٩]

ثم لما بلغ الأربعين من عمره عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نزل عليه الوحي، بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ أي: لا أحسن القراءة، فضمه ضمة شديدة، ثم أرسله وقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق ١-٢].

هذه هي نبوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، نبأه الله بإقرأ: أي جعله نبيًا بذلك، ثم ذهب إلى بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمراً هائلًا، فوجد زوجه خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا فغطته وهدأته، وقالت له: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلى عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب السابقة تعبداً لله عَزَّ وَجَلَّ، فلما أخبره بما رأى قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى، يعني: جبريل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.(٢)

---

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ هذا هو الإرسال وهذا معنى قول الشيخ: **نبأه باقرأ وأرسله بالمدثر**.(١)

أنزل الله جَلَّ وَعَلَا عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر:١-٢]، فصار الواجب هنا الإنذار، والإنذار يكون كما سيأتي، يكون لقوم وقعوا في شيء ينذرون عنه، فصار هذا علامة على الرسالة، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ أنذر من؟ جاء مبيناً في الآية الأخرى حيث قال ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء:٢١٤]، هذه كانت بداية الإرسال وبداية الإنذار عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(**وأُرسِل بـ«المدثر»**)؛ أُرسل يعني صار رسولاً بنزول أول سورة المدثر عليه.(٢)

والمُدَّثِّر: معناه الملتحف لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أصابه شيء من الفزع، فقال: دثروني دثروني أي: غطوني فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ أي: عظمه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ أي: طهر أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمى الثياب، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦]، سمى التقوى لباساً.

وَالرُّجزَ: الرجز معناه الأصنام.

فَاهجُر: أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه الله على رأس الأربعين.(٣)

قال بعض أهل العلم: أنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مكث ثلاث سنين نبياً، ثم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

عشرون سنة نبيًا رسولاً.[(١)]

الفرق بين النبي والرسول

الفرق بين النبي والرسـول، وأن النبي هو من أوحي إليه بشـرع ولم يؤمر بتبليغـه، أو أمر بتبليغه لقـوم موافقين، معلوم أنه إذا قلنا لـم يؤمر بتبليغه، أن هذا على سـبيل الوجوب، لكن قد يبلغ ولا يكون التبليغ واجبا عليه، فالنبي هو من أوحي إليه بشرع، يعني بدين، وأمر بتبليغه أو لم يؤمر بتبليغه. إذا قلنا لم يؤمر بتبليغه يعني وجوبا، وقد يبلغ ذلك اسـتحبابا، فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبـل أن يرسـل بالمدثر بلغ ما أوحى الله جَلَّ وَعَلَا إليـه، بلغه خاصته كأبي بكر، وكخديجة، ونحو ذلك. وهذا التبليغ على التعريف ليس على سبيل الوجوب، بـل هذا من جهة الاسـتحباب، لأن هذه فـترة النبوة، فـإذا كان تعريف النبي هو من أوحي إليه بشـرع ولم يؤمر بتبليغه، يعنـي وجوبا، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين فإنه يكون تبليغه فيما لو بلغ يكون على وجه الاستحباب، ليس على وجـه المطالبة مـن الله جَلَّ وَعَلَا له بذلك، وقـد يطالَب؛ يؤمر بتبليغـه، فإذا أمر بتبليغه لقوم يخالفونه، لقوم مشـركين، فإنه يكون ذلك الأمر إرسـالاً، ولهذا قـال (نُبِّئَ بـ«اقرأ») قال جَلَّ وَعَلَا بسـم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] كما هو معروف في حديث عائشة المشهور أنها قالت وهذا في أول الصحيح: «أول ما بُعث به رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصادقـة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلـق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يتحنث؛ أي يتعبد الليالي ذوات العدد».

وسـاقت خبر إتيانـه بالوحي، ورجوعه إلى خديجـة، وما حصل في ذلك.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فنبئ باقرأ جاءه الوحي، «فقال ما أنا بقارئ»، قال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ ظنّ» عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جبريل يريد أن يقرأ شيئًا مكتوبًا، فقال: «ما أنا بقارئ»، يعني لست من أهل القراءة، خلافًا لما قد يظن، أو ما حمل عليه بعضهم أن قوله «ما أنا بقارئ»، لست بقارئ يعني لن أقرأ، ولم يرفض هذا الطلب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن قال «ما أنا بقارئ»، يعني لست بقارئ، لست من أهل القراءة، لأنه لا يقرأ ولا يكتب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال له مرة أخرى: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ»، ثم جاءه في الأخيرة ككل مرة غطّه، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق:١-٤]، فنزل بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غار حراء الذي كان يتحنث فيه يرجف بها فؤادُه، حتى أتى خديجة، فقصّ عليها الخبر، فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الدهر، وتصل الرحم. أو كما قالت، ثم قالت لورقة بن نوفل ما قاله لها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقص عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخبر، فقال: هذا والله هو الناموس الذي كان يأتي موسى. الناموس يعني ملك الوحي الذي كان يأتي موسى ليتني كنت فيها يعني في مكة حيًا، إذ يُخرِجُكَ قومُك، قال: أَوَ مُخرِجِيَّ هُم؟ قال: لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي. فما لبث ورقة أن توفي وفتر الوحي. أو كما جاء في الحديث، حديث عائشة المعروف المخرج في الصحيحين، وهو في أوائل صحيح البخاري.(١)

والفرق بين النبي والرسول أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وتوضيح ذلك أن

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب فهو نبئ باقرأ وأرسل بالمدثر على رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله، وكتاب من قبله، ويوفى إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى[(١)]

بلده مكة وهاجر إلى المدينة

هو من أهل مكة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فقد كان يقول في مكة «إنك لأحب بلاد الله إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك بلده مكة»، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحبها، وذكر لما هاجر إلى المدينة أو قبل ذلك وَهمٌ مني الآن قال: «إني لأعرف حجراً بمكة ما لقيته إلا سلَّم علي» كانت أحجار مكة تحبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا الحجر بخصوصه أنطقه الله للسلام عليه، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة ما مررت عليه إلا سلم علي» يعني بصريح السلام: السلام عليك يا رسول الله.

وهذه البلد هي التي نبئ فيها، وهي التي أرسل فيها، وهي التي بها عشيرته وقومه وأهله وقرابته.[(٢)]

وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذى وعلى من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس فصلى بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش على قتله وعلى الفتك به، فأذن الله له بالهجرة إلى

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المدينة فهاجر إلى المدينة، بعدما التقى بالأنصار في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلى المدينة وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة عاش صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا وعشرين سنة، ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد، وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه الله على رأس الثالثة والستين من عمره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فمدة عمره في الرسالة ثلاثة وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ عليه وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة ثلاث وعشرين سنة، هذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن بركات هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتى بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد لله رب العالمين.(١)

والحكمة أن الله بعثه في مكة لأن مكة هي أم القرى التي ترجع إليها القرى، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]، والأم هي المرجع الذي يرجع إليه، الأصل الذي يرجع إليه، هذا هو الأم، قوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة شرفها الله، هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلى مكة، فهي أم القرى بمعنى هي المرجع، ولذلك بعث الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة لأنها أم القرى، ومكث

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

فيها ثلاث عشرة سنة، ينهى أهل مكة عن الشرك ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم، ولهذا يجب أن تبقى مكة إلى قيام الساعة دارا للتوحيد ومنارا للدعوة إلى الله، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائماً وأبداً، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خيراً انتشر الخير، وإن كان على عكس ذلك انتشر الشر.

فيجب أن تطهر مكة دائماً وأبداً، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥]، فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتى يصدر منها الدين والدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الله بعث نبيه فيها، وبدأ دعوته فيها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرك، وَبالدعْوة إِلَى التَّوحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١-٧]. وَمَعنَى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾: يُنذِرُ عَنِ الشِّركِ، وَيَدعُو إِلَى التَّوحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾: أَي: عَظِّمهُ بِالتَّوحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾: أَي: طَهِّر أَعمَالَكَ عَنِ الشِّركِ. ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾: الرُّجزَ: الأَصنَامُ، وَهَجرُهَا: تَركُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنهَا وَأَهلُهَا.

بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ **المُدَّثِّرُ** هو المتغطي؛ المتدثر بأغطيته وأكسيته وملابسه أو نحو ذلك.

قال ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ هذا للوجوب، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ومعنى** ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ **ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد.**

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾: **عظمه بالتوحيد** يعني أن قوله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ معناه خُصَّ ربك بالتكبير، لأنه قدم المفعول؛ أصل الكلام: كبِّر ربك. فقدَّم المفعول على العامل فيه وهو الفعل، فدل على الاختصاص، فقال ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ قال الشيخ معنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أي عظّمه بالتوحيد، وهذه لا شك من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من العلم الغزير العظيم الذي يحتاج إلى إيضاح وبسط، ذلك أن التكبير جاء في القرآن وله خمسة موارد:

١. فتكبير الله جَلَّ وَعَلَا يكون في ربوبيته، يعني اعتقاد أنه أكبر من كل شيء يُرى أو يُتوهم أو يُتصور أنه موجود، هو أكبر من كل شيء في ربوبيته، في ملكه، في تصريفه لأمره، في خلقه، في رزقه، في إحيائه، في إماتته، إلى آخر معاني الربوبية هذا الأول، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١]، الله أكبر

يشمل هذا المعنى، ويشمل غيره من معاني التكبير التي ستأتي، إذاً قوله هنا ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يدخل فيه أولاً اعتقاد أن الله جَلَّ وَعَلَا أكبر من كل شيء في مقتضيات ربوبيته.

٢. الثاني أن الله جَلَّ وَعَلَا أكبر من كل شيء في استحقاقه الإلهية والعبادة وحده دونما سواه، فإن العبادة صُرفت لغير الله، وهو جَلَّ وَعَلَا أكبر وأعظم وأجل من كلِّ هذه الآلهة التي صرفت لها أنواع من العبادة، فالتكبير يرجع إلى الربوبية وهو الأول، وهذا التكبير يرجع إلى استحقاقه إلى الإلهية.

٣. وتكبير وهو الثالث اعتقاد كما قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أنَّ ربك أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته، فإنه في أسمائه أكبر من كل ذوي الأسماء، الأشياء لها أسماء، لكن أسماء الله جَلَّ وَعَلَا أكبر من ذلك، أكبر يرجع الكبر هنا لأي شيء؟ لما فيها من الحسن، والبهاء، والعظمة، والجلال، والجمال ونحو ذلك، وكذلك في الصفات، فصفاته عُلا، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] يعني له الاسم الأعلى، وله النعت الأعلى، وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥]، ونحو ذلك، فهو جَلَّ وَعَلَا أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته.

٤. كذلك قوله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يعني في قضائه وقدره الكوني، فالله جَلَّ وَعَلَا في قضائه وقدره الكوني أكبر؛ يعني أن قضاءه وقدره له فيه الحكمة البالغة، وأما ما يقضيه ويقدّره العباد لأنفسهم، يقدر الأمر بنفسه، ويفعل الأمر لنفسه، فإن هذا يناسب نقص العبد، والله جَلَّ وَعَلَا في قضائه وقدره بما يحدثه في كونه فهو أكبر.

٥. الأخير تكبير الله جَلَّوَعَلَا في شرعه وأمره.

قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ تدخل فيها هذه الخمسة، الأخير يعني اعتقاد الله جَلَّوَعَلَا أكبر فيما أمر به ونهى، وفيما أنزله من هذا القرآن العظيم، أكبر وأعظم من كل ما يشرعه العباد، أو يحكم به العباد، أو يأمر العباد به وينهون عنه، ولهذا صارت هذه الكلمة (الله أكبر) من شعارات المسلمين العظيمة، يدخلون في الصلاة بها، ويرددونها في الصلاة، وهي من الأوامر الأولى التي جاءت للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال تعالى له ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

إذا لحظت هذه المعاني الخمسة، وكل واحدة منها لها أدلة كثيرة من القرآن، تدبّر وأنتَ تقرأ القرآنَ، الآيات التي فيها ذكر تكبير الله تجد أن بعضها فيه ذكر الربوبية، وبعض الآيات فيه ذكر الألوهية، وبعضها فيه ذكر الأسماء والصفات، وبعضها فيه ذكر قضاء الله الكوني؛ أفعال الله جَلَّوَعَلَا، وبعضها فيه شرع الله جَلَّوَعَلَا، إذا اجتمعت هذه الخمس رأيت أن هذا التفسير من أحسن وأعظم ما يكون.

قال (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ **عظِّمه بالتوحيد**) إذا اجتمعت هذه الخمس في الفهم، قال (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ عظِّمه بالتوحيد) لأن معاني التكبير هي معاني التعظيم، وتلك المتعلقات هي التوحيد بأنواعه، فصار تفسير الشيخ هنا بقوله (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي: عظِّمه بالتوحيد) وهو من التفاسير المنقولة عن السلف، أنه صار ها هنا اختيارا مناسبًا ملائمًا واضح الدلالة.

قال بعدها (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ **أي طهر أعمالك عن الشرك**)، فسّر الثياب بالعمل، الثوب أصله في اللغة ما يثوب إلى صاحبه، يعني ما يرجع إلى صاحبه، سمي اللباس سواء كان قميصًا أو إزاراً أو كان سراويل، أو نحو ذلك، أو كانت عمامة، يسمى ثوبًا، لأنه يرجع إلى صاحبه في التباسه به حال

لبســه، هذا أصل الثوب، ولهذا يقال للعمل أيضًا ثوب، وتجمع على ثياب، باعتبــار أنه يرجع إلى صاحبه، لهذا فســر قوله تعالى هنا (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي طهــر أعمالك) فســر الثياب بالأعمال، لأنها راجعة إلــى صاحبها باعتبار أصلها اللغوي، أو يقال إن العمل مشـبه بالثــوب لملازمته لصاحبه، فالثوب يلازم لابســه، والعمل كذلك يـلازم عامله، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]، الطائر هو ما يطير منه من العمل من خير أو شر، أُلــزم به، صار ملازمـًا له كملازمة ثوبه له، هنا اختار الشـيخ أحد التفسـيرين المنقولين عن السـلف، وهو أن معنـى (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي طهر أعمالك عن الشرك)، وفُسِّـرت بِـ:طهّر ثيابك من النجاسات، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ هذا التفسير الأعم أنسب ها هنا، لأنه يناسب ما قبله وما بعده، فإن ما قبله فيه الإنذار وتعظيم الله بالتوحيد، وما بعده فيه تركٌ للرُّجزِ وهجر للأصنام والبراءة منها، بقي قوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ فاتساق الكلام وكونه جميعًا جاء بمعنى مترابط يقضي بأن يختار تفسير الثياب بالأعمال، لأن ما قبله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ لينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يعني وعظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، ثم قال ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ التي هي الأصنام والأوثان، أتركها وتبرأ منها، الجميعُ في البراءة من الشرك، والبعد عن الشرك، والنهي عنه، والدعوة والالتزام بالتوحيد، بقي قوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ لها تفسـيران؛ تفسير للثياب بالثيــاب المعروفة؛ ثياب تطهرها من النجاسـة، وثيابك التــي هي الأعمال، طهرها من الشــرك، فصار الأنســب للثياب أن يفسر ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ بطهر أعمالــك من الشــرك، وهــذا مما يعتنــي به المحققــون من المفســرين، أنهم يختارون في التفسيرِ، التفسيرَ الذي يناسب السياق، يناسب ما بعده وما قبله، واللغة لها محامل كثيرة، ولهذا اختلف السلف في تفسيراتهم.

قال (﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ الرجز: الأصنام وهجرها تركها وأهلها والبراءة منها وأهلِها)

يعني ترك الأصنام، وترك أهلها، والبراءة من الأصنام، والبراءة من أهلها، قال ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ الرّجز: اسم عام لما يعبد من دون الله، قد يكون صنمًا، وقد يكون وثنًا، قال ها هنا (الرجز الأصنام) يعني قوله ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ أي الأصنام أُترك، ويلزم من ذلك أن يترك أهلها ويتبرأ منها ومن أهلها، (الرجز الأصنام) الأصنام: جمع صنم، والصنم اسم لما عُبِد من دون الله، مما كان على هيئة صورة، عند كثير من العلماء، يعني الصنم يكون مصور على هيئة صورة؛ صورة كوكب، أو صورة جني، أو صورة شجرة، أو صورة آدمي، أو صورة نبي، أو صورة صالح، أو طالح، أو صورة حيوان، أن يكون على هيئة صورة، فإذا كان هناك شيء مصنوع على هيئة صورة إما صورة كوكب، أو صورة مما هو على الأرض مما يعبد من دون الله صار صنمًا، فإن كان ما يعبد من دون الله ليس على هيئة صورة صار اسمه الوثن لهذا قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد لا يصلح صنمًا يعبد»، لأن القبر لا يكون على هيئة مصورة، قال (وثنًا يعبد) لأن الوثن اسم لما يعبد من دون الله على هيئة صورة، أو على غير هيئة صورة، الوثن: اسم لما يعبد من دون الله إذا لم يكن مصوراً على هيئة صورة. قال بعض أهل العلم الوثن قد يكون أيضًا على هيئة صورة، فيكون الصنم ما له صورة، والوثن: يشمل ما كان له صورة وما لم يكن له صورة. وهذا هو القول الثاني، فيكون كل صنم وثنًا، وليس كل وثن صنمًا، وأخذوا هذا من قوله تعالى في سورة العنكبوت، قال جَلَّ وَعَلَا مخبراً عن قول إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت:١٧]، فحصر فقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ قد بين الله جَلَّ وَعَلَا في آيات أخر أن إبراهيم سألهم عن عبادتهم قال ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:٧٠]، قالوا: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء:٧١]، صار الوثن يشمل الصنم وغير الصنم، فهذا القول أدق وهو الذي أختاره أن الوثن يشمل الصنم وغير الصنم، يعني ما له صورة مما عبد من دون الله وما ليس له صورة، وأما الصنم فهو في الغالب ما كان على هيئة صورة، قال (والرجز الأصنام) ومعلوم أنه إذا نهاهم عن عبادة الأصنام، فإنه بذلك ينهاهم عن عبادة الأوثان، لأن العلة فيهما واحدة، وهي عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا، وهجرها تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها.[1]

هذه دعوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم، أن يركزوا على الإنذار عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم على منهج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، فلا بد من تأصيل هذا الشيء أولًا، ثم بعد ذلك يتجه إلى بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا والخمر والسرقة واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال والأخلاق، لكنهم لم يتركوا الشرك، فلا فائدة من هذه الأمور ولا تنفعهم، بينما لو سلم الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر الله له، أو يعذب بقدر ذنوبه، ولكن مآله إلى الجنة لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولاً، ولذلك

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبداً، ودعوة الناس إليه وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم التوحيد ما معنى التوحيد، وما معنى الشرك، لا بد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتى لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلا بد من هذا الأمر، ولا بد أن تقوم الدعوة على هذا الأساس.(١)

فائدة

(**بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد**) الإنذار والنهي عن الشرك مقدم هنا، قدمه على الدعوة إلى التوحيد، وهذا التقديم هو المفهوم من كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ يعني أنذر عن الشرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ كما سيأتي معناه، أن معناه عظمه بالتوحيد، فإذاً قال «بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد» هو معنى لا إله إلا الله، ذكر العلماء أن ثمَّ مناسبة ها هنا وهي أن الإنذار عن الشرك هذا فيه تخلية، والدعوة إلى التوحيد تحلية، **ومن القواعد المقررة أن التَّخلِيَة تسبق التَّحلِيَة**، لهذا النهي عن الشرك والإنذار عن الشرك إخراج لكل ما يتعلق به القلب؛ لأنه قال لا يتعلق القلب بأي أحد من هذه الآلهة، ثم إذا خلا القلب من التعلق بأحد، أمره بأن يتعلق بالله جَلَّ وَعَلَا وحده دون ما سواه.(٢)

الخلاصة

معرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتتضمن خمسة أمور:

الأمور: معرفته نسبًا فهو أشرف الناس نسبًا فهو أشرف الناس نسبًا فهو

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

هاشمي قرشي عربي فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم إلى آخر ما قاله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: معرفة سنه، ومكان ولادته، ومهاجره وقد بينها الشيخ بقوله: «وله من العمر ثلاث وستون سنة، وبلده مكة، وهاجر إلى المدينة» فقد ولد بمكة وبقي فيها ثلاثًا وخمسين سنة، ثم هاجر إلى المدينة فبقي فيها عشر سنين، ثم توفي فيها في ربيع الأول سنة إحدى عشر بعد الهجرة.

الثالث: معرفة حياته النبوية وهي ثلاث وعشرون سنة فقد أوحي إليه وله أربعون سنة كما قال أحد شعرائه:

وأنت عليه أربعون فأشرقت   شمس النبوة منه في رمضان

الرابع: بماذا كان نبيًا ورسولاً؟ فقد كان نبيًا حين نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١٥]، ثم كان رسولاً حين نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١٧]، فقام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأنذر وقام بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

والفرق بين الرسول والنبي كما يقول أهل العلم: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه والعمل به فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

الخامس: بماذا أرسل ولماذا؟ فقد أرسل بتوحيد الله تعالى وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور، وأرسل رحمة للعالمين لإخراجهم

من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلى النور العلم والإيمان والتوحيد حتى ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه.(١)



أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشرَ سِنِينَ يَدعُو إِلَى التَّوحِيدِ، وَبَعدَ العَشرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَت عَلَيهِ الصَّلَوَاتُ الخَمسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ...

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد

أي: أخذ على دعوة الناس إلى التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام... مكث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مكة ثلاث عشرة سنة، منها عشر يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج، بل كانت دعوته مقتصرة على التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥].(٢)

يدعو إلى التوحيد قبل أن تنزل الفرائض، لم تنزل فريضة الصلاة على هذا النحو، ولا فريضة الزكاة على هذا النحو، ولا سائر التشريعات على هذا النحو، لم تحرم الخمر، ولم يحرم الزنا، ولم يحرم الربا في تلك المدة، وهذا معنى قوله (أخذ على هذا) يعني على الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، (أخذ على هذا) على الإنذار عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، أخذ عشر سنين يدعو إلى

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

التوحيد، ما كان يدعو فيها إلى الأعمال، لا إلى صلاة ولا إلى زكاة مع أنه كان له صلاة في ذلك، قال كثير من أهل العلم كانت الصلاة المفروضة في العشر سنين تلك صلاتين في اليوم والليلة، أحدها في إقبال النهار، والأخرى في إقبال الليل، يعني أحدها الفجر، والثاني المغرب، وحملوا عليه قوله تعالى في سورة طه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، كذلك قوله في سورة ق ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق:٣٩]، ونحو ذلك من الآيات، أما الصلوات الخمس فلم تُفرض إلا بعد ذلك.[١]

وبعد العشر عرج به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين

بقي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين على هذا ينهى عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، بينما هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومعه دابة يقال لها: البراق، أقل من البغل وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأركبه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليها وذهب به إلى بيت المقدس في الليل.

أسرى: من السرى وهو السير بالليل، وهذا من خواصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معجزاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالتقى هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرج إلى السماء، يعني رفع من بيت المقدس إلى السماء بصحبة جبريل، ومعنى العروج الصعود، فأسري به من مكة إلى بيت

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المقدس، وعرج به من بيت المقدس إلى السماء،[١] المعراج معناه الصعود، (عُرج به إلى السماء) يعني صُعد به إلى السماء، ومن أسماء السّلم والمِرقاة التي يُرتقى عليها المعراج، فمعنى المعراج السلم الذي يُصعد عليه، (عُرج به) أي صُعد به، ليلة المعراج يعني الليلة التي صُعد بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها على المعراج يعني على السلم.

الدابة رُبطت عند بيت المقدس، ثم أخذه جبريل وعرج به بالمعراج يعني بالسلم الخاص الذي يصعد عليه إلى السماء، (إلى السماء) المقصود به جنس السماء، يعني السماوات.[٢]

صعد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومر بأهل السماوات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهى إلى السماء السابعة، ثم صعد فوق السماوات إلى سدرة المنتهى.[٣]

حتى إنه قرُب من ربه جَلَّ وَعَلَا، وكلمه ربه جَلَّ وَعَلَا بدون واسطة، رأى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلك الليلة نور الله جَلَّ وَعَلَا، ورأى الحجاب الذي احتجب الله جَلَّ وَعَلَا به عن خلقه فلا يرونه، كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل هل رأيت ربك؟ يعني ليلة المعراج فقال: «رأيت نوراً». وفي رواية أخرى قال: «نور أنّى أراه». يعني ثَم نور فكيف أراه؟ وهذا من الفضل العظيم له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أنه ارتفع من الأرض إلى ما بعد السماء السابعة، ورأى الجنة، ورأى النار، في ليلة.[٤]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وعندها كلمه الله عَزَّوَجَلَّ من وحيه بما شاء، ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة، ولكن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أشار على نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يراجع ربه يسأله التخفيف حتى انتهت إلى خمس.

فقال الله عَزَّوَجَلَّ كما في حديث الإسراء والمعراج: «أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً»[(١)] وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: هي «خمس وهي خمسون»[(٢)] أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذُكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٣-١٨] هذا في المعراج.[(٣)]

نص الحديث

العروج الصعود ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وهو من خصائص النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العظيمة التي فضله الله به قبل أن يهاجر

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) مِن حديث مالِك بن صعصعة وهو حديث طويل في قِصَّة المِعراج.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩) مِن حديث أنس عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.
(٣) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

مـن مكـة، فبينما هو نائم في الحجر في الكعبة أتاه آت فشـق ما بين ثغره نحره إلى اسـفل بطنه ثم اسـتخرج قلبه فملأه حكمة وإيمانـًا تهيئة لما سيقوم به ثم أتـى بدابة بيضـاء دون البغل وفوق الحمار يقال لها الـبراق يضع خطوه عند منتهـى طرفه فركبـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبصحبته جبريل الأمـين حتى وصل بيت المقـدس فنزل هناك وصلى بالأنبياء إمامـًا بكل الأنبياء والمرسـلين يصلون خلفه ليتبين بذلك فضل رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرفه وأنه الإمام المتبوع، ثم عرج به جبريل إلى السـماء الدنيا فأسـتفتح فقيل من هـذا؟ قال: جبريل. قيـل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسـل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبـًا به فنعم المجيء جاء ففتح له فوجد فيها آدم فقال جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسـلم عليه فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال مرحبـًا بالأبن الصالح والنبي الصالح، وغذا على يمين آدم أرواح السـعداء وعلى يسـاره أرواح الأشـقياء من ذريته فإذا نظر إلى اليمين سر وضحك وإذا نظر قبيل شماله بكى، ثم عرج به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح..

إلخ. فوجد فيها يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وهما ابنا الخالة كل واحد منهما ابن خالة الآخر فقال جبريل: هذان يحيى وعيسـى فسلم عليهما، فردا السـلام وقـالا: مرحبـًا بالأخ الصالح والنبي الصالـح، ثم عرج به جبريل إلـى السـماء الثالثة فأسـتفتح... إلخ. فوجد فيها يوسـف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال جبريل هذا يوسـف فسـلم عليه فسـلم عليه، فرد السـلام، وقال مرحبـًا بالأخ الصالـح والنبـي الصالح، ثم عرج به جبريل إلى السـماء الرابعة فاسـتفتح ... إلخ فوجد فيها إدريس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال جبريل هذا إدريس فسلم عليه فسلم عليـه فرد السـلام، وقـال: مرحبـًا بـالأخ الصالـح والنبي الصالح ثـم عرج به

جبريل إلى السماء الخامسة فاستفتح ... إلخ. فوجد فيها هارون بن عمران أخا موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال جبريل هذا هارون فسلم عليه، فسلم عليه فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم عرج به جبريل إلى السماء السادسة فاستفتح... إلخ. فوجد فيها موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال جبريل هذا موسى فسلم عليه، فسلم عليه فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزه بكى موسى فقيل له ما يبكيك قال: «أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» فكان بكاء موسى حزنًا على ما فات أمته من الفضائل لا حسداً لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فاستفتح... إلخ. فوجد فيها إبراهيم خليل الرحمن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال جبريل: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلم عليه فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال مرحبًا بالأبن الصالح والنبي الصالح. وإنما طاف جبريل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على هؤلاء الأنبياء تكريمًا له وإظهاراً لشرفه وفضله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان إبراهيم الخليل مسنداً ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون ويصلون ثم يخرجون ولا يعودون في اليوم الثاني يأتي غيرهم من الملائكة الذين لا يحصيهم إلا الله، ثم رفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله من غير البهاء والحسن ما غشيها حتى لا يستطيع أحد أن يصفها من حسنها ثم فرض الله عليه الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة فرضي بذلك وسلم ثم نزل فلما مر بموسى قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: خمسين صلاة في كل يوم. فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك وقد جربت الناس من قبلك وعالجت بني إسرائيل اشد المعالجة فأرجع إلى

ربك فاسـأله التخفيف لأمتـك. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرجعـت فوضع عني عشراً وما زال يراجع حتى استقرت الفريضة على خمس، فنادى مناد أمضيت فريضتـي وخففت على عبادي. وفي هذه الليلة أدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة فإذا فيها قباب اللؤلؤ وإذا ترابها المسـك ثم نزل رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى مكة بغلس وصلى فيها الصبح.(١)(٢)

ثم إنه نزل من السماء إلى بيت المقدس ثم إنه رجع إلى مكة في ليلته، فلما أصبـح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شـرهم، وفرحـوا بهذا وراحوا يشـهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنـه ذهب إلى بيت المقـدس ورجع منـه في ليلة واحدة، ونحـن نضرب أكباد الإبل إليها شـهراً ذهابًا، وشـهراً إيابًا، يقيسـون قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فكان الإسـراء والمعـراج امتحانـا مـن الله عَزَّوَجَلَّ للناس. المشـركون زاد تندرهم وشـرهم وتنقصهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشـركون لأبي بكر الصديـق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انظر إلى صاحبك مـاذا قال؟ قال: وماذا قال؟ قالوا: يزعم أنه ذهب به إلى بيت المقدس وَعُرِجَ به إلى السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة. قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كمـا قال. لقد صـدق. قالوا: كيف ذلك؟ قال: أنا أصدقـه فيما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السـماء ينزل عليه فكيف لا أصدقه في الإسـراء إلى بيت المقـدس(٣). وهذا بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ لا بقدرة الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة. ومسـلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفرض الصلوات.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) أخرجه الحاكِم في «المُستدرَك» ٣/ ٦٥ (٤٤٠٧) مِن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هو بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ وهذا من معجزات هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن كرامته عند ربه عَزَّوَجَلَّ.[(١)]

السماء الواحدة لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وما بين السماء والسماء لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتى تصل إلى السماء السابعة، ثم بعد ذلك الماء، وبعد ذلك الكرسي إلى آخره[(٢)]، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا شك أن المعراج له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مما يدل على عظم قدره عند ربه جَلَّ وَعَلَا، لهذا قال

تعالى في الإسراء وهو من العجب بما كان ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، يعني في بعض الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم رجع، هذا من مكة إلى بيت المقدس محل عجب عند العرب ولا شك أنه محل عجب، حيث ما كان عندهم من المركوبات، فكيف من بيت المقدس إلى ما بعد السماء السابعة، ثم يرجع إلى بيت المقدس، ثم يرجع من بيت المقدس إلى مكة، وفراشه لم يبرد بعد، هذا لا شك أنه مما أكرم الله جَلَّ وَعَلَا به نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.[(٣)]

ولا بد من الاعتقادات بأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسري وعرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا، لأن بعض الناس يقولون: أسرى بروحه، وأما جسده فلم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) لعله سبق لسان لأنه قال في شرح الباب الأخير من كتاب التوحيد: فالأرض التي أنت فيها، وأنت فيها في نقطة صغيرة صغيرة، هي بالنسبة إلى السماء هذا وصفها، والأرض والسماوات بالنسبة للكرسي هذا وصفه، **والكرسي أيضا فوقه ماء**، وفوق ذلك العرش؛ عرش الرحمان جَلَّ وَعَلَا.

(٣) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

يبرح مكة وإنما أسري وعرج بروحه وهذا كلام باطل، بل أنه أسري بروحه وجسده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحمل على البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا إذ لو كان بروحه فقط أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

فالعبد يطلق على الروح والبدن جميعـًا لا يطلق على الروح وحدَها أنها عبد، ولا يطلق على البدن وحده أنه عبد، لا يطلق إلا على مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرى بروح عبده، بل قال: أسرى بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، والله جَلَّ وَعَلَا لا يعجزه شيء وهو القادر على كل شيء.

وفرضت عليه الصلوات الخمس وصلى في مكة ثلاث سنين.

وكان يصليها ركعتين ركعتين فلما هاجر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمت الرباعية إلى أربع إلا الفجر فإنها تطول فيها القراءة. فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت لأنها وتر النهار، أما الظهر والعصر والعشاء وكانت في مكة ركعتين ركعتين فلما هاجر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «أول ما فرضت الصلاة ركعتين فلما هاجر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمت صلاة الحضر وبقيت صلاة السفر» هذا بإجماع أهل العلم، أن الصلاة فرضت بمكة، وأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاها بمكة، لكن اختلفوا هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف، لكن الراجح هو ما

ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرى أن الزكاة فرضت أيضًا بمكة وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. والمراد بحقه هنا الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

أيضًا السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني، وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.(١)



وَبَعدَهَا أُمِرَ بالهِجرَةِ إِلَى المَدِينَةِ

لما اشتد أذى قريش وزاد شرهم بالصد عن سبيل الله ومضايقة المسلمين، وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، الهجرة الأولى؛ لأن فيها مَلِكًا لا يظلم أحد عنده وكان نصرانيًا ولكنه كان عادلاً، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلى الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبين من

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

دهـاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشـي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا وإنهم أشـرار، لا يفسـدون في بلدك... إلخ.

وأعطـوه الهدايـا التي معهم ليغـروه، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ استـدعى المهاجرين وسـمع منهم، وخيرهم فاختاروا البقاء في الحبشـة، فرجع المندوبان خائبين وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن الله مَنَّ على النجاشي فأسلم وَحَسُنَ إسلامه، فلما توفي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هـو وأصحابـه صلاة الغائـب، فكان في هجرتهـم إليه خير له أيضـًا هداه الله بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفرًا من الأنصار في منى في موسـم الحج، وكان النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض نفسـه على القبائل في موسـم الحـج، يذهب إلى منازل العرب في منى ويدعوهم إلى الله، وصادف أن لقي أناسًـا من الأنصار فدعاهـم إلـى الله فعـرض عليهم ما عنـده، فقبلوا من الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته، وبايعوه على الإسلام، ورجعوا إلى قومهم من موسم الحج فدعوهم إلـى الله عَزَّوَجَلَّ، فـوافى في الموسـم الذي بعـده أكثر من الموسـم الأول، جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيعة العقبة الثانية أي: عند جمرة العقبة، بايعوه على الإسـلام، وعلى أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعنـد ذلك، أي: بعد هـذه البيعة المباركة أمـر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان في مكـة من المسـلمين بالهجرة إلى المدينة، وهاجر مـن هاجر إلى المدينة، وبقي الرسـول وبعض أصحابـه، ثم إن الله أذن لنبيـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة.

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلى المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة، ففي هذه الليلة التي أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخرج إلى الهجرة جاؤوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً أن ينام على فراشه حتى يراه المشركون ويظنون أنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتغطى بغطاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصار المشركون ينتظرون خروجه على أنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بينهم وهم لا يشعرون.

أعمى الله بصائرهم عنه، وأخذ تراباً وذرَّه على رؤوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرجا فذهبا إلى غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة، حياً أو ميتاً، فلما يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب، أغروا بالجوائز من يأتي به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياً أو ميتاً، فلما أيسوا خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل وذهبوا إلى المدينة.(١)

أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إلى المدينة لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته، وفي شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر من البعثة وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة مهاجراً من مكة البلد الأول للوحي وأحب البلاد إلى الله ورسوله، خرج من مكة مهاجراً بإذن ربه بعد أن قام

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

بمكة ثلاث عشرة سنة يبلغ رسالة ربه ويدعو إليه على بصيرة فلم يجد من أكثر قريش وأكابرهم سوى الرفض لدعوته والإعراض عنها، والإيذاء الشديد للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن آمن به حتى آل الأمر بهم إلى تنفيذ خطة المكر والخداع لقتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أجتمع كبراؤهم في دار الندوة وتشاوروا ماذا يفعلون برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رأوا أصحابه يهاجرون إلى المدينة وأنه لا بد أن يلحق بهم ويجد النصرة والعون من الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون مه أبناءهم ونساءهم وحينئذ تكون له الدولة على قريش، فقال عدو الله أبو جهل الرأي أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً ثم نعطي كل واحد سيفاً صارماً ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ونستريح منه فيتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف. يعني عشيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحاربوا قومهم جميعاً فيرضون بالدية فنعطيهم إياها.

فأعلم الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أراد المشركون وأذن له بالهجرة وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد تجهز من قبل للهجرة إلى المدينة فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رسلك فإن أرجو أن يؤذن لي فتأخر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليصحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فبينما نحن في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة في منتصف النهار إذا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الباب مقتنعاً فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لأبي بكر: أخرج من عندك. فقال: إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر الصحبة يا رسول الله. قال: نعم. فقال: يا رسول الله فخذ إحدى راحلتي

هاتين. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بالثمن ثم خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر فأقاما في غار جبل ثور ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وكان غلامًا شابًا ذكيًا في آخر الليل إلى مكة فيصبح من قريش فلا يسمع بخبر حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه إلا وعاه حتى يأتي به إليهما حين يختلط الظلام، فجعلت قريش تطلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل وجه وتسعى بكل وسيلة ليدركوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جعلوا لمن يأتي بهما أو بأحدهما ديته مئة من الإبل، ولكن الله كان معهما يحفظهما بعنايته ويرعاهما برعايته حتى إن قريشًا ليقفون على باب الغار فلا يرونهما. قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قلت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال: «لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما».[1] حتى إذا سكن الطلب عنهما قليلاً خرجا من الغار بعد ثلاث ليال متجهين إلى المدينة على طريق الساحل.

ولما سمع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار بخروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم كانوا يخرجون كل صباح يوم إلى الحرة ينتظرون قدوم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبه حتى يطردهم حر الشمس، فلما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعالى النهار واشتد الحر رجعوا إلى بيوتهم وإذا رجل من اليهود على أطم آطام المدينة ينظر لحاجة له فأبصر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه مقبلين يزول بهم السراب فلم يملك أن نادى بأعلى صوته: «يا معشر العرب هذا جدكم» يعني هذا حظكم وعزكم الذي تنتظرون فهب المسلمون للقاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم السلاح

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ومسلم.

تعظيمًا وإجلالاً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإيذانًا باستعدادهم للجهاد والدفاع دونه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتلقوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظاهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين ونزل في بني عمرو بن عوف في قباء، وأقام فيهم بضع ليال وأسس المسجد، ثم أرتحل إلى المدينة والناس معه آخرون يتلقونه في الطرقات قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد.[١]



(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وَالهِجرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِن بَلَدِ الشِّرك إِلَى بلد الإِسلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَن تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البُغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«نزلت هَذِهِ الآيَةُ فِي المُسلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَم يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسمِ الإِيمَانِ».**

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَنقَطِعُ الهِجرَةُ حَتَّى تَنقَطِعَ التَّوبَةُ، وَلا تَنقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا».**

تعريف الهجرة

الهجرة في اللغة: ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: فهي كما عرفها الشيخ: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه الله بالجهاد في كثير من الآيات.[١]

أقسام الهجرة

الهجرة من حيث مكانُها تنقسم إلى هجرة عامة وإلى هجرة خاصة.

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

- الهجـرة العامـة: هـي التي عرّفها الشـيخ هنا تـرك بلد الشـرك إلى بلد الإسـلام، الانتقال من بلد الشـرك إلى بلد الإسـلام، بلد الشـرك أيَّ بلد إلى أن تطلع الشـمس مـن مغربها، أيَّ بلد ظهر فيها الشـرك، وظهـر فيها أحكام الشرك، وكان ذلك غالبا، فإن الهجرة منها تسمى هجرة، وهذه الهجرة عامة، من حيث المكان يمكن أن تكون متعلقة بأي بلد.

- أمـا الهجرة الخاصة: فهي الهجرة من مكة إلى المدينة، ومكة لما تركها النبـي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تركها وهي دار شـرك، وذهب إلى المدينة، لأنه فشـى فيها الإسلام فصار كل بيت من بيوت المدينة دخل فيه الإسلام، فصارت دار إسـلام، فانتقل من بلد الشـرك إلى بلد الإسـلام، هاجر هجرة خاصة، وهذه الهجـرة الخاصة هي التي جاء فيهـا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «لا هجرة بعد الفتح بـل جهاد ونية» كما ثبـت في الصحيح، فقوله «لا هجرة بعـد الفتح» يعني لا هجرة من مكة، الهجرة الخاصة هذه من مكة إلى المدينة.

أما الهجرة العامة الانتقال من بلد الشـرك إلى بلد الإسـلام فهي باقية إلى طلوع الشـمس من مغربها؛ إلى قيام السـاعة، إذا وجد بلد شـرك، ووجد بلد إسلام، توجب الهجرة، هذا من حيث المكان.(١)

الهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشـرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة

الهجرة قرينة الجهاد في سـبيل الله، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب على كل مسـلم يحتاج إلى الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسـلم أن يقيم في بـلاد الكفـر وهو لا يقـدر على إظهار دينـه، فيجب عليه أن يهاجـر إلى بلاد

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

المسلمين فهي فريضة باقية لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها».[١]

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].[٢]

ظلم النفس بترك الهجرة، لأنهم عصوا الله جَلَّ وَعَلَا في ترك الهجرة، ومكة لم يعد في إمكان المؤمنين أن يظهروا دينهم فيها، فقد تسلط الكفار على أهلها، فلم يستطيعوا أعني المؤمنين أن يظهروا دينهم، وهذا هو قائم من أول الدعوة، تسلطوا فترة وكان إظهار الدين في أول الدعوة ليس واجبًا، ثم أمروا بذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥]، فابتلي من ابتلي من المؤمنين فلم يستطيعوا إظهار دينهم، فاستأذنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إلى الحبشة، فأذن بالهجرة إلى الحبشة؛ الهجرة الأولى ثم الثانية وقيل ثَم هجرة ثالثة، ثم لما لم يعد في الإمكان أن يظهر الدين في مكة، وقد قامت بلد الإسلام في المدينة صارت الهجرة متعينة وفرضا من مكة إلى المدينة، لهذا قال جَلَّ وَعَلَا هنا

(١) أخرجه أبو داوود (٣٤٧٩)، وأحمد ٢٨/ ١١١ (١٦٩٠٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ﴾ يعني الملائكة مخاطبين هؤلاء الذين توفتهم الملائكة وقد تركوا الهجرة ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ يعني على أي حال كنتم ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فأجابت الملائكة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وهذا إنكار عليهم، ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ لأن الاستفهام هنا في (أَلَم) استفهام للإنكار وضابطه أن يكون ما بعده باطلاً، إذا أزلت الهمزة وقرأت ما بعده فإذا كان ما بعده غير صحيح صارت الهمزة إذاً للإنكار، إذا تركت الهمزة صار الكلام لم تكن أرض الله واسعة هل هذا صحيح؟ ليس بصحيح، فأرض الله جَلَّ وَعَلَا واسعة، ولما أتى الاستفهام في الهمزة بعدها كلام يكون بدون الهمزة باطلا، يصير الهمزة للإنكار، كما هو مقرر في موضعه في كتب شروح المعاني في اللغة قال ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ فدل على أنهم تركوا الهجرة، فهذه الآية على أن من ترك الهجرة مع القدرة على ذلك أنه مشرك وكافر من دين من أقام معهم، وهذا ليس بصحيح، بل إن هذه الآية في المؤمنين لأنه قال في أولها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فهؤلاء ظلموا أنفسهم، ليس الظلم الأكبر، ولكن الظلم الأصغر بترك الهجرة، قال جَلَّ وَعَلَا بعدها ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ رجال مستضعفون، لا يمكنهم أن يعرفوا الطريق، لا يهتدون سبيلا إلى البلد الآخر ولا يستطيعون حيلة، ليس عندهم ما يركبون، وليس عندهم مال ينقلهم، فهم مستضعفين يريدون الهجرة، ولكنهم مستضعفون من جهة عدم القدرة على الهجرة من المال، والمركب، والدليل ونحو ذلك، فقال جَلَّ وَعَلَا في هؤلاء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾ ويلحق بهؤلاء من لم يستطع الهجرة في هذا الزمن بالمعوّقات القائمة من أنواع التأشيرات وأشباهها، لأن هذا لا يستطيع حيلة، هو يرغب أن يترك بلد الشرك إلى بلد

الإسلام، لكن لا يمكنه ذلك لوجود المعوّقات لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا، أو طريقًا إلى بلد الإسلام فهؤلاء قال جَلَّوَعَلَا في حقهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت:٥٦].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة ولم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان».

هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبقَ في هذه البقعة السيئة بل اخرج منها إلى أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.(٢)

الظاهر أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل هذا عن البغوي بمعناه، هذا إن كان نقله من التفسير إذ ليس المذكور في التفسير البغوي لهذه الآية بهذا اللفظ.(٣)

تركوا الهجرة فناداهم الله باسم الإيمان، فدل على أن ترك الهجرة لا يسلب الإيمان، فمعنى ذلك أن ترك الهجرة ليس شركا أكبرا، وليس كفرا أكبرا، وإنما هو معصية من المعاصي، لأنه نادى من ترك الهجرة باسم الإيمان، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، قال البغوي نزلت هذه الآية في الذين لم يهاجروا من مكة ناداهم الله باسم الإيمان، دل أن من ترك الهجرة

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

من مكة ليس كفرا ولا شركا، وأن قوله في الآية التي قبلها ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ أن هذا لأجل أنهم تركوا واجبا من الوجبات، وارتكبوا كبيرة من الكبائر، لكن لا يسلب منهم الإيمان بترك الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.[١]

هاتان الآياتان فيهما الوعيد على من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا، وكان عاصيًا، ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة، ولكن عليه وعيد شديد. ثم بين الله بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ﴾ يعني الأطفال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾، أي: ما يعرفون الطريق إلى البلد المدينة؛ لأن الهجرة تحتاج إلى سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلاً، حتى لو كان عندهم إمكانيات مادية، ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.[٢]

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

من الواضح أن التوبة لا تنقطع إلا إذا طلعت الشمس من مغربها، وطلوع الشمس من مغربها هو المراد بقوله تعالى في آخر سورة الأنعام ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، قال المفسرون إن معنى ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أنه طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فلا تنفع التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، كما قال هنا «ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»، فالهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، والتوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها، وذلك لأن تارك الهجرة حتى طلعت الشمس من مغربها قد ترك فرضاً عليه، إذا طلعت الشمس من مغربها ليس ثم عمل ينفع العبد قال ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والعمل بعض الإيمان.[١]

الجمع بين حديث «لا هجرة بعد الفتح» وحديث «لا تنقطع التوبة» ...

أما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا هجرة بعد الفتح»[٢] ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث وبين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد لا هجرة بعد الفتح أي: من مكة، لأنها صارت بالفتح دار إسلام، يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة،

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) (٨٥) قبل الحديث (١٨٦٤) (٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب على هذا الإشكال.(١)

سبب وجوب الهجرة

الانتقال يعني ترك بلد الشرك والذهاب إلى بلد الإسلام، وسبب الهجرة يعني سبب إيجاب الهجرة، أو سبب مشروعية الهجرة أن المؤمن يجب عليه أن يُظهر دينَه، معتزاً بذلك، مُبَيِّنًا للناس، مخبراً أنه يشهد شهادة الحق؛ لأن الشهادة لله بالتوحيد ولنبيه بالرسالة فيها إخبار الغير، وهذا الإخبار يكون بالقول والعمل، وإظهار الدين به يكون إخبار الغير عن مضمون الشهادة ومعنى الشهادة، فلهذا كانت الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام واجبة إذا لم يستطع المسلم إظهار دينه، لأن إظهار الدين واجب في الأرض، وواجب على المسلم أن يظهر دينه، وأن لا يستخفي بدينه، فإذا كان إظهاره لدينه غير ممكن في دار وجب عليه أن يتركها، يعني وجب عليه أن يهاجر.(٢)

فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.(٣)

الهجرة قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة

ومن حيث الحكم، فإن الهجرة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مستحبة؛ تكون الهجرة واجبة، يعني من بلد الشرك إلى بلد الإسلام: تكون واجبة: إذا لم يمكن للمسلم المقيم بدار الشرك أن يظهر دينه، إذا ما استطاع أن يظهر

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

التوحيد، ويظهر مقتضيات دينه، والصلاة وإتباع السنة، كل بلد بحسبه؛ بحسب ما فيه من الشرك، يظهر ما يخالف فيه هذا البلد، ويكون متميزاً فيهم، إذا لم يستطع ذلك، فإن الهجرة تكون واجبة عليه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النساء:٩٧]، يعني لم نستطع إظهار الدين، الاستضعاف هنا بمعنى عدم استطاعة إظهار الدين ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧]، فدل هذا على أنها واجبة، لأنه توعدها عليهم بجهنم، فمعنى هذا أن ترك الهجرة إذ لم يستطع إظهار الدين أنه محرم، وأن الهجرة واجبة.

القسم الثاني المستحب: وتكون الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام مستحبة، إذا كان المؤمن في دار الشرك يستطيع أن يظهر دينه، تكون مستحبة، وذلك لأن الأصل الأول من الهجرة أن يتمثل المؤمن من إظهار دينه، وأن يعبد الله جَلَّ وَعَلَا على عزة، قد قال جَلَّ وَعَلَا ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦]، نزلت في من ترك الهجرة، وناداهم باسم الإيمان. هذه الأحكام متعلقة بالهجرة من دار الكفر والشرك إلى دار الإسلام، وهناك هجرة أخرى من دار يكثر فيها المعاصي والبدع إلى دار ليس فيها معاصي وبدع أو تقل فيها المعاصي والبدع، وهذه ذكر الفقهاء فقهاء الحنابلة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ذكروا أنها مستحبة، وأن البلد إذا كثر فيها الكبائر والمعاصي، فإنه يستحب له أن يتركها إلى دار يقل فيها ذلك أوليس فيها شيء من ذلك، لأن بقاءه على تلك الحال مع أولئك، يكون مع المتوعدين بنوع من العذاب الذي يحيط بأهل القرى الذين ظلموا.

وقد هاجر جمع من أهل العلم من بغداد لما علا فيها صوت المعتزلة وصوت أهل البدع، وكثرت فيها المعاصي والزنا وشرب الخمر، تركوها إلى بلد أخرى، وبعض أهل العلم بقي لكي يكون قائمًا بحق الله؛ بالدعوة وببيان العلم وبالإنكار وبنحو ذلك، أيضًا كثير من العلماء تركوا مصر لما تولت عليها الدولة العبيدية، وخرجوا إلى غيرها، وهذا قد يحمل على أنها من الهجرة المستحبة، أو من الهجرة الواجبة، بحسب الحال في ذلك الزمن.[١]

الحكم على الدار بأنها دار الشرك أو دار الإسلام (فيه خلاف وسنسرد بعض الأقوال)

بلد الشرك هي كل بلد يظهر فيها الشرك ويكون غالبًا؛ إذا ظهر الشرك في بلد وصار غالبًا كثيراً أكثر من غيره، صارت تسمى بلد شرك، سواء كان هذا الشرك في الربوبية، أو كان في الإلهية، أو كان في مقتضيات الإلهية من الطاعة والتحكيم ونحوها. بلد الشرك هي البلد التي يظهر فيه الشرك ويكون غالبًا.

هذا معنى ما قرره الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سئل عن دار الكفر ما هي؟ قال: دار الكفر هي الدار التي يظهر فيها الكفر ويكون غالبًا.

إذاً إذا ظهر الشرك في بلدة وصار ظهوره غالبًا، معنى ذلك أن يكون منتشراً ظاهراً بيِّنًا غالبًا الخير، فإن هذه الدار تسمى بلد شرك، هذا باعتبار ما وقع وهو الشرك.

أما باعتبار أهل الدار فهذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم أن يُنظر في تسمية الدار بدار إسلام ودار شرك إلى أهلها.

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وقد سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بلد تظهر فيها أحكام الكفر، وتظهر فيها أحكام الإسلام، فقال هذه الدار لا يحكم عليها دار كفر، ولا أنها دار إسلام، بل يعامل المسلم فيها بحسبه، ويعامل فيها الكافر بحسبه.

وقال بعض العلماء الدار إذا ظهر فيها الأذان وسُمع وقت من أوقات الصلوات فإنها دار إسلام، لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان إذا أراد أن يغزو قوماً أن يصبحهم، قال لمن معه: «**انتظروا**» فإن سمع أذاناً كفّ، وإن لم يسمع أذاناً قاتل، وهذا فيه نظر، لأن الحديث على أصله، وهو أن العرب حينما يُعلون الأذان، معنى ذلك أنهم يقرون ويشهدون شهادة الحق لأنهم يعلمون معنى ذلك، وهم يؤدون حقوق التوحيد الذي اشتمل عليه الأذان، فإذا شهدوا ألا إله إلا الله ورفعوا الأذان بالصلاة، معنى ذلك أنهم انسلخوا من الشرك وتبرؤوا منه، وأقاموا الصلاة، وقد قال جَلَّ وَعَلَا ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١١]، ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، ذلك لأن العرب كانوا يعلمون معنى التوحيد، فإذا دخلوا في الإسلام وشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، دل ذلك أنهم يعملون بمقتضى ذلك، أما في هذه الأزمنة المتأخرة فإن كثيرين من المسلمين، يقولون لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا يعلمون معناها، ولا يعملون بمقتضاها، بل تجد الشرك فاشياً فيهم، ولهذا نقول إن هذا القيد أو هذا التعريف وهو أن دار الإسلام هي الدار التي يظهر فيها الأذان بالصلوات، أنه في هذه الأزمنة المتأخرة أنه لا يصح أن يكون قيداً، والدليل على أصله وهو أن العرب كانوا ينسلخون من الشرك، ويتبرؤون منه ومن أهله، ويقبلون على التوحيد، ويعملون بمقتضى الشهادتين، بخلاف أهل هذه الأزمان المتأخرة.

والأظهر هو الأول في تسمية الدار، ولا يلزم من كون دارٍ ما دار شرك أو دار إسلام، أن يكون هذا حكم على الأفراد الذين في داخل الدار، بل قلنا إن الحكم عليها بأنها دار كفر، أو دار شرك هذا في الأغلب بظهور الشرك والكفر، ومن فيها يعامل كل بحسبه، خاصة في هذا الزمن، لأن ظهور الكفر، وظهور الشرك بكثير من الديار، ليس من واقع اختيار أهل تلك الديار، بل هو ربما كان عن طريق تسلط، إما الطرق الصوفية مثلاً، أو عن تسلط الحكومات، أو نحو ذلك، كما هو مشاهد معروف، لهذا نقول إن اسم الدار على نحو ما بينت وأما أهلها يختلف الحال.(١)

وبلد الشرك هو الذي تقام فيها شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة، والأعياد، والجمعة على وجه عام شامل، وإنما قلنا على وجه عام شامل ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام، أما بلاد الإسلام فهي البلاد التي تقام فيها هذه الشعائر على وجه عام شامل.(٢)

السفر إلى بلاد الكفر

نذكر هنا حكم السفر إلى بلاد الكفر.

فنقول: السفر إلى بلاد الكفار لا يجوز إلا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجاً إلى ذلك.

فإن لم تتم هذه الشروط فإنه لا يجوز السفر إلى بلاد الكفار لما في ذلك من الفتنة أو خوف وفيه إضاعة المال لأن الإنسان ينفق أموالاً كثيرة في هذه الأسفار.

أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك لعلاج أو تلقي علم لا يوجد في بلده وكان عنده علم ودين على ما وصفنا فهذا لا بأس به.

وأما السفر للسياحة في بلاد الكفار فهذا ليس بحاجة وبإمكانه أن يذهب إلى بلاد إسلامية يحافظ أهلها على شعائر الإسلام، وبلادنا الآن والحمد لله أصبحت بلاداً سياحية في بعض المناطق فبإمكانه أن يذهب إليها ويقضي زمن إجازته فيها.

وأما الإقامة في بلاد الكفار فإن خطرها عظيم على دين الإسلام، وأخلاقه، وسلوكه، وآدابه وقد شاهدنا وغيرنا انحراف كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا فساقاً، وبعضهم رجع مرتداً عن دينه وكافراً به وبسائر الأديان -والعياذ بالله حتى صاروا إلى الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك.[١]

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسين:

الشرط الأول: أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان، وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمراً لعداوة الكافرين وبغضهم مبتعداً

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

عن موالاتهم، ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم، مما ينافي الإيمان بالله قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية: وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٢] وثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن من أحب قوماً فهو منهم، وأن المرء مع من أحب»[١] ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطراً على المسلم لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب قوماً فهو منهم».

الشرط الثاني: أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ، قال في المغني ص ٤٥٧ جـ٨ في الكلام على أقسام الناس في الهجرة: أحدها من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه من إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: علامة حب الله عَزَّ وَجَلَّ ومسلم، كتاب الصلة، باب: المرء مع من أحب.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء: ٩٧].

وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. أهـ.

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفار إلى أقسام:

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه فهذا نوع من الجهاد فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة وألا يوجد من يمنع منها أو من الاستجابة عليها، لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين وهي طريقة المرسلين وقد أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بلغوا عني ولو آية»(١).

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليحذر الناس من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه، لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. لكن لا بد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه والتحذير منه فلا فائدة من إقامة، وإن تحقق مراده مع مفسدة أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسول الإسلام وأئمة الإسلام وجب

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل.

الكفر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عيناً للمسلمين؛ ليعرف ما يدبروه للمسلمين من المكايد فيحذرهم المسلمون، كما أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق ليعرف خبرهم.(١)

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دول الكفر كموظفي السفارات فحكمها حكم ما أقام من أجله. فالملحق الثقافي مثلاً يقيم ليرعى شؤون الطلبة ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندرئ بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ على جواز دخول بلاد الكفر للتجارة وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

القسم الخامس: أن يقيم للدراسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة لكنها أخطر منها وأشد فتكاً بدين المقيم وأخلاقه، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه، فيحصل من ذلك تعظيمهم والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم فيقلدهم إلا من شاء الله عصمته وهم قليل، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه فيؤدي ذلك إلى التودد إليه ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال. والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم ويتولاهم ويكتسب منهم، ومن أجل خطر هذا

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب.

القسـم وجب التحفظ فيه أكثر مما قبله فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسيين شروط:

الشـرط الأول: أن يكون الطالب على مسـتوى كبير مـن النضوج العقلي الـذي يميز بـه بين النافع والضـار وينظر به إلى المسـتقبل البعيـد فأما بعث الأحداث «صغار السن» وذوي العقول الصغيرة فهو خطر عظيم على دينهم، وخلقهم، وسـلوكهم، ثم هو خطر على أمتهم التي سـيرجعون إليها وينفثون فيها من السـموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شـهد ويشـهد به الواقع، فـإن كثيراً من أولئك المبعوثين رجعـوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا منحرفين في دياناتهم، وأخلاقه، وسـلوكهم، وحصل عليهـم وعلى مجتمعهم من الضرر في هـذه الأمـور ما هو معلوم مشـاهد، وما مثل بعث هـؤلاء إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضارية.

الشـرط الثـاني: أن يكـون عند الطالب من علم الشـريعة مـا يتمكن به من التمييـز بين الحق والباطل، ومقارعة الباطـل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه مـن الباطل فيظنه حقـًا أو يلتبس عليه أو يعجز عن دفعه فيبقى حيران أو يتبع الباطـل. وفي الدعاء المأثـور «اللهم أرني الحق حقـًا وارزقنـي اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه، ولا تجعله ملتبسـًا علي فأضل».

الشـرط الثالث: أن يكون عند الطالب دين يحميـه ويتحصن به من الكفر والفسـوق، فضعيف الدين لا يسـلم مع الإقامة هناك إلا أن يشـاء الله وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم، فأسـباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة متنوعة فإذا صادفت محلاً ضعيف المقاومة عملت عملها.

الشرط الرابع: أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من اجله بأن يكون في

تعلمه مصلحة للمسلمين ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم، فإن كان من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة.

القسم السادس: أن يقيم للسكن وهذا أخطر مما قبله وأعظم لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة، وتكثير لسواد الكفار، ويتربى أهله.

بين أهل الكفر فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم، وربما قلدوهم في العقيدة والعبد ولذلك جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»[(١)]. وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند لكن له وجهة من النظر فإن المساكنة تدعو إلى المشاكلة، وعن قيس بن حازم عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يا رسول الله ولم؟ قال: لا تراءى نارهما»[(٢)]. رواه أبو داود والترمذي وأكثر الرواة رووه مرسلاً عن قيس بن حازم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الترمذي سمعت محمداً -يعني البخاري- يقول الصحيح حديث قيس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مرسل. أ هـ. وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر ويكون الحكم فيها لغير الله

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: الإقامة بأرض المشركين.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: النهي عن قتل من أعتصم بالسجود. والترمذي كتاب السير، باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين.

ورسوله وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه ويرضى به، بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم.

هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر نسأل الله أن يكون موافقًا للحق والصواب.(١)



فَلَمَّا استَقَرَّ فِي المَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإسلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّومِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِن شَرَائِعِ الإِسلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشرَ سِنِينَ.

الاستقرار في المدينة ونزول باقي الشرائع وإكمال الدين

لما هاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلى المدينة واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد لله، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع الله بقية شرائع الدين، ففرض على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وفرض عليه الحج في السنة التاسعة من الهجرة على الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلى بيت الله الحرام.(٢)

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

مِثلِ: الزَّكَاةِ

أُريـد بالزكاة التي فرضت في السـنة الثانية من الهجرة هذه الزكاة على هذا النحـو المقدر؛ زكاة بشـروطها، وبأنصبائها، وقدر المخـرَج، وأوعية الزكاة ونحو ذلك، هذا فُرض في السنة الثانية من الهجرة، أما جنس الزكاة فقد فرض في مكـة، جنس الزكاة غير مقدر مثل الصلاة التي كانت في مكة، وهذا جاء في آخر سـورة المزمل، قـال جَلَّوَعَلَا في آخرها وهي مكية ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:٢٠]، فأمـر بإيتـاء الـزكاة قـال ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والصـواب مـن أقوال أهل العلم أن الـزكاة أوجبت في مكة، ومنهـا بذل الماعون الـذي جاء النهي عنـه، في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعـون:٧]، ومنها الصدقة، منها إعطـاء الفقير، ونحو ذلك، وهذه الزكاة غير محدودة، لا بقدر، ولا بصفة، وإنما يصدق عليها اسم الزكاة، أما الزكاة على هذا النحو المقدر الذي استقر فهذا فرض في السنة الثانية من الهجرة.

وَالصَّوم

الصـوم كذلـك، هاجـر النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فوجـد اليهود يصومـون يوم عاشوراء، فقال لهم «لما تصومون هذا اليوم؟» قالوا: يوم نجى الله فيه موسى، فصامه موسـى شـكراً، فنحن نصومه كما صام موسى. فقال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «نحن أحق بموسـى منكم» فصامه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وأَمَـر بصيامه، يعني كان صـوم يوم عاشـوراء فرضـاً، ثم لمـا فرض صوم رمضان في السـنة الثانية من الهجـرة، وهـي السـنة التي كان فيهـا وقعة بدر، صـار صوم عاشـوراء على الصحيـح مسـتحباً، والفرض هـو صيام شـهر رمضان، كمـا قال جَلَّوَعَلَا في

سورة البقرة ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة:١٨٥] وبها كان صيام رمضان واجبًا.

(والحج)

من أهل العلم من يقول أنه فرض في السنة السادسة، وهي السنة التي نزل فيها قول الله تعالى ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة:١٩٦]، ومنهم من قال أنه لم يفرض إلا في السنة التاسعة، وهذا هو الصحيح، فإن الحج فرض متأخراً، وذلك بعد فتح مكة، فأُمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالحج في سورة آل عمران، وهي إنما نزلت في سنة الوفود أو في عام الوفود، وهي السنة التاسعة، والنبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ترك الحج تلك السنة، وأمر أبا بكر أن يحج بالناس، وبعث معه علياً رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أجمعين، ثم حج عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعد ذلك في السنة العاشرة حجة يتيمة لم يحج بعدها.

(والأذان) كذلك فُرض الأذان في أول العهد المدني.

(والجهاد) كان هناك تدرج في فرضه.

(والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنينَ)

يعني مكث في المدينة عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عشر سنين يدعو إلى التوحيد وإلى أمور الإسلام الظاهرة.

يعني أن شرائع الإسلام الظاهرة إنما فرضت في المدينة، وأما في مكة فمكث عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك عشر سنين، ثم فرضت الصلاة في السنة العاشرة، وأما بقية الشعائر؛ شعائر الإسلام الظاهرة، فإنما

كانت في المدينة، حتى تحريم المحرمات من الزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإنما كان في المدينة، وهذا يدلك على عظم شأن التوحيد في هذا الدين، وأن هذه الرسالة رسالة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث بلغها للناس، مكث يدعو إلى التوحيد في عشر سنين، والتوحيد من حيث هو، أمر واحد، دعوة إلى التوحيد ونهي عن الشرك، أمر واحد، وتلك الأوامر التي فرضت فيما بعد، والمناهي التي نهي عنها فيما بعد، كثيرة جداً، عددها كثير مئات الأشياء من أمور الإسلام الظاهرة، وأمور المعاملات، والصلاة الاجتماعية، والنكاح، وتلك الأحوال، تلك بالمئات، فكان العهد المدني وهو عشر سنين متسعاً لتلك الأمور جميعاً، وأما التوحيد فمع أنه أمر واحد، وهو الدعوة إلى توحيد الله والنهي والنذارة عن الشرك، فقد مكث فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عشر سنين، **وهذا من أعظم الأدلة على أن شأن التوحيد في هذا الدين هو أعظم شيء**، وأن غيره من أمور الإسلام الظاهرة، أنه يليه بكثير في الاهتمام به في هذا الشرع، فالدعوة إنما تكون في توحيد الله؛ لأن القلب إذا وحد الله جَلَّ وَعَلَا أحب الله وأحب رسوله، أطاع الله بعد ذلك وأطاع رسوله فرضاً، ترك الشرك، أبغض الشرك، ويُبغض كل ما لا يحبه الله جَلَّ وَعَلَا ولا يرضاه، وهذا من مقتضيات التوحيد.[١]

والحاصل من هذا أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولى في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة والصيام أو الزكاة أو الحج؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقي عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة ولا بحج ولا بصيام، وإنما فرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعو الناس أول ما يدعون إلى التوحيد كما في حديث معاذ: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات... » إلخ الحديث[1].

فدل على أنه لا يؤمر بالصلاة ولا الزكاة ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد فإن دعوته فاشلة ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

الرسل كلهم أول ما يبدؤون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهم معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم مَن يعكر على هذا المنهج فيغير هذا المنهج ويختار منهجًا لنفسه من عنده ومن عند غيره من الجهلة، لا بد من الرجوع إلى منهج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه فائدة معرفة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوتهم؟ حتى تسير عليه لأنه هو القدوة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.[2]



---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلِم (١٩) مِن حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ وَدِينُهُ بَاقٍ وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنهُ، وَالخَيرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيهِ التَّوحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنهُ الشِّرك، وَجَمِيعُ مَا يَكرَهُ اللهُ وَيَأبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَينِ الجِنِّ وَالإِنسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨]. **وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. **وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوتِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَولُهُ تَعالَى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

إكمال الدين

الشريعة نزلت بالتدريج حتى تكاملت ولله الحمد قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه باق إلى أن تقوم الساعة.

فلم يتوف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد أن أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

نزلت هذه الآية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدة يسيرة وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كمال هذا الدين وشموله لمصالح العباد وحل قضاياهم ومشاكلهم إلى أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلى شريعة أخرى، أو إلى كتاب ينزل أو إلى رسول يبعث بعد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما من قضية تجد وما نازلة تنزل إلى يوم القيامة إلا وفي شريعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلها والحكم فيها، ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد فإن هذه الشريعة كاملة وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم وعدم إدراك ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو من ناحية الهوى بأن يكون هناك هوى يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح وشامل وكامل قد أغنى الله به الأمة الإسلامية إلى أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الرد إلى الله هو الرد إلى كتاب الله، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سنته، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠] فهذه الآية فيها رد على الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور أو النقص من الملاحدة والزنادقة أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلى الشريعة ولم يعلموا أن القصور من عندهم هم، ففيها رد على من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد ومصالح العباد إلى أن تقوم الساعة، أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم هذا الحكم الشرعي قالوا: هذا زمان الرسول والزمان

الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا وهذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ وتكذيب لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أكمل الله الدين لهذه الأمة إلى أن تقوم الساعة لكل زمان ولكل مكان ولكل جيل من الناس وفيها رد أيضًا على المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبوها إلى الدين وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما ابتدعوها باستحسانهم أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١) وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(٢).

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله فإنه متهم لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد على هذه الطوائف، الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون البدع المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله وينسبونها إلى الدين ففي هذه الآية رد عليهم لأن الدين أكمله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو أصدق القائلين وقال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذا آخر ما نزل على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو شهادة من رب العاملين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالى خطاب لهذه الأمة من أولها إلى آخرها ليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلى أن تقوم الساعة.(١)

وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أخذ أي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين بعد هجرته فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين اختاره لجواره واللحاق بالرفيق الأعلى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فابتدأ به المرض صلوات الله وسلامه عليه في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، فخرج إلى الناس عاصبًا رأسه فصعد المنبر فتشهد وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قتلوا في أحد ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله» ففهمها أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فبكى وقال: بأبي وأمي نفديك بآبائنا وأمهاتنا، وأبنائنا، وأنفسنا، وأموالنا فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على رسلك يا أبا بكر» ثم قال: «إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن خلة الإسلام ومودته»(٢). وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة أختاره الله لجواره

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المساجد، باب: الخوخة والممر في المسجد.

فلما نزل به جعل يدخل يده في ماء عنده ويمسح وجهه ويقوله: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم شَخَّصَ بصره نحو السماء وقال: «اللهم في الرفيق الأعلى»[(١)].

فتوفي ذلك اليوم فاضطرب الناس لذلك وحق لهم أن يضطربوا، حتى جاء أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] فاشتد بكاء الناس وعرفوا أنه قد مات فغسل صلوات الله وسلامه عليه في ثيابه تكريماً له، ثم كفن بثلاث أثواب أي لفائف بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة، وصلى الناس عليه إرسالاً بدون إمام، ثم دفن ليلة الأربعاء بعد أن تمت مبايعة الخليفة من بعده فعليه من ربه افضل الصلاة وأتم التسلم.[(٢)]

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في خلقه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] والأنبياء والرسل داخلون في هذا العموم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد توفي وانتقل من هذه الدنيا إلى ربه عَزَّوَجَلَّ، وهذا ثابت بالنص والإجماع والقياس، أما النص ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ هذا إخبار من الله لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه سوف يموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: تموت فيقال للذي يموت، هذا ميِّت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: ميت بالتخفيف لقوله

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: مرض النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ووفاته.
(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الميت هو الذي فارقت روحه جسده أما، المَيِّت فهو الذي سيموت في المستقبل.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ما مات، وينفون الموت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا كلام ساقط كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي بين أصحابه وغسل وكفن وصلي عليه ودفن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هل هذه الأعمال تعمل مع إنسان حي؟! عومل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاملة الأموات غسل وكفن وصلي عليه ثم دفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره.

هذه سنة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سنته سنة الرسل الذين من قبله وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستغيثون به من دون الله ويقولون: هو حي.(١)

الذين يدّعون أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حي لم يمت، وأنه يحضر، روحه تحضر، وهو يحضر، وينتقل، ونحو ذلك، هؤلاء مكذبون للقرآن، كفرة بالله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال لنبيه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ إنهم سيموتون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إنكم جميعاً أنت وهم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ وقال جَلَّ وَعَلَا في الآية الأخرى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ومن المعلوم ما حصل من قيام أبي بكر في الناس، بعد موت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

خطيبًا، قائلاً فيما يروى: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾. قال عمر: كأني لم أسمع الآية إلا حين تلاها أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لكن هو بعد موته؛ في حياة برزخية، هي أكمل أنواع الحياة البرزخية، فهو حي، حياته أكمل من حياة الشهداء، وهو قد مات، توفاه الله جَلَّ وَعَلَا، انقطع عن هذه الدنيا، حياته أكمل من حياة الشهداء، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد توفي وانقضى أجله، وهو بالرفيق الأعلى بالجنة، وعند الله جَلَّ وَعَلَا بأعلى المقامات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.(١)

توفي صلاة الله وسلام عليه ودينه باقٍ، وهذا دينه، لا خير إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، والخير الذي دلهَّا عليه: التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرها منه: الشرك، وجميع ما يكرهُ اللهُ ويأباه

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ توفي ودفن في حجرة عائشة، ودينه باق إلى قيام الساعة، لا يقبل الله جَلَّ وَعَلَا من أحد دينًا إلا هذا الدين،

(**وهذا دينه**) الضمير يرجع إلى أي شيء؟ إلى ما سبق إيضاحه في هذه الرسالة، هذا الذي وصف لك فيما قبل هو دينه؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبد نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (**وهذا دينه**) عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، (**لا خير**) هذا من صفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه (**لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه والخير الذي دلها عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه والشر الذي حذرها منه الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه**) و عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

بالمؤمنين رؤوف رحيم، ومن رأفته بالمؤمنين ورحمته بهم أنه اجتهد أن يؤدي الأمانة كاملة، لا خير يقرب إلى الله، ويكون محبوباً إلى الله إلا بيَّنَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذه الأمة، وأعلى ذلك التوحيد، ويتبع ذلك جميع الأمور من الفرائض والواجبات والمستحبات، ومن المناهي التي اجتنابها فرض ونحو ذلك، المسنونات، حتى قال رجل لسلمان: لقد علَّمكم رسولُكم كل شيء حتى الخراءة، قال: نعم. يعني حتى هيئة الجلوس أثناء قضاء الحاجة، فإنه علمنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كيف يكون ذلك؛ إقبال واستدبار، وما ينبغي أن يكون إذا ذهب المرء أين يذهب، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره، كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا ذهب المذهب أبعد، يعني لقضاء حاجته ونحو ذلك، علمنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كل شيء، من أعلى أمر وهو التوحيد؛ بيّنه بياناً شافياً مفصلاً، إلى أقل الأمور، كلها بينها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالحجة قائمة على أمته، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سيكون شهيداً على هذه الأمة، وأنه بلَّغهم الرسالة، ودلهم على كل خير، يحبه الله ويرضاه، كذلك لا شر إلا حذرها منه، لا شر كان أو لا شر سيكون في هذه الأمة إلا حذرها منه، فحذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمته من الشرور التي كانت في وقته؛ من الشرك بالله بأنواعه، ومن أنواع المعاصي وأنواع الآثام، وأنواع المعاملات الباطلة، وكذلك ما سيحدث في المستقبل، فإن الله جَلَّ وَعَلَا أطلع نبيه على ما سيكون، فحذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمته من ذلك، مثلاً كما جاء في الحديث «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك» أو كما جاء في غير هذه الرواية، لها ألفاظ كثيرة، فحذرها من تقليد فارس والروم، حذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمته من الفتن التي ستظهر بأنواعها، ومنها فتنة الخوارج الذين خرجوا على

الصحابة وخرجوا على ولاة أمر المسلمين، حذّر من البدع بأنواعها، كما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وكما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «وإن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» ونحو ذلك من أنواع ما أخبر به النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمته محذراً، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لهذه الأمة رحيم رؤوف، لا خير إلا دلها عليه وأرشد، ولا شر إلا حذر منه ونهى، سواء في ذلك ما حدث في وقته، أو ما سيحدث بعد موته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقليل، أو ما سيكون إلى قيام الساعة، حتى إنه حذر أمته وشدد، حذرها وشدد التحذير في أمر المسيح الدجال، حتى إنه قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «إن خرج فيكم وأنا حي فأنا حجيجه دونكم وإن خرج عليكم بعدي» يعني بعد وفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «فامرؤ حجيج نفسه» وهذا يدل على عظم ما دل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه الأمة عليه.(١)

وافترض طاعته فرض على جميع الثقلين الجن والإنس وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض على الجن والإنس، لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعث إلى الناس جميعاً، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف:٢٩]، لأنهم اتبعوا هذا الرسول، بعد أن سمعوا هذا القرآن(٢)

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

معنى الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الصلاة من الله جَلَّ وَعَلَا على نبيه، أو على المؤمنين هي ثناؤه عليهم في الملأ الأعلى، هذا هو الصحيح أن الصلاة من الله جَلَّ وَعَلَا هي الثناء؛ لأن حقيقة الصلاة في اللغة الدعاء والثناء، وأما من قال أن الصلاة بمعنى الرحمة هذا ليس بصحيح، قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب:٥٦]، الملائكة لا يمكنهم أن يرحموه، لكن يمكن أن يثنوا عليه، أو أن يدعوا له، والله جَلَّ وَعَلَا في حقه الثناء، فمعنى صلاة الله جَلَّ وَعَلَا على نبيه هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، لهذا جاء في الحديث الصحيح «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً» يعني من أثنى عليّ، من قال: اللهم صلِّ على محمد. سأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثني على نبيه في الملأ الأعلى، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يجزيه من جنس دعائه، وهو أنه يثني عليه بذلك عشر مرات في ملئه الأعلى، أسأل الله الكريم من فضله، وصلى الله على نبينا محمد، اللهم صلي وسلم على نبينا محمد.[1]



(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]. **وقولُهُ تعالَى:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٧-١٨]. **وَبَعدَ البَعثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجزِيُّونَ بِأَعمَالِهِم، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعَالَى:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم: ٣١].

وَمَن كَذَّبَ بِالبَعثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

الإيمان بالبعث

انتقل إلى أصل آخر وهو الإيمان بالبعث، أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا وكل يعلم حتى الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لا بد من الموت، لا أحد ينكر الموت لأنه شيء محسوس، لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تعاد وتبنى كما كانت؛ لأن القادر على إنشائها أول مرة قادر على إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح ثم تتحرك وتسير من القبور إلى المحشر لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٧-٨] لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان بالبعث، هو أحد الأركان الستة للإيمان، التي قال

فيها النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشـره»(١) فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ ولو شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولو صلى وصـام وحج وزكى وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شـك فيه فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]. يعني الأرض حينمـا خلـق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبـا البشـرية ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يعنـي بعـد الموت في القبور ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾ هذا هو البعث. فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة نوح: ١٧-١٨].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حينمـا خلـق منهـا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: بالمـوت والقبـور ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ هـذا هـو البعـث، يخرجون من القبور ويسـيرون إلى المحشر، قال تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥] أي تحيـون علـى ظهرهـا، وفيها تموتـون ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هـذه أدلة من القرآن على البعث، أيضـًا دليل عقلي من القرآن نفسـه وهو

(١) سبق تخريجه

أن الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] الذي قدر على إيجاد الناس من عدم قادر على إعادتهم بعد الموت من باب أولى، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة على البعث ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترى الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزل عليه المطر، ثم ينبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام وتتكامل، ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة، ثم تحيا بما نبت فيها، الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩] فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث أنه لو لم يكن هناك بعث للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون منهم المطيع المتقي المؤمن بالله ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق والجبار والمتكبر والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر وهذا الزنديق وهذا الملحد وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق بالله أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟ هذا لا يليق بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١] هذا لا يكون إلا في يوم القيامة وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠] ورد على الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٠] الذي قدر على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر على هذا ألا يقدر على إحياء الأموات.

ومن أدلة البعث الاستدلال بخلق السماوات والأرض فالذي خلق هذه المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر على أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر على الشيء العظيم يقدر على ما دونه من باب أولى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبعث من في القبور، وأنه يجازي

كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شراً فشر، فليكفر الكافر وليفسق الفاسق والزنديق والملحد فإن أمامه البعث والنشور والجزاء والحساب، أما المؤمن المتقي الذي يعبد الله ويتقرب إلى الله فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه الله فيه عمله ويضاعف له أجره ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.(١)

في وقت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كان يكثر في البادية إنكار البعث بعد الموت، قد جاء في رسائل للشيخ من العلماء، رسائل كثيرة فيها بيان أن البعث بعد الموت حق، وأن من كفر بالبعث وأنكر البعث فهو كافر بالله العظيم، ليس بمؤمن ولا مسلم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، نص هنا على هذا لأجل الاهتمام بالمسألة ووضعها في هذا الموضع المناسب، لأنه ذكر وفاة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذكر قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ فناسب أن يقرر البعث بعد الموت لجميع الناس.(٢)

ومن كذب بالبعث كفر

كافر لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ [المطففين: ١٠-١٧]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان: ١١]، وقال

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣].(١)

لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، ولأنه مكذب لله ولرسله ولكتبه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الزعم هو الكذب، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ فدلت الآية على أن إنكار البعث كفر، يقولون ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يجادلون بالبعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ١١-١٢] وقالوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]. ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٦] إلى غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة ومن المشركين في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن كذب بالبعث فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر الله جَلَّ وَعَلَا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقسم به على البعث، قال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ هذا قسم، ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ هذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه فيها أن يقسم على البعث.

الآية الأولى: في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣].

الثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سبأ: ٣-٤] **فالله أمر نبيه أن** يقسم به على البعث وعلى قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا من سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد على أعمالهم، وقوله تعالى: لتنبئن، أي: لتخبرن بأعمالكم وتجازون بها.[(١)]

مثل أولئك الأعراب في البادية، الذين كانوا في وقت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويكثر إلى الآن في بوادي بعض البلاد العربية أنهم يكذبون بالبعث، يعتقدون أن التزام الدين، أنه إنما يحصل له الإنسان السعادة في دنياه، وأن روحه تكون في نعيم أو في جحيم، لكن بعث بعد الموت، يكذبون بذلك قال هنا (ومن كذب بالبعث كفر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٠٧]) وجه الاستدلال أنه قال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فوصف الذين يزعمون أنهم لن يبعثوا بأنهم من الذين كفروا.[(٢)]

الرد على منكري البعث

وأما إقناع هؤلاء المنكرين فبما يأتي:

أولاً: أن أمر البعث تواتر به النقل عن الأنبياء والمرسلين في الكتب الإلهية، والشرائع السماوية، وتلقته أممهم بالقبول، فيكيف تنكرونه وأنتم

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

تصدقون بما ينقل إليكم عن فيلسوف أو صاحب مبدأ أو فكرة، وإن لم يبلغ ما بلغه الخبر عن البعث قد شهد العقل بإمكانه، وذلك عن وجوه:

١. كل أحد لا ينكر أن يكون مخلوقًا بعد العدم، وأنه حادث بعد أن لم يكن، فالذي خلقه وأحدثه بعد أن لم يكن قادر على إعادته بالأولى، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢. كل أحد لا ينكر عظمة خلق السماوات والارض لكبرهما وبديع صنعتهما، فالذي خلقهما قادر على خلق الناس وإعادتهم بالأولى؛ قال الله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡىَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧىَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨١-٨٢].

٣. كل ذي بصر يشاهد الأرض مجدة ميتة النبات، فإذا نزل المطر عليها اخصبت وحيي نباتها بعد الموت، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم، قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

ثالثًا: أن أمر البعث قد شهد الحس والواقع بإمكانه فيما أخبرنا الله تعالى

به من وقائع أحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى من ذلك في سورة البقرة خمس حوادث منها، قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٩].

رابعًا: أن الحكمة تقتضي البعث بعد الموت لتجازى كل نفس بما كسبت، ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا لا قيمة له، ولا حكمة منه، ولم يكن بين الإنسان وبين البهائم فرق في هذه الحياة. قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ [طه: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ۝٣٩ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٣٨-٤٠]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

فإذا بينت هذه البراهين لمنكري البعث وأصروا على إنكارهم، فهم مكابرون معاندون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.[1]

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

واليهود والنصارى يؤمنون بالبعث، لكن ليس على الوجه الذي دلت عليه نصوص القرآن والسنة، وإذا آمنوا به وآمنوا بالجنة والنار، فلهم عقائد في البعث وفي الجنة والنار باطلة، ولو آمنوا به إيمانًا صحيحاً لكانوا كفاراً بتكذيبهم رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالكفر يكون باعتقاد الشخص عقيدة واحدة من عقائد الكفر أو اثنين أو ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فالمشركون كفروا بأشياء كثيرة: بالشرك وبتكذيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبجحد اليوم الآخر، فعندهم أنواع من الكفر.[1]

الحساب والميزان

وبعد البعث محاسبون ومجزون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [سورة النجم:٣١].

الناس بعد البعث يجازون ويحاسبون على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال جلا وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ وامتنانًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو جَلَّ وَعَلَا قد تفضل بالعمل الصالح، ثم تفضل مرة أخرى بالجزاء عليه هذا الجزاء الواسع الكثير، أما العمل السيء فإن السيئة لا

(١) من شرح الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

يجازى الإنسان بأكثر منها قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهذا من كمال فضل الله وإحسانه.[١]

من أعمال يوم القيامة، الحساب والميزان، الحساب: بمعنى مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[٢].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا أيضًا من السعداء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ٩﴾ [الانشقاق: ٧-٩].

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة وهذا تحت الخطر لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نوقش الحساب عذب»[٣].

أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون أو لا يحاسبون، فمن العلماء من يقول: إن الكفار لا يحاسبون لأنهم ليس لهم حسنات وإنما يذهب بهم إلى النار لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير، أي بأعمالهم وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلى النار.

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢١٨) مِن حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) مِن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣] فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرى الأهوال والأخطار جسيمة، ومن خطر إلى خطر في مواقف القيامة والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.(١)



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَأَرسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَأَوَّلُهُم نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وَآخِرُهُم مُحَمَّدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُم نُوحٌ قَولُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيهَا رَسُولًا مِن نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَأمُرُهُم بِعِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ، وَيَنهَاهُم عَن عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. **وَافتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.**

الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان، فلا بد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم، فمن جحد رسولا واحدًا منهم فهو كافر بالجميع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] فلا بد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم،

من سمى الله منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيراً»(١).

فهم رسل كثيرون منهم من سمى الله في كتابه ومنهم من لم يسم، فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلى آخرهم.(٢)

مبشرين ومنذرين

الله أرسل جميع الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يبشرون من أطاعهم بالجنة وينذرون من خالفهم بالنار.

وإرسال الرسل له حكم عظيمة من أهمها بل هو أهمها أن تقوم الحجة على الناس حتى لا يكون لهم على الله حجة بعد إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ومنها أنه من تمام نعمة الله على عباده فإن العقل البشري مهما كان لا يمكنه أن يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالى من الحقوق الخاصة به، ولا يمكنه أن يطلع على ما لله تعالى من الصفات الكاملة، ولا يمكن أن يطلع على ماله من الأسماء الحسنى ولهذا أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وأعظم ما دعا إليه الرسل من أولهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى آخرهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٣٦/ ٦١٧-٦١٩ (٢٢٢٨٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].(١)

وأولهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**، وآخرهم محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والدليل على أن أولهم نوح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

هذا وحي خاص وحي رسالة، والمراد بالنبيين هنا المرسلين.(٢)

وثبت في الصحيح من حديث الشفاعة: «إن الناس يأتون إلى نوح فيقولون له أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»(٣) فلا رسول قبل نوح وبهذا نعلم خطأ المؤرخين الذين قالوا إن أدريس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبل نوح بل الذي يظهر أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل.(٤)

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا خطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ ذكر الله جملة من أسمائهم في هذه الآية كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلى آخر الآيات [الأنعام: ٨٤-٨٦].

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب: كلام اللعه مع الأنبياء، يوم القيامة، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة.
(٤) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

فأولهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ بعثه الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس على دين التوحيد منذ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى عشرة قرون وهم على التوحيد، فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه الفرصة وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين وانصبوها على مجالسكم؛ من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون على العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتى، ونصبوها على المجالس، فلم تعبد في أول الأمر لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر وقد مات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون الله، ومن ثم حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويردهم إلى التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: ٢٣] قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها على مجالسهم فآل بهم الأمر إلى أن عبدوها من دون الله.

فلما جاءهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونهاهم عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله، قالوا: لا تذرون آلهتكم، لا تطيعوا نوحا، واستمروا على كفرهم وطغيانهم وعنادهم. هذا أول شرك حدث في الأرض، وسببه الصور ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون»

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ بالله؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي».

فبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلى أن تقوم الساعة، ولكن شريعته باقية إلى أن تقوم الساعة، ودينه باق إلى أن تقوم الساعة كما سبق، فمن ادعى النبوة بعد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر بالله لأنه لا نبي بعده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

ومحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتم النبيين وخاتم المرسلين، كل دعوة لنبوة أو دعوة للرسالة بعده فهي ضلال، وهي كفر بالله جَلَّ وَعَلَا، فمن ادعى في وقت الصحابة وبعدهم إلى يومنا هذا لم يزل يظهر من يدعي النبوة، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتم المرسلين وخاتم النبيين وخاتمهم؛ خاتَمهم وخاتِمهم.(٢)

وقد ادعى النبوة بعده خلق كثير وفضحهم الله وأظهر كذبهم، ومن آخرهم فيما نعلم، القادياني، غلام أحمد القادياني الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعى أنه عيسى بن مريم، ثم ادعى النبوة، والآن

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

له أتباع يسمون بالقاديانية وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون ولله الحمد من بلاد المسلمين، ولهم نشاط، ولكن نشاطهم يبوء بالفشل، الحاصل أنه لا نبي بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ادعى النبوة فهو كذاب كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله». المتنبئون كثيرون؛ ولكن الله يفضح أمرهم ويكشف سترهم ويبين خزيهم للناس، وَمَن صَدَّقَهُم فهو كافر، لأنه مكذب لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولإجماع المسلمين على ختم النبوة بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

كل أمة من الناس يبعث الله إليها رسولاً ليقيم الحجة عليهم، لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥] فكل أمة من الأمم السابقة يبعث الله إليها رسولاً كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤] لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي إلى التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل ما عُبِدَ من دون الله طاغوت، كما يأتي في أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون الله وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

والأصنام والقبور والأضرحة هـذه هي الطواغيت فدلت الآية الكريمة على أن دعوة الرسل كلها تتركز على التوحيد من أولهم إلى آخرهم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

فدعـوة الرسـل كلهم إلى التوحيد، وإفـراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، والنهي عن الشـرك، هـذه هي دعوة الرسـل، ثم بعـد التوحيد تأتي الشـرائع مـن الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ الله منها ما يشـاء، ثم نسـخت كلها بشريعة الإسـلام الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهـي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، **هذا دين واحد دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم دينهم واحد.**

كـما قـال تعالـى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائـدة: ٤٨] وديـن التوحيد هو عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلى الناسـخ، فمن أصر وبقي على المنسـوخ وترك الناسـخ فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الدين المنسـوخ لا يكون دينًا بعد نسـخه، وإنما هو دين قبل أن ينسـخ، فإذا نسـخ فلا يكون دينًا ويكون الدين هو الناسخ، فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي على اليهودية أو النصرانية بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهى وقته.[1]



(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وَافتَرَضَ اللّٰهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: **مَعنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبدُ حَدَّهُ مِن مَعبُودٍ أَو مَتبُوعٍ أَو مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُم خَمسَةٌ: إِبلِيسُ لَعَنَهُ اللّٰهُ، وَمَن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَن دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفسِهِ، وَمَن ادَّعَى شَيئًا مِن عِلمِ الغَيبِ، وَمَن حَكَمَ بِغَيرِ مَا أَنزَلَ اللّٰهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]. **وَهَذَا هُوَ مَعنَى لا إله إِلا اللّٰهُ.**

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله

فالطاغوت ذكره الله جَلَّ وَعَلَا في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧] وفي سورة النساء، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]، وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، وفي سورة النحل يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ

أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].[1]

تعريف الطاغوت

الطاغوت: مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، يقال: طغى الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: ١١].[2] يعني لما زاد الماء عن الحد المعتاد حملناكم في الجارية يعني السفينة.[3]

طغى الرجل إذا تجاوز حدّه.[4]

أما معنى الطاغوت في الشرع فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونقله عنه الشيخ هاهنا.[5]

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع

ما تجاوز به العبد حده، العبد له حد لأنه عبد حدد الله له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود الله التي حددها لعباده وأمرهم ألا يتجاوزوها وألا يقربوها فهو طاغوت، فإذا عصى الله وتجاوز حدوده وطغى فإنه يسمى طاغوتًا لأنه طغى وتعدى حدود الله.

فقوله: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٣) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٤) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٥) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

هذا التعريف الشامل للطاغوت لأن الله جَلَّ وَعَلَا أمر بعبادته وحده لا شريك لـه، وأمر باتباع رسـوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر بطاعته وطاعة رسـوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوت.(١)

مـن تجـاوز حد العبـادة التي أوجبهـا الله واختـص بها ونفاها عـن غيره، فعبد مع الله غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع الله غيره، صرف العبادة لغير مستحقها.

وكذلك من عُبِدَ وهو راض.

الذي يعبده الناس بهذا ويفرح ويترأس بهذا الشـيء ويتزعم هذا طاغوت، مثل فرعون والنمرود ومشـايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلى هذا، أي إلى أن يعبدوهم كما سـيأتي، فهذا طاغوت في العبادة.(٢)

إذا عبـد أحد غيـر الله جَلَّ وَعَلَا فذلك الغير طاغوت هـذا العابد، متى يكون طاغوتـًا؟ إذا كان راضيـًا بهـذه العبـادة، أمـا إذا كان يكرهها فإنه لا يسـمى طاغوتـًا، لأنه يتـبرأ منه والمتبرأ من الشـيء ليس من أهلـه، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، فلمـا نزلـت هذه الآية فرح المشركون، قالوا سنكون وعيسى وعزير وعدّوا آلهة سنكون جميعـًا في جهنم فنعم الصحبة، أنزل الله جَلَّ وَعَلَا بعده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

﴿خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣]، فدل على أن الذي لا يرضى بعبادته فإنه ليس بمذموم، لهذا عُبدت الأنبياء والرسل، وعُبد الصالحون، وكلهم يتبرؤون، عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إله بعد رفعه، وقال له ربه جَلَّ وَعَلَا ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]، ﴿تَوَفَّيْتَنِى﴾ يعني قبضتني؛ قبضت بدني ورفعتني عنهم، واستوفيت مدتي على الأرض؛ المدة الأولى، كنت أنت الرقيب عليهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨] إلى آخر الآيات.[١]

قوله: أو متبوع: الله جَلَّ وَعَلَا أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمن اتبع غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا لأنه اتبع غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أمر بإتباعه، فالاتباع خاص بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فالمتبع هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

نحن نأخذ مما أخذ منه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونتلقى عن الله مباشرة، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلقى عن الله بالواسطة، بواسطة جبريل، ونحن نتلقى عن الله مباشرة ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون بالله ويتلقون من الله مباشرة.

بلغ بهم الحد إلى هذا الطغيان والعياذ بالله، هذه طريقتهم، لا شك أن هؤلاء هم رؤوس الطواغيت والعياذ بالله؛ لأنه لا طريق إلى الله جَلَّ وَعَلَا إلا باتباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلى اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من الله مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم والعياذ بالله.

قوله: أو مطاع: الطاعة إنما هي لله ولرسوله بما حلل وحرم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، وليس لأحد أن يشارك الله في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم الله على من حلل وحرم أو طاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ

عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١] لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال لأن الله هو الذي ذبحها، فهي أولى بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: لا تأكلوا إلا ما ذكي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا الميتة حلال هي أولى بالحل من المذكاة لأن المذكاة ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فالله هو الذي ذبحها.

ولهذا رد على المشركين وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله سبحانه عَزَّوَجَلَّ. وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها الله والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم ولا تستحلون ما ذبحه الله؟ هذا مجادلة بالباطل، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق لله جَلَّ وَعَلَا.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه أو يطيع من حلل أو حرم من عنده نفسه، ومن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون الله هذا معنى قوله: أو مطاع: أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله جَلَّ وَعَلَا، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله ما حلل وحرم.[1]

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

أنواع الطواغيت

والطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة

الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف: كل معبود أو متبوع أو مطاع كثيرون؛ ولكن رؤوسهم خمسة يعني أكابرهم خمسة.

الأول: إبليس لعنه الله، أي: طرده الله وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع من السجود لآدم وعصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتكبر وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [ص: ٧٦] فعصى أمر الله وتكبر فلعنه الله وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أبلس من الرحمة يعني يأس من الرحمة، فالمُبلِس هو اليائس من الشيء، فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير الله، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي يأمر بطاعة غير الله بالتحليل والتحريم، فإبليس هو مصدر الشر وهو رأس الطواغيت.

الثاني: من عُبِدَ وهو راض، أي: عبد وهو راض بعبادة الناس له فهو طاغوت، أما من عبد وهو غير راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبد من دون الله ولكنه غير راض بذلك، وأمه وعزير والأولياء والصالحون من عباد الله لا يرضون بهذا، بل كانوا ينكرون هذا ويحاربون من فعله، فمن عبد وهو غير راض بذلك فإنه لا يسمى طاغوتًا.[1]

والثالث: من دعا الناس إلى عبادة نفسه: هذا أعظم، الأول يُعبد وهو ساكت لم يدعُ إلى عبادة نفسه، يُطاع وتكون طاعته دينًا، في غير طاعة الله جَلَّ وَعَلَا

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وطاعة رسوله، ويرضى بذلك، هذا طاغوت، الأعظم منه أن يدعو، ذاك ساكت الأول يكون فُعل به ذاك وهو راض، الأعظم أن يدعو إلى نفسه.(١)

مثل رؤوس المشركين الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم مثل فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤].

ومثل النمرود ومثل غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلى عبادتهم حتى إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا إلى قبري، أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلى قبري ولا يحول بينكم وبيني حفنة من التراب، يوصون الناس أن يأتوا إلى قبورهم ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا الناس إلى عبادة نفسه حيًا وميتًا فهو من رؤوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلى عبادة غيره من الطواغيت وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس ويسمونه بغير اسمه ويقولون هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت لأنهم يدعون إلى الشرك، فهم يدعون إلى عبادة غير الله ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عبد من دون الله ورضي بذلك أو دعا الناس إلى عبادة نفسه أو دعا الناس إلى عبادة غير الله فإنه من الطواغيت، بل هو من رؤوس الطواغيت نسأل الله العافية.

الرابع: من ادعى شيئًا من علم الغيب: وهذا يدخل فيه السحرة والمنجمون والكهان والرمالون وكل من يدعي أنه يعلم الغيب ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة أو يحصل لك شيء من التعب،

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

أو توفق في زواج أو لا توفق، هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا الله أو من أطلعه الله على شيء من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم الله له، فلا يعلم الغيب إلا الله فمن ادعى علم الغيب فإنه يكون مشاركًا لله فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.(١)

وغيب المستقبل حقيقي لا يكون معلومًا لأحد إلا الله وحده أو من أطلعه عليه من الرسل فمن أدعى علمه فهو كافر لأنه مكذب لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يأمر نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يعلن للملأ أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله، فإن من أدعى علم الغيب فقد كذب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله في هذا الخبر.

ونقول لهؤلاء كيف يمكن أن تعلموا الغيب والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب؟ هل أنتم أشرف أم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فإن قالوا هو أشرف فنقول لماذا يحجب عنه الغيب وأنتم تعلمونه؟ وقد قال عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿عَٰلِمُ

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

ﭐلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، وهـذه آية ثانية تدل على كفر من أدعـى علم الغيب، وقد أمر الله تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلن للملأ بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: ٥٠].(١)

الخامس: من حكم بغير ما أنزل الله:

الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أرباباً لمتبعيهم فقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١]، فسمى الله تعالى المتبوعين أرباباً حيث جعلوا مشرعين مع الله تعالى، وسمى المتبعين عباداً حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنهم لم يعبدوهم فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بل إنهم حرموا عليهم الحلال، وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم».(٢)

إذا فهمت ذلك فأعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه، وآيات بكفره وظلمه، وفسقه.

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، كتاب التفسير سورة التوبة، ٥/ ٢٦٢.

فأما القسم الأول:

فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٥].

فوصف الله تعالى هؤلاء المدعين للإيمان وهم منافقون بصفات:

الأولى: أنهم يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن ما خالف حكم الله ورسوله فهو طغيان واعتداء على حكم من له الحكم وإليه يرجع الأمر كله وهو الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

الثانية: أنهم إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا.

الثالثة: أنهم إذا أصيبوا بمصيبة بما قدمت أيديهم ومنها أن يعثر على صنيعهم جاءوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر.

ثم حذر -سبحانه- هؤلاء المدعين للإيمان المتصفين بتلك الصفات بأنه -سبحانه- يعلم ما في قلوبهم وما يكنونه من أمور تخالف ما يقولون، وأمر نبيه أن يعظهم ويقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً، ثم بين أن الحكمة من إرسال الرسول أن يكون هو المطاع المتبوع لا غيره من الناس مهما قويت أفكارهم واتسعت مداركهم، ثم اقسم تعالى بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أقسم بها قسماً مؤكداً أنه لا يصح الإيمان إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان أو انحراف.

وأما القسم الثاني:

فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]، وهل هذه الأوصاف الثلاثة تتنزل على موصوف واحد؟ بمعنى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم والفسق فقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤]. فكل كافر ظالم فاسق، أو هذه الأوصاف تتنزل على موصوفين بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله؟ هذا هو الأقرب عندي والله أعلم.

فنقـول: من لم يحكـم بما انزل الله اسـتخفافـًا به، أو احتقـاراً، أو اعتقاداً أن غيـره أصلح منه، وانفع للخلق أو مثله فهـو كافر كفراً مخرجـًا عن الملة، ومـن هـؤلاء من يضعون للناس تشـريعات تخالف التشـريعات الإسـلامية لتكون منهاجـًا يسـير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه.

ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد ان غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك، فهذا ظالم وليس بكافر وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

ومـن لـم يحكم بما أنـزل الله لا اسـتخفافـًا بحكم الله، ولا احتقـاراً، ولا اعتقـاداً أن غيـره أصلـح، وأنفع للخلـق أو مثلـه، وإنما حكم بغيـره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشـوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ – فيمن اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابـًا من دون الله أنهم على وجهين:

أحدهمـا: أن يعلموا أنهم بدلوا ديـن الله فيتبعونهم على التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم، وتحريم ما أحل الله اتباعـًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركـًا.

الثـاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال –كذا العبارة المنقولة عنه– ثابتـًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم

مـا يفعله من المعاصـي التي يعتقد أنها معاصي فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

وهناك فرق بين المسـائل التي تعتبر تشـريعًا عامًا والمسـألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله لأن المسـائل يتأتى فيها التقسـيم السابق، وإنما هي من القسم الأول فقط لأن هذا المشرع تشريعًا يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد كما سبقت الإشارة إليه.[١]

الحاكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل:

- إذا حكـم بغيـر ما أنـزل الله معتقـدا أن حكمه جائز، وأن لـه أن يحكم، وحكمه قرين لحكم الله أو مسـاوٍ لحكـم الله، أو أفضل من حكم الله أو نحو ذلك. فإن هذا يعد طاغوتـًا.

- أمـا إن حكـم بغيـر مـا أنـزل الله وهـو يعلم أنه عـاص في حكمـه، وأن حكم الله جَلَّ وَعَلَا أفضل، وأن حكم الله جَلَّ وَعَلَا هو المتعين، ولكن غلبته نفسـه وشـهوته بـأن حكـم بغير ما أنـزل الله ببعض المسـائل، كمـا يحصل لبعض المفتونين من القضاة، أنهم يحكمون في مسائل بشهوتهم، كما كان يحدث في نجد من قرون قبل الدعوة، أنه كان يُرشى القاضي يرشى بمال فيحكم لأحد الخصميـن بغير حكم الله جَلَّ وَعَلَا، ويحكم بغير حكم الله، وهذا هو الذي جاء فيه الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره بإسناد قوي، أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «القضاة ثلاثة؛ قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل قضى بغير الحق وهو يعلـم الحق فذاك في النار» والعياذ بالله، هـذا النوع يحكم لأجل مال، يحكم لأجل رِشوة بغير ما أنزل الله، هذه معصية من المعاصي، ولا شك أن معصية

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

سمّاها الله جَلَّ وَعَلَا كفراً، أعظم من معصية لم يسمها الله جَلَّ وَعَلَا كفراً، كما يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في رسالته تحكيم القوانين فإذاً هذا الصنف من الناس فعلهم معصية.

- هناك نوع آخر حدث في هذا الزمن، وهو تحكيم القوانين؛ أن يستبدل الشرع بقوانين وضعية، يستبدل الشرع استبدالاً بقوانين، يأتي بها الحكام من عند غير الله ورسوله، يترك الدين، ويؤتى بتلك القوانين، فهذه كما يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ محمد ابن إبراهيم في أول رسالته تحكيم القوانين يقول ما نصه: «إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الوحي الأمين، على قلب سيد المرسلين، للحكم به بين العالمين، وللرد إليه عند تنازع المتخاصمين، معاندة ومكابرة، لقول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩]. ورسالته هذه بسَط فيها القول، وهي رسالة دقيقة مهمّة في هذا الباب، إذاً فصار تحكيم القوانين كفراً أكبر بالله، لأنه استبدال شريعة مكان شريعة، بدل شريعة الإسلام يأتون بشريعة فرنسا، أو شريعة أوروبا، أو شريعة إنجلترا، شريعة أمريكا، هذا استبدال، فإذا كان الحكم به غالبًا صار تحكيمًا، يعني صار الحكم في أكثر أمور الشريعة بهذه الأحكام القانونية صار استبدالاً، فمتى يكون كفرا؟ إذا كان استبدالاً، ومتى يكون استبدالاً؟ إذا كان تحكيم القوانين غالبًا، كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في فتاويه الشيخ محمد بن إبراهيم أيضًا مقيّدا: متى يكون الحكم بالقانون كفراً؟ قال إذا كان غالبًا فاشيًا. لما؟ لأنه استبدل شريعة مكان شريعة، فإذا غلب ذلك صار استبدال، وهذا قيد مهم، وهذه المسألة يكثر فيها الكلام في هذا العصر، بين

كلام متعلمين وعلى سبيل تعلم، وبين كلام جهال، وقلّ من يحرر الكلام فيها على نحو ما بينه العلماء بدقة وتفصيل.[(١)]

ودليله قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] فالذي يحكم بغير ما أنزل الله مستحلاً لذلك يكون طاغوتًا، والذي يقول: أنه يجوز أن يتحاكموا إلى القانون أو إلى العوائد في الجاهلية أو عوائد القبائل والبادية ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال، أو: هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي، ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا لأنه تجاوز حده، أما من حكم بغير ما أنزل الله وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافراً الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لكنه على خطر عظيم، على طريق قد يصل به إلى الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء واجتهد ولكن لم يصب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له، قال ﷺ: «إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر»[(٢)] لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق ويريد موافقة حكم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه على الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه

(١) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) مِن حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

على الخطأ، ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطؤوا فيها أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلى الحق ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.[١]

وهذه المسألة أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان فعلى المرء ألا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق لأن المسألة خطيرة -نسأل الله تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم- كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتتبين المحجة فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه ولا يهابن أحداً فيه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.[٢]

الحكم بالقوانين

ومن العلماء العاملين الذين تصدوا لإنكار المنكرات المخالفة للشريعة وممن ذادوا عن حمى التوحيد العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمستعرض لمجموع فتاواه يجد الكثير والكثير من الرسائل والفتاوى والمراسلات في إنكار الكثير من المنكرات وبخاصة منكرات تمس التوحيد وتقدح في كماله، ومن ذلك التحاكم إلى غير شرع الله وحول هذا الجانب المهم من جوانب التوحيد كتب رسالته المشهورة باسم (تحكيم القوانين) حيث كتبها مبينًا خطورة التحاكم إلى غير شرع الله وبين أقسام المتحاكم، والأحوال التي يكون فيها التحاكم كفرًا أكبر والأخرى التي يكون

---

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

(٢) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

فيها التحاكم كفرًا أصغر حيث بدأها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضةً ومعاندة لقول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

وقد نفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإيمان عمن لم يُحَكِّموا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما شجر بينهم نفيًا مؤكدًا بتكرار أداة النفي وبالقسم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء:٦٥]

ولم يكتف تعالى وتقدس منهم بمجرد التحكيم للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم بقوله جل شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ والحرج الضيق بل لابد من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق والاضطراب.

ولم يكتف تعالى أيضًا هنا بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما (التسليم) وهو كمال الانقياد لحكمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث يتخلوا هاهنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم تسليم، ولهذا أكد ذلك بالمصدر المؤكد وهو قوله جل شأنه ﴿تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ المبين أنه لا يكتفي ها هنا بالتسليم. بل لابد من التسليم المطلق...».(١)

(١) (تحكيم القوانين) ص(١٦١).

وفي نصيحة له رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع مجموعة من العلماء جاء فيها:

(وإن من أقبح السيئات وأعظم المنكرات التحاكم إلى غير شريعة الله من القوانين الوضعية والنظم البشرية، وعادات الأسلاف والأجداد التي قد وقع فيها الكثير من الناس اليوم وارتضاها بدلاً من شريعة الله التي بعث بها رسوله محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق، ومن أكبر شعائر الكفر والظلم والفسوق وأحكام الجاهلية التي أبطلها القرآن وحذر عنها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وهذا تحذيرٌ شديد من الله سبحانه لجميع العباد من الإعراض عن

كتابه وسنة رسوله ﷺ والتحاكم إلى غيرهما، وحكم صريح من الرب عَزَّوَجَلَّ على من حكم بغير شريعته بأنه كافر وظالم وفاسق ومتخلق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية، فاحذروا أيها المسلمون ما حذركم الله منه، وحكموا شريعته في كل شيء، واحذروا ما خالفها وتواصوا بذلك فيما بينكم وعادوا وابغضوا من أعرض عن شريعة الله أو تنقصها أو استهزأ بها أو سهل في التحاكم إلى غيرها، لتفوزوا بكرامة الله وتسلموا من عقاب الله، وتؤدوا بذلك ما أوجب الله عليكم من موالاة أوليائه الحاكمين بشريعته الراضين بكتابه وسنة رسوله ﷺ ومعاداة أعدائه الراغبين عن شريعته المعرضين عن كتابه وسنة رسوله ﷺ، والله المسئول أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم، وأن يعيذنا وإياكم من مشابهة الكفار والمنافقين، وأن ينصر دينه ويخذل إعلاءه إنه على كل شيء قدير)[(١)].

دراسة القوانين الوضعية

دراسة القوانين الوضعية وتدريسها والتي أدخلت مناهجها ضمن العديد من المعاهد والكليات في العديد من بلاد العالم الإسلامي.

وقد تكلم حول هذه المسألة الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفصل القول فيها، وأقسام الدارسين وبين حكم كل قسم من الأقسام.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(أما الدارسون للقوانين والقائمون بتدريسها فهم أقسام:

القسم الأول: من درسها أو تولى تدريسها ليعرف حقيقتها أو ليعرف

(١) انظر مجموع فتاواه (١٢/ ٢٨٤-٢٨٥).

فضل أحكام الشريعة عليها أو ليستفيد منها فيما لا يخالف الشرع المطهر أو ليفيد غيره في ذلك فهذا لا حرج عليه فيما يظهر ليس من الشرع بل قد يكون مأجورًا ومشكورًا إذا أراد بيان عيوبها وإظهار فضل أحكام الشريعة عليها، والصلاة خلف هذا القسم لا شك في صحتها وأصحاب هذا القسم حكمهم حكم من درس أحكام الربا وأنواع الخمر وأنواع القمار ونحوها كالعقائد الفاسدة أو تولي تدريسها ليعرفها ويعرف حكم الله فيها ويفيد غيره، مع إيمانه بتحريمها كإيمان القسم السابق بتحريم الحكم بالقوانين الوضعية المخالفة لشرع الله عَزَّوَجَلَّ وليس حكمه حكم من تعلم السحر أو علمه غيره لأن السحر محرمٌ لذاته لما فيه من الشرك وعبادة الجن عن دون الله فالذي يتعلمه أو يعلمه غيره لا يتوصل إليه إلا بذلك أي بالشرك بخلاف من يتعلم القوانين ويعلمها غيره لا للحكم بها ولا باعتقاد حلها ولكن لغرضٍ مباح أو شرعي كما تقدم).

القسم الثاني: من يدرس القوانين أو يتولى تدريسها ليحكم بها أو ليعين غيره على ذلك مع إيمانه بتحريم الحكم بغير ما أنزل الله ولكن حمله الهوى أو حب المال على ذلك فأصحاب هذا القسم لاشك فساق وفيهم كفر وظلم وفسق لكنه كفر أصغر وظلم أصغر وفسق أصغر لا يخرجون به من دائرة الإسلام وهذا القول هو المعروف بين أهل العلم وهو قول ابن عباس وطاووس وعطاء ومجاهد وجمع من السلف والخلف كما ذكر الحافظ ابن كثير والبغوي والقرطبي وغيرهم وذكر معناه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الصلاة، وللشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة جيدة في هذه المسألة مطبوعة في المجلد الثالث من مجموعة الرسائل

الأولى، ولا شك أن أصحاب هذا القسم على خطر عظيم ويخشى عليهم الوقوع في الردة، أما صحة الصلاة خلفهم وأمثالهم من الفساق ففيها خلافٌ مشهور والأظهر من الأدلة الشرعية صحتها خلف جميع الفساق الذين لم يصل فسقهم إلى حد الكفر الأكبر، وهو قول جم غفير من أهل العلم واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية...

القسم الثالث: من يدرس القوانين أو يتولى تدريسها مستحلاً للحكم بها سواء اعتقد أن الشريعة أفضل أم لم يعتقد ذلك فهذا القسم كافر بإجماع المسلمين كفرًا أكبر لأنه باستحلاله الحكم بالقوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله يكون مستحلاً لما علم من الدين بالضرورة أنه محرم فيكون في حكم من استحل الزنا والخمر ونحوهما ولأنه بهذا الاستحلال يكون قد كذَّب الله ورسوله وعاند الكتاب والسنة وقد أجمع علماء الإسلام على كفر من استحل ما حرمه الله وأحرم ما أحله الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة ومن تأمل كلام العلماء في جميع المذاهب الأربعة في باب حكم المرتد اتضح له ما ذكرنا.

فالقسم الثاني: لا شك في فسقهم، وأما القسم الثالث فإنه لا شك في كفر أهله وعدم صحة الصلاة خلفهم.[١]

والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة:٢٥٦]. **وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»**

هذا دليل على وجوب الكفر بالطاغوت بأنواعه.

(١) الدرر السنية (١/ ١١٠-١١٢) باختصار وتصرف.

بدأ الله عَزَّوَجَلَّ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت ولهذا يقال **التخلية قبل التحلية**.(١)

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، معناه أن أحدًا لا يكره على الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لا بد يكون عن اقتناع واعتقاد بالقلب ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا يكره أحد إلى الإسلام لأننا لا نملك القلوب، وإنما الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يملكها ويتصرف فيها ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه، نجاهد في سبيل الله من كفر لأجل نشر الإسلام وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء الله، أما الهداية فهي بيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا أحد يكره على الإيمان والإسلام.

وإنما هذا شيء راجع إليه هو، ثم قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فالإسلام ولله الحمد ليس فيه ما يكره بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين هذا من هذا، تميز الرشد وهو الحق، من الغي وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوى والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلى قبول الحق بدون أن يكره، هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، أن أهل الكتاب لا يجبرون على الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء على دينهم مكنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون، أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل، لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

---

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح أن الآية غير منسوخة وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه وإنما يدخل بالاختيار، لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل أو أخذ جزية مما شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة أو الاتباع أو في الطاعة لأن كلمة الطاغوت هنا عامة، قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله لأن الإيمان بالله لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فإنه لا ينفعه إيمانه، فالذي يقول: إنه مؤمن ويصلي ويصوم ويزكي ويحج ويفعل الطاعات لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا لأنه لم يكفر بالطاغوت.

فلا بد من الكفر بالطاغوت وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لا بد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فلا تصح عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب، الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.(١)

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي تمسك بها تمسكًا تامًا والعروة الوثقى

(١) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

هي الإسلام وتأمل كيف قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾، ولم يقل: (تمسك) لن الاستمساك أقوى من التمسك فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك.[١]

قال بعد ذلك **(وهذا هو معنى لا إله إلا الله)** ما معنى لا إله إلا الله؟ هو قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ لأن الكفر بالطاغوت هو معنى النفي بـ(لا إله) والإثبات وهو قوله: ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هو المستفاد من قوله (إلا الله).[٢]



وَفِي الحَدِيثِ: «رَأسُ الأَمرِ الإسلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ».[٣] وَاللّهُ أَعلَمُ.

وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى إله وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتى بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس عمود وسنام فإذا قطع الرأس أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين؛ لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٢) من شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) والنسائي في «الكبرى» ١٠/ ٢١٤-٢١٥ (١١٣٣٠) مِن حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل بيت الشعر أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليها فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فقدت فإن الإسلام لا يقوم، ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر على الصحيح ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك، ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل على قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل على قوة الإسلام لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبي ﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس، والعمود، والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا فالذي لا يحقق الرأس وهو التوحيد لا دين له. والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

والذي لا يصلي لا يقوم له دين وإن شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ لأنه يحتاج إلى عمود يقيم عليه الدين وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فقد الجهاد فقدت القوة في الإسلام وصار إسلامًا ضعيفًا وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين،

رأس وعمود وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل على أنه قوي وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل على أنه هزيل ضعيف.

كذلك المسلمون اليوم مستضعفين في الأرض ولهذا في الحديث «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»(١) فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسمن، كالسنام للحيوان.(٢)

وَاللهُ أَعلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ.



(١) أخرجه أبو داوود (٣٤٦٢) مِن حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) من شرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.



الخاتمة

ختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ رسالته هذه برد العلم إلـى الله عَزَّوَجَلَّ والصلاة والسـلام على نبيه محمـد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبهذا انتهت الأصول الثلاثة وما يتعلق بها فنسأل الله تعالى أن يثيب مؤلفها أحسن ثواب، وأن يجعـل لنا نصيباً من أجرها وثوابها، وأن يجمعنا وإياه في دار كرامته، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.(١)



(١) من شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

الفهرس

